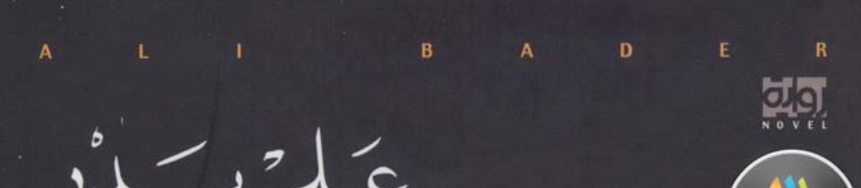










11.9.2012





علي بدر

مصابيح أورشليم

الطبعة الثانية



مصابيح أورشليم : رواية عن إدوارد سعيد / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الثانية ، 2009



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والخطوط والإشراف الفنّي :
محمد سيد ®
لوحة الغلاف : **كلود لازار / فرنسا**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-909-7

علي بدر
روائي عراقي

صدر له:

* بابا سارتر ، رياض الريس ٢٠٠١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢ ، بيروت ٢٠٠٦
  - جائزة الدولة للآداب في بغداد
  - جائزة أبو القاسم الشابي في تونس
* شتاء العائلة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد/ ٢٠٠٢
  - جائزة الإبداع الروائي في الإمارات
* صخب ونساء وكاتب مغمور ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت/ ٢٠٠٥
  - منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية
* الوليمة العارية ، دار الجمل ، كولونيا/ ٢٠٠٥
* الطريق إلى تل المطران ، دار رياض الريس ، بيروت/ ٢٠٠٥
* خرائط منتصف الليل ، رحلات ، أبو ظبي/٢٠٠٦
  - جائزة ابن بطوطة للرحلات في أبو ظبي
* ماسنيون في بغداد ، دراسة ، دار الجمل ، كولونيا/ ٢٠٠٥

-١-

تقرير أولي

«أما نحن فكالحراس محكومون بالوقوف
في ليال بلا نجوم ننتظر الساعة الموقوتة»

Jean Dryden

كان صديقي أيمن مقدسي-الفلسطيني الأصل- والمولود في بغداد في العام ١٩٦٤ ، هو الذي بدأ بفكرة هذه الرواية عن إدوارد سعيد ، وهو الذي اخترع شخصياتها ، وأحداثها ، ومعجمها ، ومنذ البداية .

في الواقع ، لم أكن معنياً أوّل الأمر بما كان يكتب ، أو بما كان يقول ، أبداً . ولم أنتبه أو أصغ له حينما كان يحدثني عن مشروعه هذا مطلقاً ، ولكني وعند استغراقه في البحث ، وسؤاله لي كل مرة عن مصدر أو كتاب ، أو عند مناقشته لي ولعلاء خليل- صديقنا الآخر والذي يقع على الطرف النقيض تماماً من أيمن مقدسي- لكل فكرة تقريباً ، وشيئاً فشيئاً ، ومرة بعد مرة ، وجدت نفسي مشتركاً معه في كل ما كان يكتب ، ومتوغلاً معه في كل ما كان يبحث ، وملتزماً أخيراً-وحدي- بكلّ ما ورد في هذا الكتاب كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، لقد وجدت نفسي أنا الكاتب الوحيد لهذا الكتاب لاسيّما بعد الدراما المأساويّة لاختفائه .

كان آخر لقاء لي معه في بغداد قبل ثلاثة أعوام ، وقد رأيته في مقهى الجماهير القريب من باب المعظم ، وهو مقهى متواضع يتكون من بهو عريض وواجهة زجاجية وتخوت خشبية ، يقع في زقاق صغير بالقرب من صحيفة الجمهورية الواسعة الانتشار ، وكان يجلس فيها-قبل الاحتلال- الجيل الأخير من الكتاب والفنانين والرسامين والمسرحيين والسينمائيين ،

وقد تميز هذا الجيل بانفصاله الملحوظ عن الجيل السابق ، سواء أكان ذلك في الرؤية للأحداث أم بتعلقه بالصرعات الحديثة ، أم بالأفكار الغريبة حيث كان أغلبهم قريباً من الأفكار المتطرفة في الفن .

كان أيمن يرتدي ذلك اليوم جاكتة مخططة ، وبنطلوناً من الجينز عتيقاً جداً ، وقد بدا عليه التعب والإرهاق بصورة واضحة ، فذقنه لم يحلق من مدة طويلة . وشعره الطويل غير ممشّط ، وقميصه مفتوح ، وحين جلس إلى جانبي لم يكن مرتاحاً في جلسته أبداً . وكان استكان الشاي يرتجف في يده ، ولم يتكلم كثيراً معي كعادته ، أو يناقش نقاشاته المتحمّسة كما تعودته ، بل كان صامتاً ، شارد الذهن على الدوام ، غير مكترث لأي شيء .

أما الوضع المحيط بنا فقد كان استثنائياً تماماً ، كان مضطرباً ومشوشاً ، وأصوات الانفجارات تأتينا متلاحقة ومن كل مكان تقريباً ، وأنا ذاتي كنت مضطرباً وقلقاً بل ومرتبكاً إلى حدّ كبير ، وحدثته بأني سأسافر سريعاً ، أي إني سأغادر العراق بأسرع ما يمكن ، وكلمته عن ظروف زيارتي لبغداد في هذا الوقت من العام بالذات ، وعن المخاطر التي أواجهها ، والظروف الصعبة التي أعاني منها ، وأبدى تعاطفه الشديد معي ، وقد وافقني في كل شيء تقريباً ، وقال لي إنه من الخطر على حياتي بقائي هنا ، وعليّ الرحيل بأسرع ما يمكن ، لأن الصحفيين القادمين من الخارج كانوا مستهدفين ذلك الوقت .

وحين سألته عن كتابه الذي كان يعمل عليه ، أو روايته عن إدوارد سعيد ، أخرج من حقيبته أوراقاً عديدة ، قديمة وحديثة ، مكتوبة بقلم الحبر أو مطبوعة على آلة كاتبة ، بعضها مكرّر ومعاد ، والآخر حديث ، كما أخرج أيضاً أوراقاً ووثائق نادرة ، وصوراً فوتوغرافية ، ومخطوطات موضوعة في كيس أسمر كبير ، وطلب مني أن أطلع عليها ، ولما بدأت بتقليبها اقترح

علي أن أأخذها معي إلى المنزل لقراءتها كاملة وكتابة ملاحظات له عنها .

وافقت بطبيعة الأمر على اقتراحه ، على أن أراه في اليوم التالي وفي الساعة ذاتها وفي المكان نفسه ، وأخبرته بأني على سفر بالتأكيد ، وعليه أن يأتي لاستلام كتابه مرفقاً بملاحظاتي ، بل أكدت له بأني بعد أن أراه في الغد سأذهب إلى المحطة مباشرة وسأغادر العراق ، وبالتالي عليه أن يأتي حتماً لاستلام كتابه ، فهز رأسه موافقاً ، وأكد لي مجيئه . غير أنه طلب مني شيئاً مهماً وعلي التقيد به ، قلت له : ما هو؟ قال لي في حالة عدم مجيئه في الغد ، علي أن لا أترك الكتاب عند أي شخص ، مهما كان ، حتى لو اضطررت لأخذه معي والاحتفاظ به .

(بطبيعة الأمر لم أسأل أيمن مقدسي لم قال هذا الكلام ، فأنت لا تسأل لماذا لا يأتي شخص إلى موعد في بغداد أيام الحرب ، ذلك أن عدم مجيء شخص لموعده أمر وارد تماماً ، بل لا أحد يخرج من منزله وهو متأكد من عودته ، أو من وصوله إلى المكان الذي يريد الوصول إليه أبداً) .

عند عودتي إلى المنزل ، وبسبب انقطاع الكهرباء ، لم أستطع قراءة المخطوطة ، كما أني لم أكن في ذلك الوقت متحمساً جداً للقراءة ، فكانت زيارتي لبغداد سريعة ، بل خاطفة ، وأردت فيها الاطمئنان على عائلتي ورؤية أصدقائي والاطمئنان عليهم ولاسيما في ذلك الوقت العصيب من الحرب-أو هكذا كنت أقول للآخرين حينما كانوا يسألونني عن سبب مجيئي إلى بغداد- خافياً مهمة أخرى كنت جئت من أجلها ، وهي إني كنت مبعوثاً من قبل صحيفة فرنسية لكتابة تقرير عن الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية في العراق بعد زوال النظام السابق ، وحياة الناس تحت ظروف الاحتلال ، واحتمالات الحرب الأهلية .

غير أن المخاطر كانت كثيرة ولاسيما لشخص مثلي ترك العراق منذ زمن بعيد ، فمعرفتي بالطرق والشوارع والأزقة والمحلات الخطرة ضعيفة ،

كما أني لا أستطيع حدس المخاطر التي تحيط بي ، فأثناء غيابي تغيرت المعطيات كثيراً عما كنت أعرفها ، لذا كان علي المغادرة بالسرعة القصوى ، فالغرباء هم أفضل الأهداف نسبة للمسلحين ، كما أن الصحافيين هم أيضا عرضة لاختطاف جهات عديدة .

***

بعد أن أشعلت الفانوس في حجرتي بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، جلست أمام منضدتي في حجرتي القديمة في منزل أهلي ، كتبي على حالها كما تركتها منذ أعوام ، ملابسي معلقة على الشماعة أيضا ، فقد حرصت أمي أن لا يدخل أحد إلى الحجرة منذ مغادرتي وحتى اليوم ، اللوحات على الحائط علاها الغبار ، وصورتي أنا وأيمن مقدسي وعلاء خليل ومجموعة من الأصدقاء الكتاب الشباب بعد حرب الخليج الثانية موضوعة في الزاوية أيضاً . كان الورق الأبيض أمامي ، ومخطوطة صديقي أمامي أيضاً ، ولكني بدلاً من قراءة المخطوطة والاطلاع على الأوراق والوثائق والصور والخرائط التي قدمها لي وإبداء ملاحظاتي عنها ، بدأت أخطّ الأسطر الأولى من تقريري ، وتدوين الملاحظات الأساسية التي رأيتها ، وكتابة بعض الأفكار أو الخطوط العامة والأحداث التي رأيتها قبل نسيانها ، وكانت في الواقع أشياء كثيرة ، فهنالك وفي كل مكان تقريباً شيء ما مهم يمكن تدوينه ، وكنت أملت نفسي بأني بعد تدوين هذه الملاحظات والمشاهد سأتفرغ لمخطوطة صديقي ، غير أن الكتابة أخذتني حتى الصباح ، وعند الفجر نمت ، وحين استيقظت كان الضحى قد انقضى ، فحملت الكيس الذي يحمل المخطوطة والأوراق والصور والوثائق كاملاً دون أن أفتحه ، وذهبت به إلى المقهى ، وبدلاً من الملاحظات التي وعدته بكتابتها له ، أعددت له اعتذاراً مقنعاً ، أو هكذا كنت أعتقد . . .

جلست في المقهى على الكنبة العتيقة المواجهة للزجاجة الخارجية ،

أصوات الانفجارات تسمع من بعيد ، والمثقفون يتحدثون على الدوام عن الحرب ، غير أنهم كانوا منقسمين تماماً فيما بينهم : الاحتلال ، الإرهاب ، المليشيات الدينية ، استمرار الفوضى ، الحرب الأهلية ، بعضهم يقع في هذا الطرف والآخر في الطرف المقابل ولا لقاء بينهما أبداً ، بعضهم متفائل جداً ، والآخر متشائم جداً ، وهذا الأمر كان يجرهم إلى نقاشات متعصبة وعمياء وإلى اتهامات كريهة ، وأكثرهم أخذ يعمل في الصحف الكثيرة التي افتتحت تلك الأيام ، أو مراسلين في الشبكات الإذاعية والتلفزيونية الأجنبية أو المحطات المحلية التي افتتحت حديثاً ، أو مراكز الأبحاث وما أكثرها ، باستثناء أيمن مقدسي الذي كان متشائما جداً ، وترك كل عمل حتى عمله في الجامعة ، وكانت عواطفه مشوشة تماماً ومضطربة ، ولم يكن قادراً على إبداء رأي صريح بالأحداث بسبب الاتهامات التي يواجهها ، وكان تبادل الاتهامات والشك بين المثقفين على أعلى درجة ، ربما كان هذا الأمر من الأسباب الأخرى لاختفاء أيمن مقدسي أو لانتحاره ، ومع ذلك جلست وتحاورت وتناولت الشاي مرتين ، ودخنت السيجارة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، غير أنه لم يأت .

كان الوقت يمر ، ووقت رحيلي يقترب ، وكنت أزداد توتراً وقلقاً ، فقد أكد لي ، وشدّد بأن لا أترك المخطوطة والأوراق والصور الفوتوغرافية النادرة مع أحد ، حتى لو لم يأت . . . وهكذا وجدت نفسي في المحطة واقفاً أمام الباص الذي يتهيأ للانطلاق ، وبيدي مخطوطته وأوراقه والوثائق والصور النادرة التي عثر عليها والتي تفيده في كتابة روايته ، وعيني مصوبة إلى البوابة الواسعة ، منتظراً ، ومتخيلاً بأنه سيأتي في اللحظة الأخيرة راكضاً مهرولاً لأخذها مني . . . غير أنه لم يأت ، وقد أصابني اليأس ، وعندما بدأ الباص بالتحرك ، وعيون الركاب مصوبة نحوي ، استسلمت تمامًا للأمر الواقع ، لقد لحظت استياءهم وتذمرهم ، كما أن السائق ذاته حذرني أكثر

من مرة إن لم أصعد فإنه سينطلق دوني .

أخيراً ، ركضت نحو الباص ، صعدت ، وجلست على الكرسي ، مع ذلك بقيت في نفسي بقيا أمل صغيرة بأنه سيأتي في اللحظة الأخيرة ، كنت أتلفت نحو البوابة الخارجية لمحطة السيارات ، عله يأت ولو في وصوله المتأخر ، غير أن الباص انطلق بسرعة كبيرة على الإسفلت الصلب نحو الطريق السريع المؤدي إلى الحدود ، فارتخت يداي اللتان تمسكان الكيس الأسمر الذي يحوي أوراقه مسنداً إياها على ركبتيّ ، ووضعت رأسي على النافذة بعد أن اعتصر قلبي ساعتها حزن كبير ، وشعرت بوخز وتوتّر مؤلم ، إذ إن السؤال الذي هيمن علي تلك اللحظة وأقلقني تماما ، هو : ماذا حدث له بالضبط؟ ولماذا لم يأت لأخذ مخطوطته مني؟

لم تكن أفكاري السوداوية هي السبب في هذا الحزن ، إنما واقع الحال ، فليس هنالك أي تفسير آخر لتأخره سوى قنبلة ما انفجرت في طريقه ، أو رصاصة طائشة أصابته ، أو حادث اغتيال . . .

وحدها هذه الأشياء المريعة كانت تفسّر غياب الأشخاص ذلك العام وتأخّرهم عن مواعيدهم . . .

***

أن يكون قتل أو اغتيل ، الأيام اللاحقة لم تثبت ذلك .

أن يكون انتحر . . . ربما . . . ولكن أين جثته؟

ملاحظاته عن انتحار والدة الكاتب الإسرائيلي عاموس عوز والذي جعل منه أحد أبطال روايته ، وجعل بعض أبطال روايات هذا الكاتب شخصيات في روايته أيضاً ، قد تفسّر جزءاً قليلاً من هذا الأمر ، وأنا أقصد هنا بطبيعة الأمر الفقرة التي انتزعها من كتاب عاموس عوز «موتى جدتي» ووضعها في معجمه ، وملاحظاته الأخرى الموضوعة في نهاية هذا الكتاب ، والتي تخص كتّاباً آخرين كان يتصور أنهم مفيدون في كتابه ،

كما هناك الملاحظة الأخرى المهمة التي وضعها عن كلاوسنر جد الكاتب الإسرائيلي الآنف الذكر، وأقصد بها المسافة بين وهم المدينة وواقعها، وأيضا الملاحظة التي انتبه لها ووضعها عن إدوارد سعيد في زيارته للقدس، أو بعد زيارته لها، وكذلك الملاحظة المنتزعة من كتاب فلوبير عن القدس أيضاً، وهنالك أشياء كثيرة أخرى ولكنها مغايرة للمنحى العام لتفكيره، وأنا هنا لا أريد الخوض فيها، طالما أن كتابه هو رواية عن إدوارد سعيد، أو بشكل أدق هو رواية عن إدوارد سعيد في زيارته للقدس، وهي رواية بكل الأحوال . . . وليس كتاباً يحمل مواقف ثابتة، أو أشياء جاهزة، أو رؤى حقيقية، بمقدار ما هو وهم أو خيال، أو توهم حقيقة، أو إمكان لوجود أو احتمال ممكن .

مرة سألته :

- رواية عن إدوارد سعيد . . . لماذا رواية؟ لماذا لا تكتب عنه كتابًا؟

قال : لأن إسرائيل نشأت من أسطورة أدبية . . . من فكرة رومانتيكية . . . نشأت من رواية . . . وبالتالي يجب إعادة كتابتها عن طريق الأدب أيضًا . . . يجب تكذيبها عن طريق الرواية . . . الرواية هي أفضل حرب . . . طالما كل الحروب قد خسرت وفشلت لماذا لا نجرب الرواية . . . إدوارد سعيد كان أخطر حرب على إسرائيل، أخطر من كل الحروب الفاشلة التي خضناها . . .

كان يعتقد أن أفضل ما يفعله هو إعادة سرد الأساطير لتكذيبها . . . لتدميرها . . . لكشف خداعها . . . لكشف زيفها . . .

- التاريخ . . . يصرخ . . إنه اختراع . . . زيف . . . سرد موهوم . . . وهو متقطع وليس عملاً متسقاً . . . ولكن الخدعة السياسية تجعل منه عملاً متسقاً ومتلاحقاً . . . كما أنه احتمال . . وهو ممكن . . ولكنه ليس شيئًا قطعياً ونهائياً . . . وهذا ما سأفعله بروايتي هذه . . . كل واقعة تخضع إلى

سرد مختلف من قبل مستخدميها ، يوم النكبة للفلسطينيين هو يوم تأسيس إسرائيل ، هو عذاب وضياع وتشرد للفلسطينيين وهو يوم وجود وكيان للإسرائيليين . . . هذه رواية وتلك رواية أخرى . . . وهكذا سأجعل من سعيد البطل الذي يكذب الرواية الإسرائيلية . . .

وهو محق في هذا الأمر ، طالما أني رأيت لديه كل هذا الاهتمام بكل ما هو متغير ومتحول ، ولديه كل هذا الاهتمام بها كونها فن احتمال حقيقة وواقعاً ، كما كان لديه هذا الاهتمام العالي بالأشياء التي لا تتجمد ولا تستقر أكثر من اهتمامه بالأشياء القطعية والثابتة والحاسمة . . . وقلت في نفسي حسن ربما هذا يفسر بذاك . . . طالما هو يكره الآديولوجيا ، ويؤمن بالتغير ، والتحول ، وهو ذاته تغير وتحول أكثر من مرة في حياته ، كما تحول وتغير إدوارد سعيد في حياته أكثر من مرة ، إذن فإنه واقعي جدًا من هذه الناحية ، وطبيعي أن يختار هذا المنحى ، كما كان هنالك شيء آخر أيضًا : هو اهتمامه الشديد ، ومنذ زمن بعيد برواية يوليسيز لجيمس جويس .

قال لي مرة ، إنه يريد أن يصنع من إدوارد سعيد يوليسيز ، ومن أورشليم . . . دبلن .

ولكن وفي فترات إخفاقه وتعبه وانهياره ، يعترف بأنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً ، ذلك أن إدوارد سعيد لم يكن يوليسيز مطلقاً ، كما أن أورشليم لم تكن دبلن أبداً .

مع ذلك كان يقول لي في فترات الراحة والانشراح وسعادة الاكتشاف :

«كل واحد منا له أورشليمه الخاصة به . . . »

«أورشليمه الخاصة به . . . ماذا تقصد؟»

«أورشليم هي المدينة الضائعة . . . هي الحلم . . . والكل يبحث عنها . . . هي اليوتوبيا التي لم تتحقق ولن تتحقق أبداً طالما أن خيالها أكبر

من واقعها . . . »

«كيف ؟»

«مدينة صغيرة . . . لكنها احتلت كل هذه المساحة التاريخية من عقل البشر وعلى مر القرون . . . إذن هي سرد موهوم أكثر من كونها واقعاً»

في الواقع-وهذا ما فهمته لاحقًا من تطور سيرته وحياته وكتابته-كان أيمن مقدسي يتحدث عن القدس بوصفها المدينة التي طرد أجداده منها في العام ١٩٤٨ . . . وهي المدينة الواقعية التي لها حياتها وآثارها وناسها ومواقعها ، ويتحدث عن أورشليم بوصفها المدينة المحلومة التي تقع فوق المدينة الحقيقية وعلى خارطتها ، وهذا الأمر يظهر على نحو جلي في لحظات خيباته وإخفاقاته ويأسه ، وكانت هذه اللحظات كثيرة جداً ، وليست قليلة أبداً ، وهذا ما أثار استغرابي . . . ولكنّني حين سألته مرة : لماذا لا يترك هذا الموضوع ، ويشطبه تماماً من رأسه .

«كيف . . . أشطبه من رأسي . . . أنت مجنون؟»

كان يرفض التخلي عن هذا الأمر بشدة ، بل كان يقول إن الكتابة عن هذه المدينة العجيبة ، والبحث في تفاصيلها الغريبة ، وأحداثها المعقدة ، وشعوره بأنه يتجول في شوارعها ، ويدخل مكتباتها ، ويدخل جوامعها أو كنائسها ، ويسير في بازارتها ، ويسكن حاراتها وحده كافياً أن يمنحه من الراحة والسلام ما لم يكن أي شيء على الإطلاق يمنحه إياه .

وقد قال لي مرة ، وهو يحاول أن يلعب على الكلمات ، ولكنه كان صادقاً بطبيعة الأمر في كل ما كان يعنيه من ذلك الأمر :

«حسن أنت تعتقد أنها لا تساوي شيئاً أليس كذلك؟»

«نعم . . . » .

«نعم هي لا تساوي شيئاً ولكن لا شيء على الأرض يساويها أيضًا» .

كان يدرك-كما أدركت أنا فيما بعد ، وأنا أتتبع خطاه-أننا لن نصل إليها مطلقاً . . . نراها . . . نركض وراءها ولكننا لا نصل إليها أبداً ، مثل الأبدية تركض أمامنا ونحن نركض وراءها بلا انقطاع . . . حتى وإن عشنا فيها فإنها ليست هي . . . إنها الفقدان الأبدي ، وهي الخسران المطلق ، هي الزوال المستمر . . . ونحن لن ندرك أمرها هذا إلا بعد أن نراها أو نعيش فيها . . . وكل الذين عاشوا فيها كانوا يقولون إن أرواحهم فيها لكنهم لم يصلوا إليها أبداً . . . وهي من جهة أخرى حلم كل المنفيين في الأرض ، كل الغرباء ، كل المشردين ، والهامشيين ، والمغتربين ، والمهاجرين ، ومن لا أرض ولا وطن له ، إنهم يبحثون عنها ولا يجدونها ، وإن وجدوها فإنهم يبحثون فيها عنها ، في داخلها وفي خارجها ، يبحثون عنها في أحجارها وفي ظلالها . . . ويدركون مرة بعد أخرى بأنها وحدها التي تملك الترياق الذي يشفيهم ولا علاج لهم في سواها . . . إنهم مسمومون بها ومنها لأنهم بعيدون عنها دائماً وأبداً . . . وضائعون فيها وفي خارجها . . . أو على الأقل إن المنفي عن بلاده وما أكثرنا . . . يحلم بها ، لأنها ملاذه أو وطنه على الأرض ، ولا غيرها . . . إنها ملاذ الجميع وعلى مر التاريخ . . . إنها وطن كل من لا وطن له . . .

مرة قال لي إنه لا يستطيع العيش من دون الحلم بها ، إنها مدينة خيال . . . يوتوبيا عظيمة نعم- كل ما تقوله عنها صحيح-قال- أنا لم أرها ولم أعش بها ولا أعرفها ، ولكني سأبقى أحلم بها .

«هل للقداسة شأن في هذا؟»

«أبداً لا علاقة للقداسة الدينية بهذا الأمر مطلقاً» .

كنت أعرفه جيداً ، فهو لم يكن متديناً مطلقاً ، وليست لديه هذه الوساوس الدينية للاحتياز على مدينة مقدسة ، غير أنه ومن باب الفن لا ينكر أنها مدينة صنعتها الآلهة وأنزلتها إلى الأرض ، ولكن في الإطار

الأسطوري لا الديني، فهي المدينة المرغوبة والمشتهاة لكل بعيد عنها، لكل خارج منها، ولكل منفي عنها، وهي أكثر مدينة على الأرض زارها المحتلون والمنفيون والمهمشون والمطرودون والمعذبون واللاجئون والمغتربون والأرستقراطيون والمتدينون والبرابرة . . .

بهذا المعنى فهو لا يبحث عن مدينة دينية، كان يبحث عن مدينة متجردة ومنفية مثله، ولذلك لا يستطيع التخلي عن التفكير بها أبداً . . .

- كل المطرودين يحلمون بالحياة فيها . . . لكنهم حين جاءوا إليها طردونا منها . . . بمعنى آخر حين تكون على أرض وتطرد منها مهما كانت هذه الأرض . . . مهما كانت . . . ستتحول فيما بعد إلى فردوس، فكيف ترحل عن مدينة يعتقد الكل أنها فردوس ويريد أن يذهب إليها . . . هل يحق لمن يأتي إليها أن يطرد ساكنها . . . ويجعله يهيم على وجهه في الأرض . . . ؟

أيمن هو نموذج المقتلع، المغترب، المنفي، البلا جذور، هو الفلسطيني التائه بعد أن حل اليهودي التائه في أرضه وطرده عنها، غير أنه وجد طريقة جديدة، وجد علاجاً لآلام اغترابه ونفيه، وهو الحياة فيها عن طريق الكتابة عنها، فتصبح الكلمات عالماً، وتصبح الأحداث حياة، والأسماء كينونة وواقعاً، وينسى المكان المعادي الذي يحيا فيه ويعيش في المكان الآخر، المكان غير الموجود إلا على الورقة البيضاء، وهكذا يهرب من هذا الوجود الحقيقي والواقعي، والذي لا يحبه ولا يرغب فيه، إلى إمكان ذاك الوجود المتوهم والمتخيل، يهرب من الجغرافيا الحقيقية الغريب عنها إلى الجغرافيا المتخيلة، فيصبح لكل شيء وجوده الفعلي، حتى الشخصيات التي اخترعها وتوهمها تصبح حية نابضة بالحياة مرتعشة وساخنة، كان يشرع بالكتابة عن طريق الصور الفوتوغرافية والخرائط والكاتلوغات والمخططات فيشعر وكأنه ساكن فيها، شيء بارد يغمره

ويغشي عينيه ، يشعر بأنه ارتاح تماماً ، وما إن يفارقها ، أو لا يفكر بها ، يشعر بأن حياته اضطربت وتخلخلت واهتزت تماماً . . .

مرة بكى أمامي ووضع رأسه على الطاولة . . .

«نعم كل ما قيل عنها صحيح . . . أنا أعرف هذا جيداً . . . مدينة صغيرة . . . بشعة . . . يقطنها المتدينون ، مسلمين ومسيحيين ويهوداً . . . وهم كسالى ولا يعملون بطبيعة الأمر ، وهذا ما جعلها فقيرة على مدى التاريخ ، وهي لا تقع على بحر ، ولا يمر بها نهر ، وليس فيها أي شيء له قيمة . . . ولكن صدقني . . . لو عشت في تاريخها مرة واحدة ، فإنك تجد نفسك وقد تغيرت تماماً ، بل وأؤكد لك ذلك أنت لن تهدأ مطلقاً . . . إلا وأنت على أرضها . . . »

كان مثل فلوبير في زيارته لها – مع أن أيمن مقدسي لم يزرها مطلقاً ، فهو مطرود عنها – لقد شعر فلوبير بخيبة أمل كبيرة عندما دخلها ، شعر بأن ما كتبه الحجاج الأوربيون عنها هو وهم كبير ، ووصفها بالقذارة الصريحة ، وعنون أحد فصول رحلته إلى القدس «لا تصدق الحجي . . . مثل عربي» ساخراً من الحجاج الأوربيين الذين كانوا يزورونها ويتحدثون لفقراء المسيحيين عنها ، مما يجعل الأخيرين يبيعون كل شيء حتى أثاث بيوتهم ويذهبون للحج هناك ، ولا أحد يتحدث الحقيقة ، فهؤلاء أيضا يعودون ويتحدثون عن مدينة لا مثيل لها على الأرض ، ولكن حين زارها فلوبير وشاهد كآبتها وبشاعتها سخر منها ، وسخر من قبر المسيح فيها ، ومن واليها ، ومن ناسها ، ومن أرضها ، ومن جبلها ومن أسواقها ، ومن كل شيء فيها . . . وأخيراً وصفها بالقذارة الصريحة .

كان صديقي يدرك هذا الأمر جيداً ، ويعترف به ، ويستشهد بفقرات كثيرة من الرحلة الفضائحية لفلوبير ، بل وضع هذه الفقرة المنتزعة من مذكرات رحلة فلوبير إلى الشرق في معجمه الذي وضعته أنا في نهاية

هذه الرواية ، وكذلك وضع جملة كلاوسنر جد الروائي الإسرائيلي عاموس عوز ، الذي كان يعتقد بأن هنالك أورشليم أخرى غير هذه التي هاجر إليها وقطنها ، وكان يبحث عنها ، بل إن عوز يعتقد أن أمه انتحرت ، ربما لأنها لم تجد المدينة التي كانت تحلم بها ، وخيبة أمل إدوارد سعيد أيضا بعد زيارته لها ، لأن الكولنيالية تغير كل شيء ، وقد غيرت الكولنيالية الإسرائيلية المدينة وجردتها من حياتها وفرضت عليها شكلها الذي تريده لها . وهكذا فهي لم تعد في نظر إدوارد سعيد تلك المدينة التي عاش بها ، وأمضى أيامه مغترباً فيها وهذا ما تصوره هذه الرواية أيضاً ، لكنه في الوقت ذاته كان يشعر أن هذه المدينة هي الحل الأخير لضياعه ، وهي ترياقه الأخير ، ولن يعيش دون التفكير بها ، أو الكتابة عنها ، بل لن يستطيع مفارقة التفكير بها ، أو التمتع بمعرفة شوارعها ، وأسماء أزقتها ، ومعرفة حاراتها ، أو التجول في ساحاتها ، أو النوم في فنادقها ولو خيالاً وتوهماً .

من دونها لن يستطيع الحياة أبداً .

***

بطبيعة الأمر هذا فيما يخص المدينة . . . أو فيما يخص المكان . . . وهو مهم بطبيعة الأمر وضروري أيضا لا لأنه ديكور ، أو أثاث ، أو واجهة ، إنما لأنه حياة حية ، وواقع خصب ، وتاريخ ، وروح نشطة ومعايشة ، وهو مهم جداً كذلك بالنسبة للكاتب الذي كان يشعر بأنه المهدئ الحقيقي لاضطرابه ، وهي المدينة التي تزيل عنه آلام منفاه واغترابه ، وهي ترياق شاف لجروحه السياسية ويأسه ، ولكن هنالك أمر مهم آخر ، هو البطل . . . إدوارد سعيد . . .

وأهمية إدوارد سعيد لا تكمن فقط في كونه ابن المدينة العربي المقابل لعاموس عوز وديفيد غروسمان وإبراهيم بن يوشوا وديفيد شاحور ، وهم الأدباء الإسرائيليون الذين عاشوا في القدس وكتبوا روايات كبيرة

عنها ، وأغفلوا فيها وجود المواطن الأصلي ، فالعربي الذي كان يعيش في هذه المدينة قبل إعلان دولة إسرائيل لا وجود له في روايات هؤلاء إلا بوصفه شبحاً ، خيالاً ، أو بدوياً يربي الأفاعي ، غير أن مذكرات سعيد عن المدينة في زيارته لها تقابل وتكذب رواياتهم ، فالمدينة كانت مسكونة بطبقة عربية ثرية أجليت ودفعت خارجها . وبذلك تكون هذه الرواية هي رواية عن إدوارد سعيد عند زيارته لها ، كما أنها أول رواية عربية مكتوبة عن هذه المدينة العجائبية مقابل أكثر من مئة رواية إسرائيلية عنها ، سيقوم هو بتفكيكها واستخدام شخوصها للعودة مع سعيد إلى فكرة زحزحة الرواية التاريخية أو تدميرها ، ولأنها اختراع فهو يقوم بتهديمها عبر اختراع مقابل .

«ولكن لماذا إدوارد سعيد؟» . . . سألته مرة .

في الواقع ، يكشف هذا الأمر الغريب والاستثنائي قصة جيل كامل من المثقفين في العراق ، وهو الجيل الأخير الذي نشأ في بداية التسعينيات من القرن الماضي تقريباً ، أي الجيل الذي نشأ عقب انتهاء حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية) واندلاع حرب الخليج الثانية ، ففي احتلال الكويت تدمرت أسطورة الثقافة القومية والوطنية ، وفي تدمير بغداد انهارت أسطورة الغرب ، ولا سيما عند الجيل المثقف منه ، وهو أكثر الأجيال التي عانت من هذا التدهور المفاجئ ، تدهور البلاد السياسي والاجتماعي والحضري وبصورة مريعة أيضاً .

ربما تضيء حياة أيمن مقدسي الفلسطيني ، الذي عاش في بغداد وحياة علاء خليل صديقنا الآخر ، والذي كان يقع على الدوام على الطرف النقيض من أيمن مقدسي ، الكثير من أوجه حياة هذا الجيل وثقافته ، وتنير شروط نشأته ، فكيف عاش أيمن مقدسي وكيف عاش علاء خليل في بغداد التسعينيات عقب حرب الخليج الثانية؟ وكيف أثرت مظاهر

الاستبداد السياسي، والانهيار الثقافي والاجتماعي والحضري لمجتمع بغداد برمته عليه، ومن ثم لماذا اختار هو كتابة هذه الرواية بالذات، والتي ربما كان موضوعها غريباً تماماً عن اهتمام الأجيال السابقة من المثقفين، وهو السؤال الذي كنت أواجهه به، وربما تجيب حياته وظروفها وشروطها، أو التوقف عند بعض نقاطها المهمة ومحطاتها على هذا السؤال، كما أنها ترسم لنا نشأة جيل كامل في بغداد وفي فترة مجهولة تقريبا بالنسبة للكثيرين:

ثلاثة أشخاص ينبغي التوقف عند حياتهم هنا، حياة أيمن مقدسي، علاء خليل، زينب نصري، والبانوراما من المثقفين الشباب التي كانت تحيط بهم.

***

في الواقع كنت تعرفت على أيمن مقدسي للمرة الأولى في بغداد، في الثمانينات، أيام كنت جندياً في جبهة الحرب مع إيران، وقد عرفني عليه صديقي علاء خليل، والذي كان جندياً معي وفي وحدتي العسكرية، وفي إحدى إجازاتنا الدورية صادف أن يكون أيمن مقدسي في بغداد، فقد كان يدرس الأدب المقارن في جامعة كولومبيا في أميركا، وقد عاد ليقضي إجازته هو أيضا في بغداد عند أهله... وهكذا التقينا...

ولكن من أين كان علاء خليل يعرف أيمن مقدسي؟

في الواقع لا أعرف بالضبط، ولكن من الواضح أن معرفتهما كانت قديمة جداً، حيث كانا يتحدثان أحيانا عن أشياء رآها كلاهما حينما كانا صغيرين، وأنا من طرفي لم يخطر في بالي أن أسألهما ذلك الوقت هذا السؤال، ولكن الملفت للنظر هو أن صداقتهما لا تقوم فقط على التلازم الدائم بينهما إنما على التناقض الحاد بينهما أيضاً، لقد كانا على طرفي نقيض دائم وفي كل أمر تقريباً، كان نقاشهما يذهب بهما على طرفين

متعاكسين تماماً ، لا في اختلاف تجربتيهما إنما حتى في سلوكهما ، وحياتهما وأفكارهما ، كل شيء يرتد إلى النقيض والمختلف تماماً ، ومع ذلك كانت صداقتهما قوية ، صداقة تجعل مشاعرهما وأفكارهما مشتعلة على الدوام ، تجعلهما خصبين ومتنافسين ومتغيرين على الدوام ، كل شيء يدفعهما إلى تطوير مهاراتهما بالضد من بعضهما ، كل نقاش هو اختبار لأفكار ومقدرة وموهبة . . . وهكذا .

كان أيمن مقدسي لاجئاً فلسطينياً في العراق ، وهذا موقع حسد نسبة إلى علاء خليل الذي يعد نفسه متورطاً بوطن ، كان يقول له أفضل ما فيك أنك بلا وطن ، إنك منفي ، لا تشعر بأية عاطفة إزاء وطن تعاني منه وتحقد عليه ، أن تحلم بوطن خير من أن يكون لك وطن تكرهه وتبغضه وتريد أن تتحرر منه ، وقد ذهب أيمن مقدسي للدراسة في أميركا وهذا كله نسبة لعلاء خليل من فضائل المنفى ، ولأنه مقيد بوطن فكان عليه أن يخدم ثماني سنوات في الحرب العراقية الإيرانية ، حيث يعتقد أن بالحرب تكتشف زيف معنى أن يكون لك وطن تموت من أجله ، فمثلما التاريخ هو اختراع نسبة لأيمن مقدسي ، كان الوطن هو اختراع نسبة لعلاء خليل ، وهو يريد أن يكذب هذا الاختراع :

- ما هو الوطن - يصرخ بوجوهنا - هو شيء ملفق من خارطة اعتباطية ، وخرقة تسمى علم ، وأغنية بغيضة تدعى نشيد وطني . . .

غير أن الأمر مختلف نسبة لأيمن مقدسي ، فهو يعيش في بغداد ، بل ولد في بغداد ، ونشأ وتربى فيها مثله مثل علاء خليل ، ولكنه لا يشعر بأنها وطنه ، هو يشعر بأنه منفي هنا ولاجئ ، هو موجود عليها ولكنه يحلم بمدينة أخرى لم يعش فيها ولم يرها من قبل ، مدينة بعيدة عنه وغريبة ولكنه يشعر بأنها مدينته الحقيقية ، يشعر بأنها الوجهة التي عليه أن يتجه نحوها ، صحيح هو يحب بغداد وقد عاش فيها وعرفها ، ولكنه لا يشعر

بأنه يملكها، أو يشعر بأنه ابنها، شعور غريب باليتم يجتاحه، شيء أشبه بملجأ للأيتام لا يشعر الساكن فيه بأنه بيته، إنما بيته هناك في مكان آخر، يحلم بالعودة إليه لكنه لا يستطيع مطلقاً، ولذلك فهو يريد أن يتحرر من هذه المدينة الملجأ ويتجه نحو مدينته الحقيقية، للمكان الذي طرد منه وهجر عنه، وهكذا كان يجد صراعه من طبيعة أخرى، ويرى أن مشاعره تتجه إلى وجهة أخرى، وفي ذروة النقاش يصرخ بوجه علاء خليل:

-حسن أنت تتعذب من أجل وطن، أنا كذلك أحلم أن يكون لي وطن أتعذب داخله لا خارجه، هل تحتقر هذه المشاعر، أنت تحتقرها لأنك لم تجربها، لم تجرب أن تحيا في مكان لا تحبه ولا تحقد عليه ولا يقدم لك شيئاً ولا تقدم له أي شيء، أنت تعيش فيه لكنك مقطوع عنه، تحيا هنا وتحلم في مكان آخر... في كل لحظة يهيمن علي رهاب أن يأتيني شخص ويقول لي خذ حقيبتك وارحل هذا ليس وطنك هذا وطني... هذا كابوس يدمرني، أريد أن أحيا في مكان لا يطردني منه أحد...

- تفاهات... يصرخ بوجهه علاء خليل... أوهام... نحن مخدوعون بأوطان هي ليست أوطاناً مطلقاً، هذه جيف عتيقة ... سوروها وجعلوها جحيماً علينا...

حياة أيمن مقدسي وحياة علاء خليل تقعان على طرفي نقيض أيضاً:

عاشت أسرة أيمن مقدسي في بغداد عقب احتلال القدس في الثمانية وأربعين، هاجرت أولاً إلى دمشق، عمل جده في تجارة الحبوب، وفي الخمسينيات اصطحب عائلته واتجه إلى بغداد، وقطن في مدينة الأعظمية، حيث شيد لنفسه بيتاً قرب المقبرة الملكية.

أما أمه بهية فأمرها مختلف، جاءت إلى العراق حينما كانت في السابعة من عمرها، مع عائلتها التي جاءت مع اللاجئين الفلسطينيين إلى العراق وأكثرهم من إجزم، وعين غزال، وجبع، من قضاء حيفا والقرى

المحيطة بها : الصرفند ، والمزار ، والطنطورة ، وعتليت ، وأم الزينات ، وأم الفحم ، فحين استعصت قرى مثلث الكرمل على العصابات الصهيونية لمدة ثلاثة أشهر بعد سقوط مدينة حيفا ، كانت جنين ، وطولكرم ، ونابلس مسرحاً لعمليات الجيش العراقي في الثمانية وأربعين ، وكان والدها محمد من الطنطورة يتدرب عند وحدة المشاة الخامسة العراقية على اللاسلكي ، ولكن عند سقوط المنطقة نزحت العائلة باتجاه المعسكر هي والأولاد وبنات العم والخالات والعمات ، وحين استولت الوحدات العراقية على جنين زار عبد الإله والملكة عالية المدينة :

سار موكب الملكة مع مجموعة من الضباط ، كانت الطفلة ترقب الوجه الأبيض ، والأنف الطويل للملكة ، توقفت الأخيرة وفي عينيها نظرة إشفاق على العائلات المهجرة ، نظرت إلى الطفلة فوجدتها تنظر في عينيها مباشرة ، ثم سألتها عن اسمها :

- بهية . . . قالت الطفلة وهي تطرق إلى الأرض .

تقدم الضابط نحو الملكة وتكلم لها عن شجاعة والدها ، وشجاعة المقاتلين الذين ساعدوا الجيش في رد العصابات الصهيونية . . . التفتت إلى عبد الإله الذي كان يقف إلى جوارها ، وقالت له :

- سنأخذ كل هؤلاء الناس معنا ضيوفاً إلى أن يقرر الله ساعة عودتهم .

الوالد بقي مع الجيش في فوج الكرمل الذي شكله الجيش من أهل المنطقة ليحارب به ، والعائلة انتقلت مع بعض وحدات الجيش العائدة إلى بغداد ، وقد سكنوا في معسكر الوشاش ، في جملوناته وأقبيته ومنازله الطينية التي كانت معدة للجنود ، فقد قطن اللاجئون أول الأمر في المقرات الحكومية ، وفي العمارات الرسمية ، وفي معسكرات الجيش ، وفي دار المعلمين وكليات الجامعة ، ومع انتهاء العطلة الصيفيه تم توزيعهم على

مناطق مختلفة من العراق بين البصرة وبغداد والموصل في معسكرات وأندية تتبع للحكومة ، وكان لهم مخصصات من الطعام والغذاء بشكل يومي كباقي قطع الجيش العراقي ، إذ كانوا يعتبرون جزءاً من قطع الجيش ، وبعد انتهاء الحرب التحق أفراد جيش الكرمل مع عائلاتهم في بغداد ، وبعد عامين انتقل والدها محمد الذي كان يملك مزرعة زيتون في الطنطورة إلى ملجأ قديم ، يفتقر إلى التهوية قرب بغداد الجديدة . كانت الحكومة تمنحهم ١٠٠ فلس للكبير و٥٠ للصغير يومياً ، إلا أن هذه المخصصات بدل أن تزيد مع الزمن كانت تنقص بسبب ثبات الميزانية وازدياد عدد الفلسطينيين .

لقد عاشوا هناك ، فقراء ، لاجئين ، نازحين ، عاشوا في قبور يسكنها أحياء ، فليس للشمس مكان فيها أو منفذ إليها ، كما أن الهواء النقي مطرود منها . بناؤها قديم ، ومتآكل يتهدد أرواح ساكنيها ، فيعيشون في قلق دائم وخوف مقيم . كل عائلة في غرفة : هي محل للطبخ ولغسيل الملابس والصحون والاستحمام والنوم والأكل ، وليس هناك حاجز أو فاصل بين عائلة وأخرى ، لذلك كانت الأمراض تنتشر فيما بينهم .

وبعد ذلك بدءوا يتنقلون بصرار ملابسهم وشوالاتهم ، واستوطنوا في منطقة البلديات أو في الطوبجي أو بالقرب من بغداد الجديدة ، وقد أبقوا صرارهم على حالها سنوات لظنهم أنهم عائدون لا محالة ، إلى أن طال المقام بهم ويئسوا من وعود كانوا يسمعونها أو يتناقلونها بينهم :

- سمعت الخبر . .نوري السعيد قال إن تحرير فلسطين سيتم خلال سنة على الأكثر . .

- سنة ونعود . . .

- نعم .

في الغالب كانوا من الفلاحين الذين قدموا إلى مدينة ولا يعرفون

ماذا سيعملون فيها .

بغداد كانت مدينة كبيرة ، ولم تكن مزرعة صغيرة تصلح أن تكون سكناً لفلاحين ، بغداد كبيرة أواخر الأربعينيات ، والنظام الحضري والمديني يدخل من جهة النهر ويقتحم أواسط المدينة وينعشها ، كل ما تعلموه في مكانهم القديم لا ينفعهم في مكانهم الجديد ، وحتى من أراد تجريب عمل الفلاحة في الجنوب قد فشل فشلاً ذريعاً ، وعاد خائباً ، ذلك لأن الأرض غير الأرض والمياه غير المياه ، والطقس غير الطقس تماماً ، أما النباتات فمختلفة ، ومع ذلك وبعد سنوات ، وبعد جيلين دخلوا في الحياة الاقتصادية ، فكانوا الموظفين ، والعمال ، والمثقفين ، شعب ذكي ونشيط ، فقير ومتحمس ، مقطوع ويائس ، شيئاً فشيئاً نقلت هذه الجالية الصغيرة والفقيرة أكلاتها الفلسطينية إلى الشارع البغدادي : الفلافل ، المجدرة ، الحمص ، الكنافة النابلسية . . . أكلات موجودة ومقبولة ومرغوبة ولكنها على هامش الأكلات العراقية ، لقد دخلوا المجتمع العراقي ولكن على هامش الحياة الاجتماعية ، ستظل ذكرى البيت القديم عالقة حتى وإن استوطنوا في بيوت جديدة ، الذكرى القديمة تتصاعد وتتنامى ، المشاعر حتى وإن كانت ذاتها ولكنها مختلفة بطبيعة الأمر ، الهموم السياسية وإن كانت في الظاهر واحدة ولكنها في العمق مختلفة بالتأكيد ، نظام التفكير مختلف في جوهره ، هم في المجتمع منه وفيه ولكنهم في الحقيقة خارجه ، هم داخل المجتمع بالتأكيد ومنه ولكنهم بعيدون عنه ومنفيون فيه ، هم فيه ولكنهم على الطرف منه ، بغداد كبيرة ومعقدة والداخل إليها لن يعيش إلا على هامشها ، مشاعر الغربة والنفي والاغتراب لا يمكن محوها ، وهذا ما لمسناه لدى أيمن مقدسي .

ما شعرته واضحاً في شخصيته ذلك الوقت - وهو ما عرفته وأدركته لاحقاً لا حقاً وبعد أن أصبحت لي تجربة نفي مماثلة - هي هذه الحساسية

المفرطة من الآخر ، العناية في اختيار الكلمات ، التحسس من أية كلمة تقال ، الاضطراب عند أول داخل وعند سماع أول جملة ، تأويل الكلام طبقاً إلى فكرة أنك فائض هنا ومضاف ويمكن إزاحتك في كل لحظة ، كل كلمة لها وقع خاص ولها حساسية فعلية ، ما تسمعه تؤوله مباشرة ولا تدعه في مكانه ، كل مرة تحسب مكانك طبقاً إلى فكرة أنك فائض أو يمكنك أن تبقى ، حتى وإن لم يعن أحد ما يقول . كما أنك تشعر مباشرة بأن الآخر ذاته يقتصد بكلماته معك ويتحرج منك لأنك منفي ، فهو يقول شيئاً ويقصد شيئاً آخر ، وكلما شعرت بأنه يتكمّم معك ولا يفصح عن فكرته لئلا يجرحك مثلاً ، تشعر بأنه في داخله يقصد شيئاً آخر ، يقصدك أنت في كلماته ، فيجرحك ، فأنت لا تكتفي بظاهر الكلام إنما تريد أن تصل أو تؤول حتى ما لم يقل مطلقاً . طبعا هذا هو عذاب النفي وقسوته .

هكذا كان أيمن مقدسي . . . ربما ، في ذلك الوقت لم أكن أشعر بظروفه وحياته ، ولكني الآن وأنا أستعيد حياته وذكرياتي معه منذ أول مرة رأيته فيها ، وبعد أن أصبحت لي تجربة نفي مماثلة ، بدأت أدرك هذه الحساسية المفرطة في شخصيته ، وأعرف مقدار عذابه وهو يقتصد بالكلمات ، أو وهو يحاول أن ينتقيها ، بدأت أشعر بحركة عينيه وتعبيرات وجهه التي تتغير عند أي حديث يخص الساكن الأصلي والوافد حتى وإن لم نكن نقصده مطلقاً ، وبالتأكيد لم نكن نقصده ، فأنا أمامه أنسى تماما من أين هو ومن أين جاء ، اللهجة التي نتكلّمها واحدة والمشاعر واحدة ولكنه في داخله لن ينسى أنه مختلف وهو فائض وهو غريب ، وأنه له رؤية مختلفة للأحداث ، وله تأريخ مختلف ، وله مشاعر مختلفة ، وربما كان يعاني كثيراً من هذا الأمر ، ولاسيما بعد أن اشتد نزاعه مع علاء خليل .

***

حين كنا نزوره في منزله في الأعظمية ونجلس على الكنبات نلمس اختلافه عنا بسهولة ويسر ، إن تحدثنا فنحن نتحدث عن مرجعيات مختلفة ، أما تفكيره السياسي فأمر طبيعي أن يتخذ الوجهة القومية ، وفي المركز فلسطين ، وهنا نقطة الخلاف مع علاء خليل ، فالسلطة الرسمية في بغداد والتي كانت مصدر إعجاب أيمن مقدسي هي التي يكرهها علاء خليل ويعدها المسؤول عن مأساته . . . وحين ذهب إلى أميركا للدراسة في جامعة كولومبيا أثار هذا الأمر حسد علاء خليل حقيقة وإن لم يفصح عن ذلك بشكل صريح ، ولكن جوهرياً كان يحقد عليه بسبب أخذه لزمالة دراسية على حساب الحكومة العراقية والتي كان يعتبرها علاء خليل هذه من حقه لا من حق أيمن مقدسي ، وهنا تبرز بطبيعة الأمر مشاعر المنفي بالتقابل مع مشاعر الساكن الأصلي وتظهر الحساسية الشديدة بينهما ، ويزداد هذا الشعور تطرفاً حينما كان يعود أيمن مقدسي من إجازاته من أميركا ، بملابسه الأوربية الجميلة ، ووجهه المترع بالصحة ، بينما كان يعود علاء خليل من الجبهة في إجازاته الدورية مرهقاً ومهدماً إلى حد بعيد ، فهذا اللقاء ، وإن كان يحرص عليه علاء خليل حرصاً شديداً ، ولكنه كان نوعاً من العذاب نسبة له من وجهة نظري .

يمسكه من معطفه الأسود الثمين ويقول له :

- جيد أنت ترتدي الملابس الإمبريالية وهي لائقة عليك . . .

وهكذا كان علاء خليل يحاول وفي كل مرة تذكير أيمن مقدسي بفضل الإمبريالية التي يشتمها ، ومن ورائه يريد أن يجرحه أو ربما أن يخدش مشاعره بسبب حسده الواضح لا بسبب دفاعه عن الإمبريالية فقط .

وبعد أن نجلس على الكنبات ونشرب القهوة ، يبدأ أيمن مقدسي بالحديث عن الجامعة ، وعن الدروس التي يأخذها هناك ، وعن حياة

الطلاب ، وعن أستاذه إدوارد سعيد . . . وهنا يجب أن أذكر بأننا لم نسمع بإدوارد سعيد من قبل إلا من خلال أيمن مقدسي ، ولم نكن نعرف عنه أي شيء إلا من خلاله ، وحتى كتابه الاستشراق لم يثر فينا أي اهتمام ، وكان الكتاب موجوداً في المكتبات مثله مثل الكتب الأخرى ، وهذا الموضوع لم يدخل مركز اهتمامنا في تلك الفترة لا أنا ولا علاء خليل ، وكان أيمن مقدسي ينصحنا على الدوام بقراءته ، غير أن هذا الأمر كان يثير شكوكنا ، وأحياناً سخريتنا أكثر مما يثير فضولنا . أما الفصل الأكثر حدة وأكثر استفزازاً في كل لقاء ، هو حينما يتحدث أيمن مقدسي عن المجتمع الأمريكي ، وعن الحياة الأميركية ، وعن السياسة الأميركية ، ويبدي قرفه واشمئزازه وانتقاداته اللاذعة ، والتي كانت في ذلك الوقت نسبة لي متكلفة ولا عقلانية ، ولكن كانت نسبة لعلاء خليل استفزازاً حقيقياً ، فقد كان يثور ، وفي بعض الأحيان يصل إلى الحافة ، حتى يكاد يفقد أعصابه . كان علاء خليل يدافع عن الحياة الأميركية والسياسة الأميركية بصورة مستمرة ، ولا أدري إن كان يخفي كلاهما خلافات مكبوتة تتعلق بموقع كل واحد منهما في المكان المتنازع عليه ، لكنها تظهر بطبيعة الأمر بطريقة ثانية ، تظهر عبر نقاش محتدم عن نقائض الإمبريالية أو الدفاع عنها .

أن يحقد أيمن مقدسي على أميركا وعلى السياسة الأميركية والحياة الأميركية أيضاً هذا أمر مفهوم ومفسر في إطار محدد ، لأنه يعيش هناك ، وله حرية الكتابة والاختيار ، وله القدرة على النقد ، أما نقد أميركا في إطار سياستها إزاء فلسطين هذا مفهوم جداً ، ولكن لماذا يدافع علاء خليل عن الحياة الأميركية هذا الدفاع الشرس ، بل كان يعد الماكدونالدية هي المستقبل الحقيقي للعالم ، وفي قمة جذله ، كان ينهض وهو يرينا قوامه الفارع وكأنه يرقص ويخطب بنا :

- إنه الماكدونالد . . . الوصفة السريعة لهذه الحضارة الرائعة والتي ستهيمن على العالم كله . . .

كانت أميركا هي الكلمة السحرية ، هي المفتاح ، والتي ما إن يسمعها حتى تتراخى أعصابه ويرتاح ، يشعر أنه في اليوتوبيا التي حلم بها طوال حياته .

فالوطن هو اللاوطن ، والحرب هي الافتراض ، والاستهلاك هو الذي يجعلك تحيا وتتقدم ، . . . مجموعة من الأفكار الجاهزة التي كانت تلجم أيمن مقدسي وتجعله يسقط في الفراغ . . . .

لقد كان علاء خليل متغرباً بالكامل ، وهو نوع من رد فعل هذا الجيل ربما على الثقافة الوطنية والقومية التي كانت تلقن بصورة عنيفة ومبتذلة أيضا ، كان يعتبر كل هذه الأحداث سيرة طبيعية ومتواصلة من تاريخ المنطقة : الحروب العبثية ، الشناعات السياسية ، القتل المجاني ، التصفية الجسدية ، التخلف ، الجهل ، التعصب الديني . . . الخ . . . هذا كله في الفترة التي كنت تعرفت فيها عليه أواسط الثمانينيات ، أي حينما كنا - هو وأنا - جنديين في جبهة الحرب العراقية الإيرانية ، كان هو جندياً في فرقة المشاة الثانية ، وكنت أنا أيضا جندياً في فرقة المشاة الثالثة .

ولكي نصل إلى الطرف الثاني من الصورة ، سأوجز معرفتي بعلاء خليل وطريقة تعرفي عليه في تلك المرحلة المهمة من تاريخ العراق :

بعد انتهاء إحدى الهجومات الإيرانية على مدينة البصرة ، عدت بإجازة من الجبهة ، وللوصول إلى بغداد كان علي أن أتخذ الباص من ساحة أم البروم في البصرة ، وهو الميدان الحيوي للمدينة التاريخية ، ومركزها المزدحم ، غير أني أخرت نفسي عن موعده ، وبعد وصولي إلى المدينة التي كنت أحبها جداً ، قررت تمضية النهار كله في التنزه في شوارعها ورؤية كورنيشها المطل على البحر ، ثم التجول في أسواقها وزيارة

مكتباتها الكثيرة .

جلست ذلك اليوم في المقهى الكائن في العشار على البحر ، وذهبت إلى سوق الهنود ، وتجولت في الكثير من دروبها وأزقتها الضيقة ، واشتريت الكتب العتيقة والرخيصة من باعة الكتب فيها وأكثرهم أصبح فيما بعد من أصدقائي ، وأكلت السمك في مطعم شهير في ساحة الوطن ، وما أكثر المطاعم الجميلة والمنتشرة في المدينة ، وفي المساء ذهبت إلى محطة القطار وهو قطار البصرة - بغداد ، حيث أمضيت الوقت كله في التفرج على عالم المحطة العجائبي ، وهو عالم مصغر من بلاد شاسعة ، نساء ورجال من جميع الأعمار ، عمال ، موظفون ، أكراد عرب سريان يصعدون ويهبطون من المحطات من الجنوب وحتى الوصول إلى بغداد ، فالرحلة تستغرق عشر ساعات تقريباً ، وهنالك أكثر من عشرين محطة سيتوقف القطار فيها ، وسيصعد من هناك ويهبط آلاف من الناس ، وستكون متعتي الحقيقية بالقراءة في الكتب التي أحملها معي ، والتفرج على الناس المتنوعين والمختلفين من كل محطة حتى أصل في الفجر إلى بغداد .

وأنا إلى الآن أتذكر تلك المصادفة التي جمعتني مع علاء خليل حين ركبنا معاً في القطار ذاته ، وكانت المصادفة أيضاً أن يكون هو مثلي قد تهرب من العربات المجانية المخصصة للجنود ، فقد كنت لا أطيق الصعود في هذه العربات الكئيبة ، وبدلاً منها كنت أدفع الأجرة لأصعد مع المدنيين : من النساء والرجال ، وطلاب وطالبات الجامعات ، من الموظفين والموظفات ، من الفلاحين ، والعمال ، والعاهرات ، والباعة المتجولين ، من الناس جميعاً أثرياء وفقراء . . . كان هذا الفضاء المبهج يبعدني جداً عن فضاء الجنود الكئيب والمقرف ، كان يبعدني عن عرباتهم التي يهيمن عليها اللون الكاكي ، وحيث لا يمكنك أن تقرأ أو تتحدث وأنت تسمع أنين الجرحى ، أو شكوى الجنود وتذمرهم ، وحديثهم الممل عن تأخر

إجازتهم ، وحديثهم الدائم عن الهجوم المقبل .

كان الفصل صيفاً ذلك الوقت ، فصعدت في العربة السياحية التي تقع في مقدمة القطار ، وصعد هو أيضاً دون أن يثير انتباهي مطلقاً ، وطبقاً إلى أرقام التكتات التي كنا نحملها جلسنا متقابلين ، وبعد دقائق أخرج كل واحد منا كتاباً وأخذ يقرأ به ، أنا أخذت أقرأ رواية باللغة العربية بينما أخذ هو يقرأ كتاباً باللغة الإنكليزية ، لم أستطع تمييز عنوان الكتاب الذي وضعه على ركبته واستغرق به تماماً مسافة طويلة ، حيث أشعل المصباح الصغير أعلى المقعد ، وذاب تماماً في السطور ، دون أن ينتبه لأي شيء يحيط به ، ولا حتى الضجة التي يحدثها أحيانا الراكبون أو الهابطون في المحطات التي كان القطار يتوقف بها على طول الطريق المحاذي لنهر دجلة من الجنوب صعوداً إلى بغداد .

***

في الواقع ، وأنا أقرأ لم أسقطه من تفكيري تماماً ، فقد أثار انتباهي شكله المتميز وسلوكه الهادئ الرصين من جهة ، ومن جهة أخرى أثار انتباهي شكله المتؤرب جداً ، لا أقصد الشكل الذي تتخذه الانتلجنسيا غالباً في الملبس أو في تسريحة الشعر ، أو في التصرف ، إنما هنالك أشياء ممنوحة أيضاً ، فمثلاً : كان وسيماً جدا ً، أبيض الوجه ، طويل القامة ، وكان شعره الأسود ينسدل على جبينه على شكل خصلات لامعة ، كما كان حليق الشارب ، يرتدي نظارة بإطار بلاستيكي أسود أنيقة ، يضع ساقاً على ساق ويعلك بصورة هادئة ومستمرة وهو مستغرق في القراءة .

كنت استثمرت فرصة صعود المفتش أو تاتي القطار الذي يفحص التكتات للتحدث معه .

هل أنت في الفرقة الثالثة أم في الفرقة الثانية ، هل عرفت الوحدات المشتركة في الهجوم قبل أيام ، إجازتك طويلة أم قصيرة ، ومن ثم ما هذا

الكتاب الذي تقرأ به . .وهكذا .

بطبيعة الأمر كان هنالك تعاطف معروف بين الجنود من خريجي الجامعات في جبهات القتال أثناء الحرب وتوافق بين بعضهم البعض ، ويمكنك تمييز بعضهم بسهولة أيضا ، من خلال الملابس التي يرتدونها ، والسلوك واللكنة والشكل أيضاً ، ومما زاد من تضامنهم مع بعضهم ذلك لأنهم يشكلون نوعاً من النخبة المكروهة من قبل الجنود العاديين بسبب تميزهم ، وهم مكروهون أيضاً من قبل الضباط لشعورهم بأنهم يتعالون عليهم .

حين بدأت بالحديث معه كنت أدرك بأنه سرعان ما يستجيب لحديثي معه ، وهكذا تبادلنا الحديث مباشرة حول مواضيع شتى ، وبصورة سريعة أيضاً ، وبعد دقائق انعطفنا مباشرة نحو حديث الكتب والثقافة والأفكار ، لقد اتجه حديثنا مباشرة ولا أدري لماذا نحو الأدبين الإنكليزي والأميركي بشكل خاص ، وما زاد دهشتي ذلك اليوم هو جهله التام بالأدب العربي ، فقد كان شخصاً على معرفة هائلة بالثقافة الغربية ولا يعير اهتماماً لأي ثقافة أخرى سواها .

- ألا تعير اهتماماً لثقافتك؟

- بلى هذه ثقافتي!

ثم انغمرنا بحديث لذيذ وممتع عن الأدب والفلسفة .

***

ثم تعرفت عليه بصورة أكثر تفصيلية :

لقد شعرت بأنه متؤرب في ذلك الوقت بمعنى الكلمة ، ويجيد أكثر من لغة أوربية ، وإن لم يزر أوربا ، أو عواصمها ، أو متروبولاتها الثقافية ، فقد كان مسحوراً بها عبر الكتب وعبر حياة الكتاب ، وكان جل طموحه هو الكتابة باللغة الإنكليزية أو بأي لغة أوربية أخرى والاندماج كلياً بالمجتمع الغربي ، وقد منعه من تحقيق هذا الأمر هو منع السفر أثناء الحرب

العراقية الإيرانية ، وتحوله إلى جندي في جبهات القتال .

كنت أراه بين فترة وأخرى أثناء الإجازات ، في محطة القطار أحياناً ، في مكتبات بغداد أو البصرة بعض الأحيان ، كنت أراه من فترة إلى أخرى في سوق السراي حيث الكتب المستعملة مرمية على الرصيف ، صادفته في أماكن أخرى في البصرة أيضاً ، وأكثرها أماكن ثقافية ، وصعدنا القطار معاً أكثر من مرة ، وتحدثنا طويلاً عن الأدب والفلسفة ، صادفته أكثر من مرة في الحفلات الموسيقية التي كانت تقيمها الفرقة السمفونية الوطنية في قاعة الرباط ، وفي هذه الحفلات عرفني هو على أيمن مقدسي .

كان أيمن مقدسي يدرس الأدب المقارن في جامعة كولومبيا في أميركا ذلك الوقت ، وأثناء زياراته لأهله كان يلتقي بعلاء خليل ، وفي إحدى المرات توافقت إجازته الدراسية مع إجازة أيمن وحضرا إلى حفلة للفرقة الموسيقية في قاعة الرباط ، كان الوقت مساء ، وكنت واقفاً في البهو المستدير مع صديقة لي ، فتقدم مني علاء خليل وكان معه شاب أسمر طويل القامة ، وأنيق جداً ، فعرفني عليه :

- صديقي أيمن مقدسي يدرس الأدب في أميركا . . . وكان تشديده على الكلمة الأخيرة لها مغزى أعرفه في شخصية علاء خليل .

مرة أخرى حضرنا معاً حفلة فريق الجاز الفرنسي الذي استضافه المركز الثقافي الفرنسي في شارع أبي نؤاس على نهر دجلة ، وبعد ذلك تقابلنا أكثر من مرة ، وفي الغالب كان معه أيمن مقدسي ، وبعض المرات أخذت ألتقي مع أيمن مقدسي وحده ، فسرعان ما أصبحنا أصدقاء جداً ، وحين كنت ألتقي به كنا نتحدث كثيراً عن الأدب والكتابة في أميركا ، ومرة التقيت به في مكتبة المعهد البريطاني في الوزيرية ، التقينا وتحدثنا طويلاً هناك ، دخنا السجائر في الفسحة الأمامية أمام قاعة عرض الأفلام ،

ونحن نشرب البيبسي كولا أو الشاي أو القهوة .

كنت غالباً ما أراه ولاسيما أثناء الإجازات الدورية ، يقف في الفسحة الأمامية للمعهد الثقافي البريطاني ، بيده على الدوام رواية ، أو ديوان شعر ، أو كتاب نقدي باللغة الإنكليزية ، عطره الفواح ، ملابسه الأنيقة ، شعره المصفف جيداً ، ويتحدث مع شخص ما بلكنته المحببة الغريبة التي يمزج فيها اللغتين العربية والإنكليزية بطريقة مؤثرة .

***

بعد عامين من هذه اللقاءات المتفرقة مع علاء خليل وأيمن مقدسي ، حدث الآتي :

بعد إحدى الهجومات على البصرة ، كانت وحدة علاء خليل العسكرية قد انهارت ، وقتل أكثر أفرادها ، وجرح هو جرحاً طفيفاً ، ولكنه من القلة الذين بقوا على قيد الحياة وقد تم توزيعهم على الوحدات الأخرى ، ويا للحظ أصبح هو من نصيب وحدتي ، وهكذا اجتمعنا مرة أخرى ، وجعلنا إجازتنا الدورية في وقت واحد . . . وفي تلك الفترة كنا نلتقي كثيراً بأيمن مقدسي الذي كثرت زياراته إلى بغداد ، وسمعنا منه أحاديث طويلة عن إدوارد سعيد ، ولكن لم يكن أحد منا مهتماً بالأمر ، لا أنا الذي كنت منشغلاً بكتاب آخرين ، ولا بعلاء الذي كان بعيداً تماماً عن اهتمامات أيمن مقدسي وحياة الشرق الأوسط ، وإن كنا شكلنا مجموعتين ، مجموعة-في الجبهة- مع ثلاثة جنود آخرين مولعين في القراءة ، حيث كنا نقرأ دائماً وفي أحلك اللحظات : في المواضع الترابية ، في خنادق القتال ، في النهار أثناء الراحة ، في الليل على ضوء الفانوس ، نتبادل الكتب ، نتبادل الأفكار ، نتناقش النقاشات المتحمسة بشكل مستمر ودون توقف . . . ومجموعة أخرى مع أيمن مقدسي الذي كنا نلتقي به في الإجازات الدورية ، وكنا نتناقش كثيراً ، وربما كنا نختلف كثيراً أيضاً .

كان مصدر إعجاب علاء خليل بأيمن مقدسي ثلاثة أشياء ، أنه لاجئ بلا وطن ، وبالتالي له الحق في أن يسافر ، وأن يهيم على وجهه ، وأن يدرس ، والثانية أنه يعيش في أميركا التي كان علاء خليل يحلم بالوصول إليها وأن يصبح من طبقتها المثقفة - وهذا ما كان يثير سخرية أيمن مقدسي بطبيعة الأمر - والشيء الثالث هو حصوله على شهادة عليا في الأدب من جامعة غربية .

***

تقاربنا كثيراً أنا وأيمن مقدسي بطبيعة الأمر ، وفي الأيام التي كان يتغيب فيها علاء كنا نلتقي ونتحدث ونذهب معاً إلى الأماكن الثقافية والمقاهي الأدبية ، حسن عجمي في شارع الرشيد ، الشاهبندر في سوق السراي ، الجماهير في الكرنتينة ، حيث لا يجد علاء في هذه الأماكن متعة ولا يصلها مطلقاً ، إلا عندما يتصل الأمر بحضور كاتب أجنبي إلى بغداد ، حضور ألان روب غرييه الذي كان يزور بغداد دائماً وبصورة متكررة في الثمانينيات مثلاً ، فقد كان علاء خليل يلاحقه من مكان إلى مكان ، أو عندما زار ألبرتو مورافيا بغداد فقد جعل من نفسه له مرشداً في المدينة ، وذهب معه إلى أماكن مختلفة ، وكذلك عندما يزور كتاب عالميون آخرون بغداد ، فما إن يسمع بكاتب أوربي أو أميركي يصل هناك حتى تجده في اليوم الآخر أمام فندقه ، ويتصل بنا :

-سمعتوا . . . ألان روب غرييه في بغداد وزرته في الأمس .

يبقى فترة طويلة يتحدث عن الأمر ، وفي كل نقاش ، كان يقول إن ألان روب غرييه حدثه وقال له كذا ، وهذا ما كان يثير سخرية أيمن مقدسي ، الذي يتعرض هو أيضا للسخرية حينما يقول قال لي إدوارد سعيد كذا . . .

***

كانت ظروف الحرب القاسية والعنيفة قربتنا أكثر ، فأكثر ، كانت قراءتنا نوعاً من الهروب من الواقع المأساوي الذي كنا نعيشه ، ونوعاً من الانقذاف نحو عالم لا يمت بصلة لهذا الواقع الذي كنا نعاني منه ، وكان هو أكثرنا معاناة ومقاساة وأكثرنا تعبيراً عن نفسه ، وكنا من جهة أخرى نشعر بانفصال عن الجنود الآخرين الذين يشعرون بلا شك بأسى الحرب ، ولكنهم كانوا مستسلمين أكثر لقدرهم ، وكانوا يعتبرون الأمر شكلاً من أشكال الغضب الإلهي ، أو قدراً ، ولكن بالنسبة لنا كان الأمر مختلفاً تماماً .

هكذا انجمعنا أنا وعلاء وأيمن في نقاش دائم عن الكتاب العالميين ، ولا أذكر أن علاء خليل تطرق يوماً للثقافة العربية أو الأدب العربي ، بالعكس مني تماماً ، فكان يعد هذا الأدب أدباً منحطاً ، والثقافة العربية ثقافة بالية ، واللغة العربية لغة تحريم وتوقيف ولا يمكن كتابة أدب بها مطلقاً ، فقد كان يحمل أكثر الأفكار الاستشراقية شيوعاً عن الثقافة العربية : جمود العقل العربي ، إيمان العربي بالغيبيات ، التواكلية ، عدم وجود الحرية الفردية ، أو الإحساس بالحرية الشخصية ، كان يرى المحيطين به مثل القطعان ، حيث لا مشاعر لديهم إلا في الأطر الجماعية التي تجمعهم ، ليس لديهم الإحساس بالذات ولا بالجمال ، وهكذا كان يعدهم في قبول الأوامر العسكرية ، وانخراطهم في الحروب والسياسة والحياة ، قطعاناً لا أكثر .

-انظر . . . لهم . . . إنهم هم المسؤولون عن مأساة الحرب ، فلو لم يجد الطغاة هذه الروح القطيعية عند المجتمع لما كانوا طغاة أصلاً .

كما كان يتمتع أيضا بروح متغطرسة ومتعالية على المجتمع الجاهل والمتخلف المحيط به ، ولم يكنّ أدنى احترام أو تقدير للآخرين ، صحيح لم يكن فظاً في التعامل أو قاسياً ، ولكنه كان يحمل في داخله قدراً كبيراً

من الاحتقار للمجتمع العسكري كله وبكل فئاته ، وهو القدر نفسه من الاحتقار الذي كان يكنه للمجتمع برمته .

- هل تكره المجتمع؟ قلت له مرة .

-لا . . . أنا لا أكرهه ، أنا أحتقره . . . قال بتأكيد وحزم ثابتين .

أما الثقافة العربية فقد كان يجهلها جهلاً مطلقاً ، ولا يعرفها معرفة جيدة ، بل كان يتقزز منها ، ومن الحديث عنها ، وكان يسخر مني حين أحدثه عن أحد كتابها ، وحتى حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل قد أصابه بصدمة كبيرة ، واعتبر الأمر سياسياً برمته ، أما الأدب العربي فلا يستحق برأيه أية جائزة ، وحين كنت أجادله يتهرب تماماً ، وكل ما حدث في تلك الفترة من التاريخ لم يدفعه ولا خطوة واحدة للقراءة باللغة العربية ، أو قراءة آدابها وإطلاق أحكام عليها ، كان يعتبر الأمر برمته مضيعة للوقت .

« يا إلهي . .أنا أقرأ رواية عربية . . . .» .

كان يعد الأمر ميئوساً منه ، فالثقافة الغربية واللغات الأوربية وعالم الرفاه الاجتماعي والاقتصادي والحريات الشخصية والديمقراطية هي الكفيلة بخلق أدب عظيم وهو ينتمي لهذا الأدب ولا ينتمي لغيره ، حين كان يقرأ رواية إنكليزية كان يضبط ساعته على كرنتش . . .

***

مع ذلك علي أن أعترف بأن الانطباع الذي خلفه علي كان ساحراً ذلك الوقت .

كان علاء خليل يتمتع بطريقة مذهلة في الكلام ، ويستخدم معجماً خليطاً من اللغتين الإنكليزية والعربية ، والأفكار التي يطرحها في غاية الطزاجة والألمعية ، لقد كان مثقفاً بالفعل ، غير أنه يوظف ثقافته للسخرية من الثقافة العربية ، ومن الأدب العربي ، ولإظهار احتقاره للمجتمع العربي

برمته ، ولم يكن يخفي تقززه أو كراهيته المتعالية على الجمهور بشكل عام ، كل شيء كان يثير تقززه ونفوره ، كل شيء تقريباً ، بل كان يحمل عن المنطقة أكثر الأفكار غطرسة وتعالياً ، وكان يرددها دون هوادة ومن دون تردد ، أما الأفكار اليسارية والقومية ، والتي كانت شائعة عند الجيل السابق لجيله ، فلم تثر لديه أية مشاعر ، وأكبر الأحداث في الشرق الأوسط ما كانت تهز من بدنه شعرة ، ولا كانت تعنيه ، وحتى الحرب كان يتعامل مع أخبارها بإهمال متعمد .

لقد كان جامداً حيال ما يحيطه ، بل كان كارهاً ومتقززاً على الدوام من كل أحداث العالم المحيط به ، وهكذا فهو يعيش في منطقة لا يعترف مطلقاً بمستقبلها ، ولم يكن معنياً بتاريخها ولا بآدابها ، يعيش فيها وهو مغترب عنها ، يقطن فيها وهو منفي عنها ، كان منفصلاً لا هذا الانفصال الذي يحتمه الجهل ونقص المعرفة ، إنما انفصال العارف عن منطقة يعتقد أنها مصابة بقلة المعرفة .

وهكذا كنت أعد كلاً من أيمن مقدسي وعلاء خليل منفيًا . . . ذلك أن منفى علاء خليل داخل الوطن لا خارجه ، وكان هذا عذاباً حقيقياً وطاحناً ، ذلك أنه يعاني من عالم لا ينتمي إليه وفي الوقت ذاته لا يمكنه الانفصال عنه ، يعيش في عالم الحروب الدينية والطائفية والاستبداد السياسي والتحجر الأخلاقي والتخلف الاجتماعي حقيقة ، ولكنه يحلم بعالم بعيد تماماً وربما هو غير موجود أصلاً ، هكذا كان يقول . . . يقول إنه يعاني من محيطه لأنه أكبر من محيطه ، كان يعاني من بيئته لأنه لا يجد رابطة بينه وبينها ، وهو لا يجد نفسه في العالم الذي يعيش فيه ، لا الناس ولا الرجال ولا النساء ولا الأفكار ، أبداً . لم يكن يشعر بأنه جزء من هذا البلد الذي أنتجه ، لم يشعر بأنه من أهله ولا من عائلته ، لا من وطنه ولا من منزله .

وهكذا ولكي يؤكد انفصاله خلق من حجرته عالمه الأثير ، هي عالمه الذي يحبه ، وما إن يدخلها حتى ينفصل كلياً عن العالم المحيط به .

إنها عالم اسطواناته الموسيقية وكتبه الإنكليزية وصور الممثلين والممثلات التي علقها على الجدران .

كان يشعر بأنه ينتمي إلى عالم آخر ، ينتمي إلى عالم بعيد ، إلى عالم ممنوع عنه ، عالمه يقع وراء البحار . . . عالم يوتوبيا لم يكن الوصول إليه متاحاً ولا متحققاً ، أحبه ولكن بشكل يائس ، انتمى إليه وأخلص له لكن دون أمل تقريباً ، كانت الحرب العراقية الإيرانية على أشدها ذلك الوقت ، وهو محبوس في جبهاتها وعالمها الكريه والمقرف والمقزز ، كانت الإجازة هي عالمه الحقيقي ، وهي حياته الوحيدة ، حيث يستمع للموسيقى ، يقرأ ، يرقص ، يغني ، يعزف على الغيتار ، ولكي يبتعد كلياً عن كل ما يحيط به ، وجد له طريقة أخرى في الهروب ، هي مراسلة المجلات والصحف في الخارج ، وهذا الأمر الوحيد المتاح له كجندي في بلد كان يعلن عداوته بصورة سافرة للغرب .

***

كان يعيش عوالم الكتاب الأوربيين بكل تفاصيلها ، كانت حياتهم وأشكالهم وكتبهم تسحره ، يقرأ بشكل صامت سيرهم الذاتية ومذكراتهم ونزاعاتهم الأدبية ، يبحث عن كل تفصيل من تفاصيل حياتهم ، يقرأ عن المقاهي الأدبية في أوربا القرن التاسع عشر ، يقرأ عن مدارسهم واتجاهاتهم الفنية والأدبية ، مع أنه لم يزر أوربا ولم يعش فيها ولا يعرفها معايشة وحياة ، ولكنه كان يعرفها من خلال الرواية والمذكرات والسير الذاتية والفلسفات .

كان يتخيلها فيعيش فيها ، كان يشعر بنبضها من بعيد ، يهتم بخرائطها وأسماء شوارعها وبناياتها ، وكان يشعر بقوة بأن جسده هنا لكنه

يتنفس ويعيش هناك، وكان يعوض هذا الغياب بالأناقة الفارهة، والملابس الثمينة، وأفلام السينما، والموسيقى التي كان يسمعها:

سونيتات بيتهوفن، موسيقى برامز، أعمال ديبوسي، سمفونية ماهلر، وأغاني جون لينون، والهارد روك، والبلوز، وأغاني الجاز للوي أرمسترونك وأيلا فيتزجيرالد.

كان يريد أن يصبح كاتباً ولكن من أولئك الكتاب في أوربا لا من هؤلاء الكتاب هنا الذين كان يحتقرهم احتقاراً شديداً دون أن يقرأهم، كان يقرف من أشكالهم، من ملابسهم، من طريقتهم في الكلام، من كتبهم البشعة والمطبوعة بشكل رديء، كان يتقزز من شكل الحرف العربي، من ألوان الأغلفة، كان يتقزز من مواضيعهم، ومن مشاكلهم، ومن حياتهم التي لا تمنح شيئاً، ولم يكن يعتقد على الإطلاق أن هذه المنطقة بتخلفها وانحطاطها تسمح له بكتابة رواية، بل الرواية بحاجة إلى عالم معقد، إلى حياة حرة متداخلة، إلى عالم متطور ومتحضر، إلى امرأة قوية ومتحررة، إلى علاقات اجتماعية من نوع آخر، أما الثقافة العربية فقد كان يشير إليها بإصبعه باحتقار.

-نعم سأصبح كاتباً ولكن باللغة الإنكليزية لا بالعربية البغيضة.

كان يحرص أن يعرف كل شيء عن الثقافة الغربية، فكراً وفلسفة وتاريخاً وأدباً، ويحرص أن لا يفوته أي شيء منها، وكان يهيىء نفسه أن يكون كاتباً بإحدى اللغات التي يجيدها.

أما المرأة في بلاده فكانت أكثر ما يثير نفوره... وكان يمني نفسه أنه وبعد أن يتسرح من الخدمة العسكرية، إن لم يقتل طبعاً، سيهرب إلى أوربا مهما كان الثمن، وهناك سيتزوج بكاتبة إنكليزية أو فرنسية، وينسى كل شيء في هذه البلاد التي ولد فيها.

***

كنت أسأل على الدوام هل أسهمت عائلته في اتخاذه نمط العيش هذا؟

من جهة والدته لا أعتقد ذلك .

كانت عائلة أمه منيرة تنحدر من طبقة بغدادية عريقة تعمل في تضمين بساتين النخيل على ضفة نهر دجلة ، لم تكن العائلة ثرية أبداً ، ولم يعرف عنها تعلقها بالغرب أو سفرها إلى الخارج مطلقاً ، بل بالعكس كانت عائلة معروفة باتجاهاتها السياسية الوطنية والمقاومة للاستعمار الإنكليزي ، وكان جده شاعراً ، قرأ القصائد الطوال المعادية للإنكليز أيام المظاهرات في ميادين بغداد وفي ساحاتها ، وكان خاله منير قد استشهد في معركة الجسر التي اندلعت ضد معاهدة كانت تمنح الإنكليز حق القواعد العسكرية في العراق .

كانت والدته منيرة معلمة على قدر من الجمال ، وثقافتها المتوسطة كانت محافظة ، وهي ذات نزعة انتقادية على الدوام لسلوك ابنها وتصرفاته وانعزاله عن عائلته ومجتمعه ، ولم تكن تفهم هذه النزعة إلا تعاليا وغطرسة على المحيط ، وكانت تشعر بأسى ابنها وحزنه ونفوره وتقززه ولكنها لم تتعاطف معه ولم تشجعه ، وكانت تخشى أن يفني حياته في أن يصبح كاتباً كما كان والده يأمل ذلك وفشل ، ولم تكن تعرف لماذا لم يتخذ الابن من فشل والده ككاتب عبرة ويترك هذا السبيل الطويل والمعقد في الحياة ، والذي لا يؤدي إلى نتيجة أبداً ، غير أن الابن كان يعد سبب فشل والده ككاتب لا يعود إلى قلة موهبة فيه ، أو بسبب ضعفه ، أو ضعف خياله ، إنما بسبب عدم معرفته لغة أخرى ، وبسبب إيمانه بالكتابة في مجتمع لا يقرأ ، وفي محيط جاهل ومتخلف ، كان يعد الخطأ الأساس الذي ارتكبه والده هو هذا الإيمان المفرط بكتابة رواية منقولة عن الغرب ومجلوبة في محيط غير محيطها .

والده ربما كان هو السبب ، كيف؟

لم يكن والده ينحدر من عائلة أرستقراطية هو الآخر ، إنما من عائلة متوسطة هاجرت من جنوب العراق في غروب القرن التاسع عشر وقطنت بغداد ، وكان جده يعمل كاتباً عند الدولة العثمانية في بداية حياته ، ثم عمل في الميرة مع الإنكليز عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتوفي بعد نهاية عهد المملكة في العراق أواخر الخمسينيات ، وخلف للعائلة بيتاً متواضعاً عند نهر دجلة من جهة الكرادة الشرقية ، أما والده الذي عاش حياة لاهية وعابثة أول الأمر فقد تغير كلياً في منتصف حياته ، لم تكن حياته تخلو من تجارب كثيرة ، فقد سافر إلى مناطق عديدة من العالم ، وعاش حياة صاخبة في بغداد التي برزت بثرائها الاقتصادي في خمسينيات القرن الماضي ، ثم عمل موظفاً في البريد فترة من الزمن ، وربما توظف الجيل الثاني من العائلة كله تقريباً في وظائف الحكومة ، ولذلك بقيت علاقات هذا الجيل مع الدولة على الدوام علاقات متصالحة ، ثم تنقل والده في أكثر من وظيفة في مؤسسات الدولة ، مع أن المهنة التي عبدها وعشقها طوال حياته هي الكتابة .

كتابة أي شيء . . . رواية . . مقالة صحفية . . . أي شيء . . . يريد أن يكتب كتاباً عن أي شيء . . . يريد أن يكتب شيئاً متميزاً ، غير أنه يشعر بأنه كاتب فاشل غير قادر على كتابة شيء عظيم وخارق ، كان بحثه عن أسلوب عظيم غير موجود قد قتله ، قد حرقه حرقاً ، وقضى عليه تماماً ، كان يريد أن يكتب قطعة لا مثيل لها ، ما هي؟ لا يعرف ما هي؟ ولكنها شيء لا يصل إليه كاتب من قبله ، شيء لا مثيل له ، ولكن كيف ، اللغة لا تسعفه ، الأسلوب لا يسعفه ، الفكرة العظيمة لا تسعفه ، فشعر بأن كل ما كتبه لا قيمة له على الإطلاق ، وهو مثله مثل كل من يكتب تلك الأيام في الصحف والمجلات ، وهذا المكتوب لا قيمة ولا حياة له .

في البداية أخذ يقرأ كثيراً في كتب متنوعة ، بعض هذه الكتب لا يربط بينها رابط ، كان يريد أن يقرأ كل شيء ، لأن على الكاتب أن يعرف كل شيء ، ثم قرر أن يخضع نفسه لجدول ونظام وبرنامج معين ، لقد واصل الليل مع النهار في القراءة مثل مجنون ، كان يحفظ الشعر ، يقرأ الأساليب ، والقواعد ، ويبحث عن كل ما يخص تجارب الكتاب ، كان يعتقد أن تقليد كاتب في طريقة كتابته يمكنه أن يسهل عليه الأمر ، وبعد مدة طويلة قرر أن يكتب ، ولكنه حين جلس على الطاولة ، وأمسك بالقلم وأخذ يخط على الورقة البيضاء بعض الجمل التي فكر بها طويلاً ، شعر بأنه غير قادر على كتابة أي شيء له قيمة ، ما يفكر به ويحلم به أكبر بكثير مما يمكنه أن يخطه على الورق .

لقد بقي أياماً طويلة وهو يحاول الكتابة ، وفي كل مرة كان يفشل فشلاً ذريعاً ، لقد شعر تلك الأيام أن كل شيء يخونه ، كل شيء يتمرد عليه ، الفكرة تطير من رأسه ، يده ترتجف وهي تمسك القلم ، كان يشعر بالرعب والخوف ، يشعر باليأس القاتل ، والحزن الشديد ، كل تعبير يخونه ، كل جملة تذهب من ذهنه . يكتب كلمة ثم يشطبها ، يكتب جملة ثم يشطبها ، يكمل سطراً دون أن يرضى عنه ولكنه يستمر ، عله يرضى عن السطر الثاني فيشطب السطر الأول ويضع السطر الثاني في المقدمة ، لكنه يفشل أيضاً ، ينهض من مكانه ، يتمشى في الممر ، يرمي اللوم على زوجته وأولاده بسبب الضجة التي يحدثونها وهو يكتب ، يهدأ المنزل تماماً ، يصبح الصمت رغماً على الجميع ، ومع ذلك فإن الفكرة العظيمة لا تهبط على الكاتب ، والأسلوب العظيم الذي يحلم به ، لا يهبط إليه ، ولا يصبح في متناوله ، فينفجر غاضباً .

***

لقد فشل في أن يصبح كاتباً فشلاً ذريعاً . الزوجة ، الأبناء ، لا يعرفون

سر فشل هذا الرجل الذي يرتدي ملابس الفنانين ، ويقرأ كثيراً ، ويتحدث بطريقة ساحرة ، لكنه حينما يأتي أمام الصفحة البيضاء كل شيء يخذله ، مرة ، لن ينسى الابن هذا المشهد المرعب أبداً ، فقد انفجر الوالد من الغضب أمام الورقة البيضاء ، أخذ يبكي بكاء حاراً أول الأمر ، ثم سمع الابن نحيبه ونشيجه الحزين الذي يعصر القلب ، ثم نهض من مكانه ، أخذ يضرب على الجدار ، ويصرخ على زوجته :

-منيرة . . . منيرة . . . صار عمري أربعين عاماً ولم أكتب كتاباً واحداً لحد الآن .

لقد قتله حزنه ، لقد قتله شعوره باليأس ، ومحاولاته الفاشلة ، وشعوره بالعقم .

وإن تخلى عن هذا المشروع تماماً في سنواته الأخيرة ، إلا أنه ترك في نفسه مرارة لا شفاء منها ، وبقي يحذر أولاده من الكتابة باللغة العربية ، قال لهم إنه عمل تافه ، فهذا المجتمع لا يقدر الثقافة ، والكتابة لا تفيد فيه ، وهو مجتمع ميئوس منه ، وربما هذا ما جعل علاء خليل يشعر بالاحتقار والتقزز من الكتابة باللغة العربية ، ربما حياة والده تفسر جزئياً سلوكه وتصرفه وطموحاته الأدبية والثقافية ، فهو من جهة يريد أن يتجاوز عقم والده ، وهو من جهة أخرى كان يخشى تكرار التجربة ، ولذلك اتخذ من اللغة الأجنبية وسيلته التي عدها منقذاً له ، ومتجاوزاً فيها خطأ والده المميت ، غير أن والدته كانت تشعر بالرعب ذاته ، الرعب القديم الذي أصابها به فشل زوجها ، وكانت خائفة من تكرار التجربة ذاتها لدى الابن ، وفي الوقت ذاته ، لم تكن قادرة على ردعه ، أو ثنيه ، لم تكن قادرة على إقناعه . أن يصبح كاتباً هذا أمر لا نقاش ولا جدال عليه ، كنت أشعر به وكأنه يريد تعويض فشل الأب ، ولكنه في الوقت ذاته كان يريد أن يتجاوز أخطاء الرجل الذي حمل اللغة العربية أسباب فشله ، ولكنه بالغ

كثيراً بطبيعة الأمر، فأوصل تجربة الأب إلى حدها الأقصى، لتشمل المجتمع، والثقافة، والحياة، والناس، والدين، والآخرين، كلهم جميعهم مسؤول عن هذا، في حين كان الوالد مندمجاً في مجتمعه، كان يعيش حياة طبيعية فيها، لكن ثورة الابن شملت الجميع، ودون هوادة، وحتى في الفترة التي كنت ألتقيه فيها، كان يعبر عن طموحاته بكل صراحة:

«تكتب بلغة أجنبية... أين... هنا في العراق...» كنت أسأله... يجيبني:

«لا طبعا في أوربا».

«متى؟»

«حينما أهاجر طبعا!»

«أين تهاجر؟»

«إلى أوربا طبعاً!»

«متى تهاجر؟»

«حينما تنتهي الحرب!»

«متى تنتهي الحرب؟»

«لا أعلم متى تنتهي الحرب ولكنها ستنتهي حتماً»

«وإن لم تنته؟»

«مستحيل لا وجود لحرب لا نهاية لها ... ستنتهي».

وفي يوم نهض الابن بعد أن طالت الحرب طويلاً، وأخذ ينتحب في الليل، وسمعت الأم النشيج ذاته الذي سمعته يوماً من الأب، بعد ذلك نهض من سريره، وصرخ بأعلى صوته:

«لم تنته الحرب وأنا أنتظر من ثمان سنوات... من ثمان سنوات أريد أن أهاجر إلى أوربا وأصبح كاتباً...».

كان همه أن يهاجر إلى أوربا ويكتب بلغة أجنبية، فأدركت الأم أن ما

حدث للأب تكرر مع الابن . لكنها لم تعد تلح عليه كما كانت تفعل فيما مضى ، لأنها أدركت أن كل هذا لا نفع منه ، وأنه سينتهي نهاية والده ، صحيح بعد فوات الأوان ولكن إصراره سيتآكل ، سيخبو شيئاً فشيئاً ثم ينتهي ، سينتهي بالتأكيد ، وهكذا تركته يمضي إجازاته يستمع للموسيقى الغربية ، ويقرأ ، دون أن تتدخل أو تمنعه أو تتحاور معه كما كانت تفعل من قبل ، تركته ينام ويستيقظ وهو في أحلام يقظته ، يقرأ الروايات الأوربية ، يحلم بالسفر إلى أوربا ، والكتابة باللغات الأجنبية ، يحلم أن يصبح كاتباً كبيراً ولكن بلغة غير لغة الأب . . . تركته كما تركت والده يعيش في نسيانه ، بينما كانت ترعاهما كلاهما الأب الكاتب الفاشل القديم ، والابن الكاتب الجديد في طريقه إلى الفشل .

لقد انتهى الأب عجوزاً متقاعداً يرعى حديقة البيت الصغير الكائن في ضاحية من ضواحي العاصمة بغداد ، انتهى جالساً أكثر الأحيان بالقرب من أشجار الورود القصيرة الكثة ، ومن صفوف الآس ، لقد ترك الكتابة واستبدلها بحديقته ، حين يعود من المقهى مساء يخلع سترته ، يلبس مئزراً من القماش الأزرق مثل العمال وينكش الأرض بالمعول ، يشذّب الأشجار ، يسقيها ساعة ، ثم يجلس على المائدة في انتظار وجبة العشاء . . . وفي الصباح يستيقظ باكراً ، قبل الجميع ، يحمل جردل الماء بيده ويسقي الورود ، يقطف أحياناً وردة ويقدمها لأحد أبنائه ، أو لشخص ما يسلم عليه في الشارع ، أو يقصّ بالمقراض بعضاً من تلك الورود ، ويضعها في زهرية ويضعها على طاولة ابنه ، وكان الشيء الوحيد الذي يذكّره كلّما رأى ابنه يقرأ كتاباً ، أنه كاد أن يصبح أعظم كاتب في العالم لو لا اللغة العربية ولو لا كان يعيش في مجتمع متخلف مثل مجتمعه .

***

بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية تسرّح علاء خليل من الجيش ،

غير أنه لم يستطع السفر إلى أوربا أبداً ، كان يحاول ذلك إلا أنه لم يفلح ، أخيراً فكر ، ماذا لو يكتب رواية بالإنكليزية ، تدور أحداثها في مدينة متخيلة لا وجود لها ، ثم يرسلها إلى دار نشر أميركية أو بريطانية ، وستجدها الدار واحدة من أهم الروايات التي وصلتها ، ثم تقوم بطبعها ، فيحصل على شهرة كبيرة ، وهو في بغداد ، وبعد ذلك تقوم الدار باستضافته على حسابها ، وحين يصل تتعاقد معه على رواية ثانية ، وتنجح الرواية الثانية فتفكر الدار بإغرائه للبقاء هناك ، والتزوج من امرأة غربية ، وهكذا يصبح كاتباً غربياً بامتياز ، وفي المحيط الحقيقي الذي كان يعتقد أنه محيطه والمكان الذي يعتقد أنه مطرود منه ، طالما أن أوربا هي اليوتوبيا التي يحلم بها ، هي العالم المرغوب والمشتهى نسبة له ، وهي التي ستحل كل مشاكله .

واصل الليل بالنهار ، وهو يكتب بالإنكليزية رواية عن مدينة متخيلة ، مدينة محلومة ، يحلم بها البطل ويتمنى الوصول إليها ، غير أنها ممنوعة عنه ، وبعيدة ، فيبدأ بتخيلها وهو بعيد عنها ، يتخيل كل دقائقها ، شوارعها ، بناياتها ، أسواقها ، أسماء الأشخاص الذين يقطنون فيها ، وفي النهاية يتحدث عن فلسفتها وأفكار حكامها والنظام السياسي فيها ، يتحدث عن فكرها الإنساني ومثاليتها ، وكان يرمز بطبيعة الأمر إلى أوربا ، وبعد أن أنهى الرواية أرسلها إلى إحدى دور النشر الأميركية ، وقبل أن يأتيه الجواب حدثت حرب الخليج الثانية .

سمع خبر احتلال الجيش العراقي للكويت في الراديو ، ومعه خبر عودته للحرب مرة أخرى ، جمع أوراقه وكتبه ووضعها في كيس وألقى بها خلف سريره ، وعاد إلى الجبهة مرة أخرى .

هذه الحرب لها طعم آخر ، إنها الحرب مع الغرب هذه المرة ، مع العالم الذي كان يحلم بالذهاب إليه وها هو العالم الذي حلم به جاءه زاحفاً

نحوه ، كان يريد أن يصل هناك ، وها هو الهناك جاء هنا ، صار البعيد قريباً ، والهناك حلّ في الهنا ، وبدلاً من محاورة القلم والكتب والفن والجمال والاستطيقيا التي كان يحلم بها ، أصبحت المدافع والقنابل والطلقات هي المحاورة الوحيدة هنا والآن في الزمان والمكان .

***

ماذا حدث له بالضبط أثناء هذه الحرب وأين خدم؟

لا أعرف . . .

كنت أنا أيضاً جندياً أخدم في مكان آخر غير المكان الذي خدم هو فيه ، وكنت سألت عنه الكثيرين في تلك الفترة ، وأظنه خدم في سلاح الجو ، والبعض قال إنه استخدم من قبل القوة الجوية بسبب إتقانه للغة الإنكليزية في ترجمة المخاطبات بين طياري جيش الحلفاء وقواعدهم ، وهو بهذا شهد فصلاً مهماً من عمليات التدمير المنظم التي عاشتها بغداد في تلك المرحلة ، وبالرغم من غضبنا جميعا من السلطة الاستبدادية في ذلك الوقت ، ولكن تهدم بغداد كان أمراً غير محتمل بالمرة .

والمشكلة أن الحلفاء هدموا الجانب الحضري من المدينة ، هدموا الجانب الأوربي الذي جعل من هذه المدينة القروسطية في نظر علاء خليل ، بعلاقاتها ونظمها الاجتماعية والسياسية ، مدينة محتملة ، فهو الجانب الوحيد الذي كان يمكنه أن يتنفس من خلاله ، وباستثناء هذا عادت بغداد إلى مرحلة البداوة مرة أخرى .

في منتصف التسعينيات بدأت أراه مرة أخرى ، وكنت اندهشت بشدة لتغيره الكلي ، لم يعد هذا المتؤرب في تفكيره ، ولا السائح كما كان في نظره لمحيطه ، كما لم يعد ذلك الحاقد على ثقافته واليائس منها ، ولا الجاهل بها .

شكله تغير تماما ، أصبح أكثر ثورية ، أكثر صلابة ، الملابس وإن حافظ

على أناقتها ولكنها أصبحت أقل تحفظا ورسمية . . . بدأ الصلع يغزو رأسه ، أصبح أكثر جدية في النظرة الحادة في العينين السوداوين ، أكثر انفعالاً وأكثر قوة . . . دخل السجن تلك الفترة مرتين بسبب أفكاره ، لم يعد هنالك شيء يردعه ، الشجاعة واضحة ، والألم الذي يعتصر قلبه أصبح أكثر إعلاناً من قبل وأكثر فعالية ، لقد تبدل كلياً وأصبحت أزمات المنطقة التي يعيش فيها من صلب اهتمامه ، كان يناقش ويتحمس ويقرأ بصورة متواصلة ، بل كان يقرأ بشكل جنوني .

في البداية كان يقرأ إدوارد سعيد ، وهومي بابا ، وغياتري سبيفاك ، وإقبال أحمد ، وغيرهم ، وما عاد كثير الاهتمام بالأدب الإنكليزي أو الأميركي إنما كان كثير الاهتمام بنايبول وبسلمان رشدي وكويتزه وأدب المستعمرات ، وكان فجر التسعينيات في بغداد يشهد نوعاً من الصراع الدامي مع طوفان من الأفكار والتيارات والنظريات التي اجتاحت العالم ، وفي دولة هي من أكثر دول المنطقة بوليسية ولا سيما مع الأفكار ، وحين سألته عن تبدل خيارته ، وعن اهتمامه بإدوارد سعيد ، قال :

ماذا تريدني أفعل . . . أؤمن بالفكر القومي . . . خراء . . . لم تعد سياسات الهوية التي تنطوي على كآبة مجروحة وعلى حقد مخمر هي الحل .

أؤمن بالفكر الغربي في الديمقراطية والرفاه الاجتماعي والعدل والحق والإنسانية خراء أيضاً .

الأسطورة الأولى تخلخلت على يد الدكتاتوريات ، والثانية تخلخلت ليلة قصف بغداد وتهاوت .

***

عاد أيمن مقدسي في ذلك الوقت من جامعة كولومبيا ، وأصبح أستاذاً يدرس الأدب المقارن في بغداد ، وهذا الأمر مهم جداً بطبيعة الأمر في

تطور علاقته مع علاء خليل ، ولكن ما هو مهم أيضاً ، هو عودة زينب نصري التي درست في جامعة كولومبيا أيضا مع أيمن مقدسي .

تعرفنا - علاء خليل وأنا - على زينب نصري عن طريق أيمن مقدسي ، وعلى ما أذكر كان ذلك في احتفال عام أقامه المركز الثقافي الفرنسي في إحدى قاعاته ، فوقفت في الباحة الخارجية محاطة بنا نحن الثلاثة ، كانت جميلة وبسيطة وعفوية ومثقفة جداً ، والدها تركماني من كركوك عمل في السلك الدبلوماسي مدة طويلة ، وأمها من عائلة بغدادية معروفة ، وتحدثنا طويلاً ذلك المساء على صوت الأورغن الذي يأتينا من النافذة ، وهناك ضوء إرجواني ينهمر من المظلة الكبيرة في الحديقة ، وقد رأيت علاء خليل على غير عادته ذلك اليوم أليفاً ومرحاً وودوداً جداً ، ثم خرجنا من المركز وسرنا في شوارع بغداد الواسعة ، كان المساء رائقاً وجميلاً والهواء الهاب منعشاً ، بالرغم من أن الشوارع كانت قذرة بعد الحرب ، وبناياتها مسودة ويعلو نوافذها وأبوابها الصدأ ، وتغزو حدائقها الحشائش الضارة ، غير أننا كنا سعداء ، نتحدث ونتناقش بهدوء ونضحك ، حتى عدنا إلى منازلنا ليلاً .

في الصباح رن الهاتف ، كان علاء على الخط يسألني بصوته المتعب ما رأيك بزينب نصري ، رائعة قلت ، ما علاقتها بأيمن مقدسي ، قلت له لا أعرف عليك أن تسأله أنت ، ارتبك قليلا وطلب مني أن أنسى الأمر ، ولكني أدركت من سلوك الأمس ومن صوته المتعب أنه في طريقه إلى غرام جامح ، فشخصية زينب نصري التي عاشت في الغرب طويلاً تسحره ، يريد أن يعوض من خلالها ما هو فاقد إليه ، ولكن المأساة بطبيعة الأمر هو اهتمام أيمن مقدسي بها أيضاً ، وهكذا ومن تلك اللحظة عرفت بأننا مقبلون على كارثة حقيقية ، ستدخل فيها السياسة والأمة والحرب والمواقف والخيانات والاتهامات . . . وسيخلط الجميع هذا الأمر بكل الأمور الأخرى .

في البداية أخذ علاء خليل يزور أيمن مقدسي كل يوم في الجامعة، بل وطد علاقته به بطريقة غير معقولة، وكان يتحاشى الاصطدام به أو الانشباك معه في نقاشات متوترة كما كان يفعل، وكان الدافع من وراء كل هذا بطبيعة الأمر هو التقرب من زينب نصري، كان يذهب إليه لكي يلتقي بها بطبيعة الأمر، كان المقصد في حقيقته من أجل أن يزورها ويتحدث معها، وبما أنها مهتمة بإدوارد سعيد فقد كان يذهب كل يوم وهو يحمل كتاباً معه من كتبه، غير أن المنافسة بينه وبين أيمن مقدسي ردت الأمور إلى اتجاه آخر، وهكذا أخذت حياته في تبدل مستمر . . . وتحول واضطراب، مرة تتلكأ ومرة أخرى تسير، أما الموضوع الأساس الذي كان يهيمن عليه في ذلك الوقت هو كتابة كتاب يجمل فيه أفكاره، وهذا الكتاب باللغة العربية بطبيعة الأمر، وقصة تحوله للكتابة بالعربية ترتبط بقصة حبه مع زينب نصري على ما أعتقد، غير أني في تلك الفترة رأيته أيضا خائفاً من أن يصاب بالعجز، كما كان والده مصاباً بهذا العجز والعقم الكلي.

***

في الواقع نجح علاء خليل من التقرب من زينب نصري، ربما بعد محاولات شتى، حتى أخذت أراه معها دائماً، مع أني كنت أراها وفي أحيان كثيرة مع الاثنين، مع علاء وأيمن، وربما عزز وجودها من وجودهما معاً، فكان الاثنان يحرصان على أن تكون معهما، وهكذا كانا يلتقيان- ربما- بسببها لا بسبب آخر، وقد رأيته أكثر من مرة وفي أماكن مختلفة معها، ملابسها العادية وشعرها المحلول على أكتافها، طولها الفارع، نظرتها الواثقة، وفي يدها كتب باللغة الإنكليزية على الدوام، وقد كان يتحدث هو بصوته الجهوري، ويشدد على مخارج الأصوات ليبدو تأثيره أقوى على مستمعيه، من باب الجامعة المستنصرية إلى مكتبة جامعة بغداد في

الوزيرية ، هذا هو خط سيرهما ، مقهى حوار القريب من الأكاديمية ، مطعم هو وهي المقابل للمكتبة ، شارع السفارة التركية ، مبنى الصحيفة القديم ، الطريق المشجر خلف جمعية التصوير ، هناك يجلسان معاً ، يتحدثان أحاديث لا تنتهي .

التحول اتضح بصورة لا مثيل لها ، والمسألة نسبة لي محسومة : علاء خليل تغير تماماً ، لقد رأيت بنفسي تغير جيل بأكمله ، جيلي . . . هذا الجيل الذي ضاع بعد أن فقد الإيمان بكل شيء ، لا الثورة ولا الأحلام العظيمة ولا السعادة هي أوهامه الكبيرة . . . لقد فقد كل شيء . . . جيل الآباء متهرئ وقديم وأحمق ومشلول وقد أوصلونا إلى العقم . . . وكنا نشعر باليتم حقا . . . القومية والوطنية تهاوت مع الدكتاتوريات وشجون التعذيب والقتل المجاني والانتقام الأخرق ، البعض هرب إلى الدين بحثاً عن سعادة مؤجلة ، والآخر هرب للغرب ليعيش عالم الاستهلاك وينتهي هناك في حجرة باردة يكتب عن بطولات لم يكن يحمل أي واحد منها شيئاً . . . ويحلمون بالتغيير بعد أن يعودوا ليحلوا محل رفاق الأمس ويشبعوا من الامتيازات . . .

أما نحن فقد فقدنا كل شيء . . . لم نعد نؤمن بثقافة عالمية الرفاه الاجتماعي الذي طرحه عصر الأنوار الغربي التي سقطت من نظرنا ، ولم نكن نؤمن بما هو متحقق في ثقافتنا ، وقد عاش جيلي تلك الأيام في فراغ مخيف ، وإحباط شامل ، لم تكن النظريات التي هجمت علينا فجأة وأحاطت بنا تجيب عن الأسئلة المجلجلة في داخلنا ، ولا تلبي حاجاتنا ، وحين ظهرت أفكار إدوارد سعيد ونظرياته كانت نسبة لنا كانتلجنسيا شابة هي ملء حقيقي لخلاء شامل وملء لفراغ فاضح ، كما أن أفكاره كنست بقوة وعنف كل ما هو أمامها من نصوص قديمة متراكمة عبر هذه الطاقة المحرضة والمزلزلة ، كنست أمامها كل شيء تقريباً عبر قوة مهدمة ومقاتلة

على نحو صريح وإعلاني . . .

أنا أتذكر مشاعر أصدقائي ، أتذكر المشاعر التي غبطتهم في تلك الفترة ، وكنت أتذكر كيف كانوا يقرأون نصوص إدوارد سعيد وكتاباته ببلاغتها المهيبة وحججها المدعمة وهي ترفس بصخب كل شيء أمامها ، ترفس بثقة كاملة دون أن تلتفت إلى وراء .

كانوا يقفون مندهشين ويتحدثون بصخب أحياناً عن هذه الطاقة الهوميرية الكاسحة لدى إدوارد سعيد ، الطاقة الحربية التي لا تهدأ وهي ترعد مفكرين كباراً . . . لقد كانوا يشعرون بأنهم بحاجة ماسة إلى شيء جديد ، إلى تحليل من نمط خاص ، فالأفكار الوافدة كانت أفكاراً تصحيحية ، أو ساذجة ، أو دينية ، أو قومية تبشيرية ، بينما ما كنا نبحث عنه هو القوة الكاسحة المدمرة والمخربة ، كنا نبحث عن النصوص الكاسحة والصاخبة لتدمير هذه الحكومات المحلية بسلطتها الاستبدادية المنفلتة والتي كنا من ضحاياها ، وكذلك تهديم القوى الرأسمالية المتوحشة ، وهكذا وجدنا أنفسنا شيئاً فشيئاً وسط العالم . . . فأفكار إدوارد سعيد عالمية وكارهة للتمركزات التوبوسية القومية المتخلفة والمختلة وتهديمها .

***

قال أنا أريد زلزالاً لا أفكاراً . . . وضرب يده على الطاولة .

كانت المروحة تدفع بالهواء والدخان من الباب ، أشخاص كثيرون يدخلون ويخرجون من المقهى ، والنار تلتهب وتتراقص تحت قوري الشاي . . . غير أننا لم نكن نعبأ بمن يخرج أو يدخل :

-أنت تقول نظرياته فقط تحدث هذا الأمر . . . أبداً إنما شخصيته الكارزمية أيضا .

أطرق قليلا ثم قال :

- هل تعرف ما أبحث عنه؟

- لا

- أبحث عن شيء قوي يجعل من الهامشي مركزياً ويحارب القوى الانتصارية والعناد المتعجرف .

لقد كنا في ذلك الوقت أكثر استعداداً وقبولاً لهذه النصوص المطهرة والمعقمة لجروح متقيحة ومستشرية .

كنا أبرياء تماما وأنقياء بصورة كلية ، شباب استفاق فجأة على انهيار مجلجل وشامل لسلم القيم والأخلاق والأعراف في الثقافة والحياة والمجتمع في العالم كله ، استفاق على السقوط المدوي للإيديولوجيات القومية والعالمية معاً ، ولم يكن أمامه في هذا الفراغ المخيف غير هذا الدرس الأخلاقي الجديد الذي نفذته كتب ونصوص إدوارد سعيد ببراعة تامة .

***

عاد النقاش المجلجل بين علاء خليل وأيمن مقدسي مرة أخرى .

كان السبب ربما هو أنه لم يستطع أن يوجه علاقته مع زينب نصري الوجهة التي كان يريدها ، كان هنالك أيمن مقدسي وأراد تجاوزه ولم يكن ذلك بسهولة ، فعلاقة زينب نصري مع أيمن مقدسي وثيقة إلى الحد الذي لم يكن يتصوره علاء خليل ، وإن كان أيمن مقدسي يعشقها هو الآخر حتى وإن لم تبادله المشاعر ذاتها ، ولكنها لم تكن قادرة على التفريط به هكذا أو على الأقل كما كان يريد ذلك علاء خليل ، وهكذا دخلنا في حمى النقاشات الصاخبة مرة أخرى ، وهذه المرة بوجود زينب نصري ، المنافسة الشديدة ، استعراض القوة ، التهديد بعواقب المستقبل ، فجأة ارتد أيمن مقدسي إلى القومية الجائحة ، وارتد علاء خليل إلى الرأسمالية المتوحشة ، وكل واحد كان يفسر النصوص التي يقرأها مثلما يريد ، وزاد من هذا الأمر الوضع السياسي المدمر للعراق في تلك الفترة . . .

هنالك أمر آخر لا يمكن إغفاله ، خوفه الوراثي من أن يصاب بما أصاب

والده ، أي الخوف من التجربة ، بالرغم من أنه لم يكن يائساً ولكنه كان يمتلك هذا العناد المتصلب لكتابة كتاب يجمل في أفكاره ، وفي يوم كنت رأيته في المقهى ، لم يحلق لحيته من أسبوع ، وكان نحيفاً جداً وشاحباً ، وعيناه لم تذوقا النوم من أيام ، وكان يحمل بيده مجمعة من الكتب والوثائق .

- ماذا تصنع هذه الأيام . قلت .

- أقرأ كتاباً مثيراً لكنعان مكية .

ربما كانت هنا نقطة التحول في حياته ، كتابات كنعان مكية ، ربما كانت هنا النقطة الفاصلة والتي أتذكرها اليوم بوضوح : مقالات كنعان مكية وأفكاره وحتى حياته أيضاً ، أتذكرها أكثر من أي شيء آخر ، تحولاته الفكرية في المقدمة ، وتجربة النفي أيضاً ، وأشياء أخرى كانت ترد في خاطره من فترة إلى أخرى .

النقطة الفاصلة نقلته إلى نقاط أخرى : لقد أخذ يقرأ لا كتب كنعان مكية فقط ، إنما فؤاد عجمي ، وبرنارد لويس وبصورة مستمرة . لقد شهدت حياته تحولاً آخر مرة أخرى ، لقد شهدت حياته تحولاً كبيراً ، ربما عاد إلى مكانه الطبيعي ، إلى مربعه الحقيقي ، ربما كل ما كان يفعله هو زائف ذلك لأن مقدمات حياته لا تتناسب معه ، ولكنه الآن في الموضع الذي كان يتمناه لنفسه : الديمقراطية ، الحداثة ، السلام مع إسرائيل ، التصنيع ، الفدرالية ، الثقافة الحرة ، اقتصاد السوق . . . . العراق جزء من عالم آخر ، من عالم متحضر ومتطور ولا علاقة له بمحيطه المتخلف والاستبدادي ، العراق ليس عربياً ، هو من جنس آخر . . . إن لم يستطع الاحتياز على زينب نصري ويأخذها من أيمن مقدسي على الأقل يأخذ العراق منه ، وهكذا اختلط ما هو شخصي بما هو سياسي ، ما هو عاطفي بما هو عالمي ؛ ما هو غرامي بما هو مأساوي ، وانقلب كل شيء على كل شيء . . . إلى أية درجة أسهمت منافسة أيمن مقدسي على زينب نصري في تغيير اتجاهه

مباشرة ، بالتأكيد الكثير . . . مع التشديد على أن حياته في العراق هي التي أسهمت في تحولاته ، أما التحول فقد كان حاداً وعلى طرفي نقيض تماماً ، من إدوارد سعيد إلى كنعان مكية ، من هومي بابا إلى فؤاد عجمي ، من ماسنيون إلى برنارد لويس ، وفي قلب هذا العالم الصاخب من حولنا كان الاهتمام بقضية أخرى تماماً ، هي قضية تدخل أميركا وتحويل العراق إلى جنة الديمقراطية ، وهكذا صرخ :

- إذن فليذهب إدوارد سعيد وأيمن مقدسي إلى الجحيم .

لقد ازداد عنفاً لاسيما مع أيمن مقدسي ، الروح العنصرية الجامحة والقاسية كشفت عن أنيابها ، أنا أو هو ، نحن أم هم ، وزينب عليها أن تطيعه ، لكنها فارقته ، كان يريد أن يأخذ معه كل شيء زينب والعراق والديمقراطية والحداثة وكل شيء معه ويذهب بها ، ولا شيء يطيعه ، زاد من هذا الأمر الهجوم الذي شنه إدوارد سعيد على كنعان مكية في الصحافة لتأييد الأخير لأميركا وتشجيعها لاحتلال العراق .

كنت جالساً في مقهى الجماهير ذلك اليوم ، دخل علاء خليل المقهى ، كان يحمل فايلاً فيه أوراق وكتب يخفيهما بصورة تامة ، توقف عند الباب ، كان متوتراً جداً ، توقف عند صاحب المقهى ليجلب شايه ، وضع الملف تحت إبطه ، وضع سيجارة في فمه وأشعلها ، حمل الشاي بيده وتقدم نحوي ، جلس بعصبية إلى جانبي ، وضع شايه على الطاولة ، ثم وضع الملف على الكرويتة ، وأخذ يدخن بعنف .

- ما بك قلت له .

- قرأت ما كتبه إدوارد سعيد عن كنعان مكية .

قلت له : حدثني أيمن عن المقالة ولكني لم أقرأها . هنا استشاط غضباً ، عليك أن تقرأها قبل أن تسمع عنها من أيمن مقدسي الذي يحرف كل شيء لصالح إدوارد سعيد .·استغربت من نبرة حديثه ، أخرج الأوراق

المستنسخة من الحقيبة ، وقد أخفى أحد كتب مكية بسرية في أوراق الفايل ، ناولني الأوراق وأخذت أقرأ بها ، لم يصبر قال لي : اسمع أريد أن أعبر لك عن مخاوفي ، هذا أيمن مقدسي ممكن أن يوشي بي إلى الحكومة ، ويقول عني إني مع كنعان مكية . . . قلت له : هل أنت مجنون . . . ما هذا الكلام طوال صداقتكما وأنتما تختلفان . . .

القوات الأميركية تتجمع في الخليج . . . أميركا تحشد جنودها وبوارجها . . . قوات بأعداد كبيرة تتهيأ للحرب : صواريخ ، طائرات ، مدافع ، دبابات ، بوارج حربية كبيرة . . . وفي بغداد كان الأمر محسوماً لكل واحد منهما ، كل واحد منهما كان يخطط في طريق مختلف عن الآخر ، كل واحد منهما يحرث في جهة متقابلة مع الجهة الأخرى ، كل منهما يفكر بطريقة تختلف كلياً عن نمط تفكير الآخر ، لم يكن أحد منهما يلتفت إلى مشاعر الآخر أو أحاسيسه ، وكان وجود زينب نصري يلهب الاثنين ويجعلهما على خلاف دائم .

مرة دعتنا زينب نصري في حفلة في منزلها الكبير في المنصور : العصرية ، البساطة ، المسرة ، جدران المنزل الفخم المطلية باللون التفاحي الباهت ، أبسطة صوف ، مقاعد من خشب البلوط مكسوة بالعاج ، مائدة هائلة من خشب الصنوبر ذات سطح لامع ، إشراقة وجهها وابتعادها عن التكلف ، نهارات الربيع الحارة التي جعلتها متعرقة قليلا وفائحة عطراً شهوياً ، وكانت هنالك موسيقى عذبة قادمة من البهو ، وفوانيس من ورق أحمر معلقة ، وأصص نباتات تملأ المكان ، والشرفات مفتوحة على الحديقة الجميلة . كانت ليلة مثيرة حقاً وكل واحد منهما -علاء وأيمن-يحاول التقرب منها بصورة مكشوفة ، وهي تطوف على الجميع بعينيها الفحميتين وشعرها الأسود وبشرتها البيضاء التي تشع ابتسامة طفولية ، أما أيمن فقد كان غامضاً وحالماً ومفعماً بالنبل والعمق ، طراز غامض وحزين وبعيد عن

هذه الأجواء التي كان علاء يحبها ، وفي الوقت الذي تصرف أيمن مقدسي بحذر ، بتكتم شديد وهو ما يصم ويميز المنفي والغريب واللاجئ . . . كان علاء خليل يدور بكل ألفة حول المكان ، بثقة الساكن المتجذر والمواطن الأبدي ، وقف إلى جانب زينب نصري وكأنه يلتهمها بعينيه ، وكنت أسمعه وربما أيمن مقدسي كان يسمعه أيضاً ، عندما وقفنا عند الشرفة نتحدث ونشرب البيرة :

-أنت جميلة وقوية . .أية سطوة تملكين علي . . . وكانت زينب نصري تضحك بصوتها الجلجل ، دون أن ترد عليه .

غير أن هذا الكلام آذى أيمن مقدسي ، وجعله مضطرباً ومتلكئاً ، وفجأة أصبح صوته منخفضاً ومبحوحاً .

ومن ثم انتقلنا إلى الصالة التي توسطتها طاولة كبيرة مملوءة بالشراب والمزات ، وعندما جلسنا على الأرائك متقابلين انتقلنا فجأة إلى أحاديث السياسة ، الفصل الذي لا بد أن ننتقل إليه في كل جلسة .

في البداية كان الحديث يتقاطع مع حديث أشخاص آخرين ، وكأن الحوار بينهم ، ومن هنا وهناك تسمع ملاحظة أو فكرة أو رأي مختلف ، فجأة خفتت جميع الأصوات إلا صوت علاء خليل وصوت أيمن مقدسي ، وانشبكا مرة أخرى في هذا النقاش الحاد والمنفعل والمتوتر ، في البداية شرح لنا علاء خليل-وهو تابع برنارد لويس وكنعان مكية وفؤاد عجمي والمحافظين الجدد تلك الأيام- الأمر ببساطة متناهية :

أميركا كانت تحمي الدكتاتوريات العسكرية مقابل أن تحفظ لها الأخيرة مصالحها ، غير أنها اليوم ترى هذا الأمر كارثياً ، لقد أدى هذا التشجيع إلى الاختناق السياسي في المنطقة ، وتحولت هذه المجتمعات إلى معاداة أميركا والغرب ، وذهبت مجموعة من الشبان في الحادي عشر من سبتمبر لضرب أميركا ، وهذا هو الحد الفاصل ، أميركا تعتقد أن

الديمقراطية في المنطقة ستجعل أميركا وأوربا وإسرائيل أكثر أمناً ، الديمقراطية هي الحل ، أن يصبح العراق ديمقراطياً . . . هذا يعني أنه سيتطور ويزدهر . . . ومن ثم ستسقط المنطقة وراءه مثل قطع الدومينو . . . لقد أصبحت قضية الديمقراطية في العالم العربي قضية داخلية أميركية .

ثم بدأ أيمن مقدسي بالرد عليه ، مستعيناً بإدوارد سعيد بطبيعة الأمر ، لقد كان هادئاً أول الأمر ، ولكنه بدأ يفقد أعصابه شيئاً فشيئاً ، وهكذا اشتد النقاش بينهما ، وصعدت أصواتهما عالياً ، وبدأت الاتهامات الحادة والقاسية علناً ، أنت عميل لصدام حسين ، والآخر يقول له أنت عميل للإمبريالية ، هذا يقول له عليك أن تدافع عن وطنك ، وذاك يقول له روح حرر فلسطين واترك وطني لي ، وللمرة الأولى سمعنا بالفدرالية . . . وأن العراق غير عربي ، ولا علاقة له بفلسطين ، وهذا ما جرح أيمن مقدسي بالعمق ذلك اليوم ، جعله يتوتر ويحزن كثيراً ، فقرر مغادرة المنزل ، خرج دون أن ينطق بكلمة وصفق وراءه الباب ، فحزنت كثيراً ، تركت كأسي على الطاولة ، وتبعته إلى الشارع ، سرنا في الطريق المؤدي إلى الريسز القديم ، كان الليل رائقاً ، وهبات من الهواء عذبة تأتي من الأشجار وتصطدم بوجوهنا ، غير أن أيمن مقدسي كان حزيناً ومكتئباً بعمق . . . لم يكن أي شيء تلك اللحظة يعادل حزنه ، أو يساوي مخاوفه واضطرابه وشعوره المقهور بنفسه ، شعور المغترب والمنفي حين يجد نفسه وحيداً ، وحدثني بأنه سوف لن يأتي لهذا الأماكن مطلقاً ، وسوف لن يتقرب من أي مكان فيه علاء خليل ، ولن يتناقش معه في أي شيء ، وصرح لي بأنه بدأ بكتابة رواية .

- رواية . . . أنا قلت .

- نعم . . . رواية عن إدوارد سعيد .

***

أتذكر اليوم هذه اللحظة بعمق ووضوح كبيرين ، ذلك أني شعرت أنه حين نطق بهذه الكلمة انفرجت أسارير وجهه قليلاً ، وزال تقريباً شيء من حزنه ، تلك اللحظة بالذات كنت سمعت منه وللمرة الأولى بأمر الرواية ، لم أكن بطبيعة الأمر أعرف ذلك اليوم ماذا كان يريد أن يكتب ، وكيف يكتب ، وما هي قصة هذه الرواية بالتحديد أو جوهرها ، كما أني لم أكن أعرف فيما إذا كان قد بدأ بها منذ زمن بعيد ، واليوم قد صرح لي بها ، أو أنه كان قد فكر بها في هذه اللحظة بالذات ، ولم يكن يعرف ماذا يريد أن يفعل بالتحديد ، غير أننا أخذنا نلتقي -أنا وهو- مرات عديدة في الأسبوع ، وفي تلك الأيام أخذت الأحداث الدرامية تتسارع جداً ، والوضع الاجتماعي والثقافي في بغداد أخذ يتدهور بصورة مريعة ، كل شيء كان ينذر بالخطر ، كل شيء كان على وشك الانفجار ، وفجأة أخذت الحاجات تنفد من واجهات المحلات ، ونذر الحرب بدأت تتضح ، والوضع السياسي كان قاسياً جداً ، فأميركا كانت تعد لاحتلال العراق ، والسلطة السياسية في بغداد كانت متلكئة ومضطربة ، وحركة الناس كانت محمومة ومتوجسة ، والنظرات المعادية والمشككة كانت تلاحق أيمن مقدسي في كل مكان ، أو على الأقل هذا ما كان يشعر به ويحسه وقد عبر لي عنه ، غير أني طمأنته ، قال لي :

- أنت . . . هذا وطنك . . . ولكنني أنا . . . إن تدهورت الأمور أين سأذهب؟

كنت أشعر بما كان يحسه ، الأرض مرة أخرى ، الأرض التي تحت قدميه كان يشعر بها تهتز أو تتخلخل .

ما خفف عنه هذه القسوة الفظة بطبيعة الأمر هو الكتابة عن أورشليم ، وقد اعترف لي بذلك صراحة ، قال كلما كانت الظروف تشتد ، ويشعر بقسوتها ، يذهب إلى كتبه وأوراقه ويبدأ بالكتابة عنها ، كان يشعر

وهو يسير في شوارعها وأسواقها بالراحة التامة ، كان ضوع حجرها القديم يشعره بأنه في سلام أبدي ، وهو بعيد عن كل ما يؤذيه ويعذبه . . . وكلما كان يشتد الوضع السياسي ضراوة كان ينغمر هناك إلى الأعماق ، ينسى ما يحيط به ، تزول مخاوفه ، تتقهقر عذاباته ، يشعر بأنه يعيش في أرض بعيدة عن كل ما يقلقه ، إنه في المكان الآخر ، المكان الذي حلم به طويلاً . . . طويلاً جداً .

***

كنت أزوره كل يوم تقريباً ، وأحياناً كان هو الذي يبادر ويزورني ، وأنا أتذكر جيداً تلك الساعات الطويلة التي كنا نقضيها معاً ، الساعات الجميلة التي يجلس فيها ويريني الوثائق والكتب التي يحصل عليها ، أو الصور التي يجدها ، أو الرسائل التي يكتبها ، أو التي تصله ، ويتحدث لي حديثاً طويلاً ومسترسلاً عن الأماكن التي يتعرف عليها في (المدينة العظيمة) أو هكذا كان يسميها ، وأنا أتذكر جيداً تلك الأيام التي ربما لم يعثر فيها مباشرة على الطريقة المثلى لكتابة روايته ، فكان يتحدث كثيراً دون أن يشعر بأن شيئاً من إحساسه بدأ يتقهقر ، هذا ما شعرت به أنا على الأقل ، ولكنه قبل أن يصل إلى اليأس ، عثر على طريقة مثيرة ، وقد شرحها لي ذلك اليوم وهو مبتهج جداً :

إدوارد سعيد يسير في القدس ، يرافقه يائيل وإيستر وهما من أبطال روايات إسرائيلية ، كانا يقودانه في المدينة التاريخية العظيمة ، غير أن معالم المدينة قد تغيرت ، أو غيرت بالقوة ، فالكولنيالية تقوم على تغيير صك الملكية من الساكن الأصلي إلى الجديد ، ومن ثم تقوم بتغريب المدينة نهائياً ، إنها تجعل معالمها غريبة تماماً عن ساكنها المحلي ، ثم تغير تاريخها ، أو تخترع تاريخاً جديداً وتفبركه ، إنها تسرد تاريخ الأمة طبقا لمصالحها ووجودها ، وتصنع رموزا جديدة تتعرف فيها على نفسها فيها ،

ومن خلال رؤية إدوارد سعيد نصل إلى تفكيك الرواية التاريخية ، نصل إلى سردية جديدة غير السردية الكولنيالية ، سردية تناقض السردية الأولى وتهدمها ، كل شيء قديم يتراءى خلف الشيء الجديد ويقضي عليه ، لا شيء يمحى ويزول : المدينة مثل الطرس . . . كتابات تنكتب فوق كتابات ، صور ترتسم فوق صور ، رموز جديدة فوق رموز قديمة ، قبور فوق قبور ، لا شيء يمحى إنما يصبح فوقه وعليه ، كتابات ترتسم فوق كتابات ، كل كتابة تبدأ بالامحاء ترتسم على هذا الطرس كتابة أخرى . . .

صاح : أورشليم هي الطرس . . .

- فكرة جميلة . . . قلت له .

- التاريخ سرد متقطع ، وهو مختل وغير متسق ، وهكذا سأرويه من جديد على خلاف الرواية الإسرائيلية المتسقة والموهومة والخداعة .

هكذا تبدأ روايته مثل يوليسز وهو يسير في دبلن ، حيث تتم قراءة الأحداث التاريخية ، والرموز ، والثقافات ، والحالات بصورة متتالية ، وسوف نرى ونحن في مكاننا المراحل التاريخية وهي تتداخل بعضها مع بعض ، ومن فترة إلى فترة يبرز أمام أعيننا : قادة ، جنود ، حجاج ، مهاجرون ، سكان أصليون ، ومن ثم تتحول أورشليم إلى مدينة لكل المنفيين ، لكل اللاجئين ، هي المكان الأعظم الذي ينسى فيه المنفي منفاه ، هي مكانه بعد أن غادره كل مكان ، هي شفاء لكل عذابه وموطنه من كل طرد .

كانت أفكاره تتصاعد وتتكثف ، لغته تتماسك وتتحد ، كان تعبيره يأخذ شكلاً شعرياً بامتياز ، فأخذ يفكك الشعر الإسرائيلي وينثره لكي يهدم معناه ، يفكك بناءه لكي ينقض دلالته ، يقطف لغته من المدينة في لحظة تصاعدها وتوهجها في ذهنه ، كانت تتجمع في ذهنه أفكار إدوارد سعيد ، حياته ، مسيرته ، الأشعار التي كان يحفظها وهو طفل ، صوره ، ويدمجها في حياة المدينة القديمة ، يدمجها في الأحداث التاريخية ، وصور

الإمبراطوريات المتعاقبة ، كان يسمع وهو في حجرته قرقعة السيوف وسنابك الخيل ، يسمع صوت المدافع والمجنزرات ، يسمع صراخ المندحرين واللاجئين وصوت الأناشيد العالية ، تتداخل في ذهنه : لغات متعددة ، أصوات متداخلة ، صلوات مختلفة ، بيانات ، موت ، أحقاد ، كان يرى التحولات بعينيه ، ويشم اختلاف الروائح من زمن إلى زمن ، كان يعمل من الصباح إلى المساء كي يجمع كل شيء عنها : كتابات تاريخية ، خرائط عتيقة ، نقودا قديمة ، وثائق ، مذكرات ، شهادات أحياء ، كان يحاول أن يسأل عنها كل من يعرفها ، أو قرأ عنها ، أو رآها ، أو عاش فيها ، أحيانا يتصل بالتلفون بأناس عديدين ، بشخصيات مهتمة بها ، في أميركا في إسرائيل في العالم العربي ، ومن مختلف الناس : أجانب ، مسلمون ، مسيحيون ، يهود ، كان يجمع الكاتلوغات السياحية ، مخططات المدينة ، دعاياتها ، إعلاناتها ، خطوط باصاتها ، قصصها ، سكانها ، الهجرات نحوها ، مقابرها ، صحفها ، الصور المأخوذة عنها ، حكايات زوارها ، كتب الرحلات عنها ، مذكرات السياسيين ، احتلالها ، تغيير معالمها ، كل شيء . . . كل شيء . . .

وبعد ذلك بدأ بقراءة الروايات الإسرائيلية عنها ، روايات عاموس عوز ، ديفد غروسمان ، ديفيد شاحور ، إبراهيم بن يشوا ، زوريا شيليف . . . أشعار وقصائد مناحيم بياليك وألترمان ويهودا عميخاي وغيره . . . مثقفون ، كتاب ، مذكرات سياسيين ، رحالة قدماء ، مفكرات سياح ، أراد من خلال هذا الكم الهائل من الوثائق أن يجعل من أبطال روايته تكذيب الرواية الإسرائيلية الرسمية ، أراد البدء بسرد مختلف عن سرد القادمين إليها ، أراد أن يتجه إلى سرد اللاجئين والمطرودين والمنفيين ، سرد المغيبين والمهمشين ، ومن خلال الرواية المدحورة تتقهقر الرواية المنتصرة ، وتظهر المدينة من تحت الطرس بكتاباتها الممحوة وذكرياتها المتروكة والمهملة . . .

وإدوارد سعيد يواصل سيره وتوقفاته ، ينظر هنا . . . ينظر هناك . . . فتترمم المدينة القديمة في عينيه ، وتتقشر بنيتها الخارجية التي صنعتها الرواية الكولنيالية وتتهاوى وتتراكم وتذوب . . . هناك ، وسط هذا الكم الهائل من المعلومات ، اكتشف علاقة إدوارد سعيد بآمال الفلسطينية ، وتتبع حياته مع حياتها : طردها من فلسطين ، هجرتها إلى مصر ، حياتها ، نضالها ، ومنها كان يتعرف على المقاومة ومراحل تطورها ، وأخذ يتابع من خلالهما حياة إيستر ويائيل المولودين فيها ، من مهاجرين إليها ، إنهما مولودان في إسرائيل وحالمان بدولة لا تتحقق أبداً ، ويفقدان الإيمان شيئاً فشيئاً بهذا الحلم الذي لم يختاراه إنما صنعه لهما أجدادهما ، يائيل المؤمن بدولة إسرائيل ، والقارئ لتاريخها ، والعارف بكل شيء في القدس ، بسبب عمله كمرشد سياحي في مكتب للسياحة في أورشليم يتهاوى إيمانه وينثلم بسبب الحرب ، وحين يعود من الحرب يخون إيستر مع سائحة أميركية مثل بطل رواية يهودا عميخاي ، فتنهار حياة إيستر ، وتجد أن كل شيء زائف يحيطها ، كل شيء معرض للخلل والانهيار ، فتريد أن تحب عربياً وتهرب معه ، فتجد أمامها إدوارد سعيد ، السائح العربي لمدينة كان هو يوماً ما هو مواطنها ، كما أنه أميركي أيضا ، مثل عشيقة يائيل ، غير أن العلاقة لا تتماسك إلا بوجود المدينة وأحداثها ، وهكذا يصل الراوي إلى العمق من المدينة ، يصل إلى قلبها ، إلى أعيادها الجديدة ، وحياتها ، يصل إلى حقيقتها ، إلى السرد الموهوم والمفتعل في الرواية الإسرائيلية ، والتي أغفلت وجود أيمن مقدسي وأغفلت وجود أهله .

شيئان كانا يهيمنان على ذاكرته ، قصيدة تنيسون هجوم الجنود الستمئة ، والتي كان يحفظها إدوارد سعيد عن ظهر قلب في طفولته ، ومشهد البار اليهودي الذي تأسس على مقربة من منزل سعيد عند زيارته لمنزله وقد جلس فيه وإستمع لأحاديث عابرة من قبل القاطنين الجدد .

- هنا يصعد الهامشي ويصبح هو الرئيسي .

- كيف؟ أنا قلت .

- ذلك أن الرواية الإسرائيلية هي رواية كولنيالية ، فالشخصية العربية موجودة في الرواية التي تدور أحداثها على أرض أورشليم ، لكنها منفية داخل ذاتها ، وهي غائمة الملامح ، بلا اسم ولا صورة ، بل هي كينونة صامتة ، وهي وهمية ومستبعدة أكثر من كونها شخصية موجودة ومحسوسة ، أما العلاقات التي تنشئها الشخصيات العربية فهي علاقات غير مكتملة ، مبتورة ، ثانوية التأثير ، متوارية خلف الشخصيات الإسرائيلية المؤثرة .

***

في ذلك الوقت أخذ علاء خليل يزورني هو الآخر ، كل يوم تقريباً ، بعد أن أعود من منزل أيمن مقدسي عصراً ، أفتح الباب ، أجد ورقة مطوية كان علاء خليل قد أرسلها من تحت ، يذكر لي فيها بأنه ينتظرني في مقهى «هو وهي» المقابل للمكتبة المركزية ، أو في مقهى حوار القريب من الأكاديمية ، أرتاح قليلاً ، ثم أرتدي ملابسي وأذهب إليه هناك ، كنت أجده على الدوام في اضطراب وتلكؤ كبيرين ، كان يدخن كل الوقت بشراهة كبيرة ، يشرب القهوة باستمرار ، دون أن يأكل شيئاً .

- ألا تأكل . . .

- لأ . . . لأ . . . أنا فاقد للشهية . . .

- ثم يسترسل بحديثه السريع والمتقطع عن العراق الذي سيصبح ألمانيا أو اليابان ، عن العراق الذي سيتحول إلى واحة الديمقراطية في المنطقة ، ستنتهي الحروب مع نشأة الشرق الأوسط الجديد دون شك ، سيعم الرخاء بالتأكيد ، سوف لن يعود العراق مركزاً للحروب والمصائب والمحن ، لن يعود العراق كما كان ، سيختفي الفقر ويزول القمع والاستبداد

واحتكار السلطة وتكميم الناس واحتقارهم . . .

كان يتحدث ببساطة شديدة ، بأمل كبير ، بروح مكتسحة من صورة عظيمة لا يماثلها أي شيء على الأرض ، كل شيء واضح وأكيد ، كل شيء مرتب ومنظم على أعلى درجات التنظيم ، كل شيء موضوع ولا يحتاج لنا أن نفكر ، لقد فكروا كثيراً ، لقد تدبروا كثيراً ، وما علينا إلا أن نعيش ، ما علينا إلا نقبل ، لا نعارض ، ولا نقاطع ، ولا نهرب أو ننعزل ، كل شيء منقوش تحت العبارة التالية :

- اتركوا الناس لتختار . . . ستختار الحرية بطبيعة الأمر . . .

أميركا هي المنقذ ، أميركا هي الثورة الجديدة في العالم ، وبوش هو جيفارا العصر الجديد .

كان يتحدث بحماسة شديدة ، بصوت خافت منخفض لأنه خائف من جواسيس صدام الذين انتشروا تلك الأيام في كل مكان تقريباً ، كان خائفاً جداً ومع ذلك كان صوته يصعد رغماً عنه ويشتد ، كان يحدثني بصورة متواصلة ، يحدثني بأفكاره التي تتوالى رغماً عنه ، فكرة تسبق فكرة ، جملة بعد جملة ، صورة جميلة بعد أخرى : برنارد لويس بطل المطالبة بديمقراطية الإسلام . . . بطل المطالبة بإمكانية الأمم المسلمة في تكوين الديمقراطية . . . رتشارد برل ، بول وولوفتس ، كنعان مكية ، فؤاد عجمي قادة العبور إلى الضفة الأخرى ، إنهم دعاة الوصفة الأخيرة للديمقراطية التي لا تخطىء . . . حيث ستصبح الفيدرالية مستقبل العراق ، وتصبح هوية العراق غير العربية هي المنقذ ، إنها أميركا القادرة على كل شيء ، أميركا القوة والمعرفة والتغيير ، أميركا الثورة مثلما كانت روسيا الثورة من قبل ، أميركا الإمبراطورية العظيمة التي بلمح البصر ستقول للأمر كن فيكون . . . قدر عظيم . . . قدر إنساني كبير . . . قدر سيعم المنطقة برمتها ، لقد صعد نجم العراق . . . لقد بزغ من جديد . . .

والأطفال سيحملون السعف وينتظرون البارجات الحربية وهي تدخل مياه الخليج ، والورود ستحملها النساء للجنود الفاتحين والمحررين . . .

إن الأمر بسيط وسهل وفي غاية البساطة . . . الغبي وحده لا يصدقه أو لا يؤمن فيه :

مجموعة من المثقفين الأميركيين الذين كانوا يؤمنون بتغيير العالم عن طريق الثورة ، تحولوا فجأة إلى مؤمنين بأن الديمقراطية والليبرالية هما اللتان تغيران العالم .

- فكرة عظيمة . . .

- الديمقراطية وحدها التي تجعل أميركا وأوربا وإسرائيل أكثر أمناً . . .

- أمر عظيم .

- نحن لنا مصلحة في هذا وهم لهم مصلحة فيه أيضاً . . .

حسن ستنتهي الدكتاتوريات التي دعمتها أوربا من أجل مصلحتها . . . وستبدأ الديمقراطيات حياتها ، أميركا مختلفة اليوم كثيراً ، أميركا الديمقراطيات ستقطع الطريق على الذين يعتقدون أنها هي المسؤولة ، وبالتالي يهاجمونها أو يهاجمون أوربا أو يهاجمون إسرائيل . . .

ثم سألني عن أيمن مقدسي ، قلت له يكتب الآن رواية عن أورشليم .

فتح حقيبته ، وأخرج كتاباً بالإنكليزية لكنعان مكية ، اسمه الصخرة .

- ما هذا؟ قلت . .

- رواية الصخرة لكنعان مكية . . . كتبها عن أورشليم . . . هذه أول رواية عربية عن القدس .

تناولتها منه وأخذت أتصفحها ، رواية كتبها كنعان مكية ليقول فيها إن قبة الصخرة الإسلامية بناها كعب الأحبار وهو مسلم من أصل يهودي ، إنها صخرة موسى ومحمد معاً! اليهودية والإسلام في كف

واحدة، في قطعة واحدة، وقد جمع مكية القصص والأساطير والاعتقادات التي تعرف الصخرة في القبة المذهبة حيث هبط آدم في سقوطه من الجنة، حيث حاول إبراهيم التضحية بابنه، حيث وقف المسيح في هيكل سليمان، الصخرة التي منها صعد محمد إلى السماء، وحولها إلى قصة ومسرحية، حساب مبني على قاعدة تاريخية متخيّلة، الناس ورحلاتهم الروحية، كعب الأحبار اليهودي الذي أسلم فرافق الخليفة عمر بن الخطّاب في فتحه للمدينة المقدّسة. القصّة مروية من قبل اسحق بن كعب، الذي كلّف بعد سنوات لتصميم النصب الأول للإسلام، قبّة الصخرة.

كنت متردداً بين أيمن مقدسي الذي أزوره كل يوم وهو يكتب روايته عن أورشليم، وعلاء خليل الذي كان يزورني كل يوم ويحدثني عن التغيرات الهائلة التي ستحدث في العراق.

***

بعد أيام اندلعت الحرب، كلمة حرب لا تشبه واقعة الحرب بالتأكيد، وكلمة تغيير نقولها دون ثمن دون شك، والكلام سهل ومعبر ومبهج، لكن الوقائع مختلفة على نحو كلي، لقد انقسم جيلي إلى قسمين متعارضين ومتناقضين، وربما كانت حياة أيمن مقدسي وحياة علاء خليل تصور هذا الانقسام بوضوح، فأيام الحرب كانت مروعة وقاسية جداً، والديمقراطية القادمة لم تكن دون ثمن باهظ أبداً... القتلى يملؤون الشوارع، المجاعة على الأبواب، البنايات تتهاوى على رؤوس ساكنيها، الجيش المهزوم سابح في دمه، والدولة انهارت، والسلب والنهب طال كل شيء في الحياة...

علاء خليل يركض في الشارع وهو يصرخ على الجماهير التي دخلت إلى المؤسسات والمباني والجامعات والمكتبات ومتاحف الآثار وأخذت تحطم

وتسرق كل شيء حتى البلاط ، الجماهير التي هاجت مثل حيوان أخذت تخرب وتحرق وتهدم وتحطم ، وهو يصرخ : لا ... لا ... لا تسرقوا ... كل شيء لكم ... لم يعد يملكه أحد غيركم ... ولكن لا أحد يأبه به ... يصرخ : الديمقراطية قادمة ... السعادة على الأبواب ... تنبهوا ... ولا أحد يفهم ما يقول ... كان يأخذ الورود ويقدمها للجيش الأميركي ... ويطلب منهم التدخل للحفاظ على الممتلكات ، أو الحفاظ على الآثار ، فيقولون له : فك أوف ... كلما يتقدم إلى قوة عسكرية وهو يحمل أوراقه ومطالبه يطلق الجنود الأميركيون النار بشكل عشوائي وينجو بأعجوبة ، كان محطماً ، مدمراً ، يشعر باليأس لكنه لم ييأس ، يشعر بالإحباط والعجز ولكن هنالك أمل قليل ، يشعر بأن كل ما حلم به ينهار دفعة واحدة ، ولكنه لم يتوقف عن الأمل بشيء قادم من بعيد يشعر به ولا يعرف ما هو .

عاد كنعان مكية في الأيام التالية للحرب ، وقد سمع في يوم أنه سيزور مقهى حوار هو ومجموعة من الضباط الأميركيين فهرع لاستقباله ، وبالفعل تمكن من لقائه ، والجلوس إلى جانبه ، والتحدث معه حديثاً طويلاً ، وحين سأله لم حلت الفوضى في العراق بعد التحرير ، قال له لأنه لم تحدث معركة فاصلة مع الجيش العراقي ، فالجيش اختفى فجأة ولم يستسلم ، غير أنه وجد هذا الكلام تبريرياً أكثر مما هو حقيقة ، فلم يكن مقتنعاً بما كانوا يقولونه ... وحين زار بول وولووفتس العراق هرع أيضاً لاستقباله وتحدث معه حديثاً طويلاً ، وكان يشعر به هو الآخر يستخدم كل عدته لتبرير ما حدث معترفاً بالأخطاء دون أن يعرف أن كلمة أخطاء تنطوي على آلاف الضحايا والقضاء على كم هائل من الأمنيات ، وحين زار فؤاد عجمي بغداد هرع إليه أيضاً وحدثه .. وكان يحدثني عن كل شيء ... لم يكن مقتنعاً بما كانوا يقولونه له : أميركا القادرة على كل شيء ، أميركا التي تقول للشيء كن فيكون لم

تستطع ضبط الأوضاع في الشارع ، أخذت قناعاته تهتز وهو يرى المجتمع يتقهقر ، الحياة الحضرية التي حلم بها وهي تتحطم ، الإرهاب في كل مكان يقتل ويذبح ، المليشيات الدينية تطارد حتى الأحلام في المدينة التي تراجعت وتقهقرت ، الحرية ضاقت وتلاشت ، الصحف كثيرة ولكن الكل كان خائفاً ، الحياة أخذت تضيق شيئاً فشيئاً . . . ثم زينب نصري غادرت بغداد وعادت إلى أميركا ، أيمن مقدسي اعتزل العالم تماماً واعتكف في منزله ليحيا حياته بعيداً عن الشارع . . . ليحيا في أورشليم بعد أن مادت الأرض تحت قدميه واهتزت . . .

سقطت دكتاتورية السياسة لكن لم تسقط ديكتاتورية الشارع . . . قال لي مرة وهو حزين . . . حزين جداً .

أما ما أحزنه حقا هو أن المفكرين الذين كان يتحدث معهم وآمن بهم ، يتحدثون عن كلمات ، مثل : أخطاء ، سوء تقدير ، تغيير ستراتيجيات ، نجرب ونرى . . . ولم يكن أحد منهم يدرك كم من المقاساة والمعاناة تنطوي عليها هذه الكلمات .

***

عند زيارتي لبغداد لم أستطع الوصول إليه ، قالوا إنه أخذ يعمل في صحيفة جديدة أول الأمر ثم غادرها ليكتب كتاباً عن العراق ، والبعض قال إنه أخذ يكتب رواية عن كنعان مكية في زيارته اليتيمة لبغداد على غرار رواية أيمن مقدسي عن إدوارد سعيد وهو يزور أورشليم ، غير أني لم أستطع الوصول إليه أبداً ، كانت لدي رغبة حقيقية في قراءة ما كتب ، ومعرفة أفكاره ، هل تغيرت أو تحولت ، هل ما زال مؤمناً بأفكاره السابقة ، غير أني لم أستطع الوصول إليه ، أما أيمن مقدسي فقد رأيته بطبيعة الأمر ، وجلسنا ذلك اليوم على تخت المقهى ، غير أنه لم يحدثني بشيء مهم على الإطلاق ، وقد كان متعباً ومرهقاً تماماً ، وقد شرحت في مقدمة هذا

التقرير كيف حملني أوراقه على أمل أن يأخذها مني في اليوم التالي غير أنه اختفى . . . وهكذا وضعت أوراقه في مكتبتي ولم أعد إليها مطلقاً .

***

بعد عام تقريباً من هذا الحدث جاءني صوت زينب نصري مختنقاً على التلفون :

- هل تعرف . . . مات إدوارد سعيد .

شعرت بحزن كبير ، شعرت بأن الأرض مادت تحت قدمي وتخلخلت ، لقد تذكرت تلك الأيام التي عصفت بنا : نظريات إدوارد سعيد وأفكاره ، صوره وكتبه ، مقالاته ومناظراته ، حروبه وانتقاداته ، لقد كان سعيد يمثل ما كان يمثله كارل ماركس للجيل القديم ، وسارتر نسبة للجيل الستيني في العراق ، وكان يمكن أن يكون أكبر بكثير لو لا التحولات السريعة والمتلاحقة ، ولو لا خلو أفكاره من الرموز والشهداء ، لقد تذكرت علاء خليل الذي خفت صوته كلياً ، وتذكرت صديقي الفلسطيني أيمن مقدسي الذي اختفى في ظروف غامضة ، وكانت لدي رغبة شديدة ذلك اليوم بأن أراه وأتحدث معه .

عدت إلى المنزل ، وحين دخلت الصالة ، ذهبت بشكل لا شعوري إلى كيس الأوراق الذي حملني إياه أيمن مقدسي عند زيارتي الأخيرة لبغداد ووضعته على طاولة المكتبة ، أخرجت مخطوطة روايته ، كان مكتوباً على الصفحة الأولى « مصابيح أورشليم : رواية عن إدوارد سعيد» ، وكان برفقتها الكثير من الوثائق والأوراق والصور والرسائل والملاحظات عن إدوارد سعيد وعن القدس ، وأخذت أقلبها بشكل سريع ، بعد ذلك تركتها على الطاولة ساعة أو ساعتين وذهبت إلى سريري ، غير أن النوم فارقني كلياً ، فعدت مرة أخرى إلى الطاولة ، جلست ، فتحت الكيس الكبير ، تصفحت الأوراق ، تصفحت الصور والكاتلوغات ، وأخذت أقرأ

الاقتباسات ، فشعرت براحة كبيرة . . . شعرت بأمان وسلام كبيرين حطا على صدري وأنا أتصفح أوراقه ، لقد زال الحزن الذي كان يعصر قلبي بسبب موت إدوارد سعيد تماماً ، تنفست الصعداء وغرقت تماماً في الأحداث التي تشكلت أمامي ، وأخذت أقرأ دون أن أشعر بأي شيء يحيط بي ، لقد فقدت الشعور بالمكان تماماً ولم أعد أشعر بالوقت أبداً ، كنت أصعد وأهبط من مرحلة في التاريخ إلى مرحلة أخرى .

إن تجربة نفيي المشابهة لتجربة أيمن مقدسي هي التي جعلتني أشعر بهذه الراحة ، فبعد فقدان الأمان والخلخلة التي يصنعها المنفى ، يبحث المقهور عن مكان ولو كان هذا المكان وهماً أو تجربة شعورية لا غير .

***

لقد استعدت ذلك اليوم عن طريق أوراقه تجربة مشابهة ، وهكذا تولدت لدي فكرة . . . كلما أشعر باغتراب حقيقي وأسى أعود لهذه الأوراق كي أقرأها ، فقلت : لم لا أوحد تجربة نفيي مع تجربة نفي أيمن مقدسي وأجعلهما في نص واحد .

كنت أشعر بتوحد فكرة كل منفى . . . كل منفى يشبه المنفى الآخر ربما يضيف عليه ويزيده ، ولكن لا ينقصه ، وهكذا بدأت أستعيد هذه اللحظات بقوة وفاعلية كبيرتين ، فقلت في نفسي طيب لماذا لا أستعيد هذه التجربة بالقوة والمقدار من تجربة أيمن مقدسي ، لماذا لا أكون أنا في محله طالما أصبحت أنا في المحل تماما من موقعه ، وهكذا بدأت بكتابة هذه الرواية ، وأضفت ملاحظاته إلى نهاية الكتاب ، أضفت كل هذه الأنسكلوبيديا التي جمعها هو عن كل ما يخص القدس ، كان دوري في الكتاب ثانوياً تماماً ، دوراً هامشياً ، أما الرواية والتي بدأها بمشهد إدوارد سعيد ويائيل وإيستر فقد أشعرتني بأنني الذي كتبتها ولكني في الحقيقة لم أكتبها ، إنما كتبها هو .

-٢-

إنها أورشليم يا آنطي ميليا

(كل شيء صامت حول هذه المدينة ، كل شيء أخرس)

الكونت دو فوربان

رحلة إلى المشرق في العام ١٨١٧-١٨١٨

Voyage dans le levant

«بينما كان الأمراء يسألون الأهلين
عن الطريق . . .يسألونهم كيف الوصول
إلى أورشليم بطريقة سهلة وآمنة . .»
Version of Raymond
d'Aguiliers 1077

التفت إدوارد سعيد إلى يائيل وهو يقرأ الخريطة ، كما لو كان يقرأ نص رايموند دغليير من القرون الوسطى وقال له : «هل وصلنا . . . ؟»

«موردوخ ، رحمو ، دارنا ، هسبيحيية ، جاوتشو ، جحنون بار ، فاشا ، فارمطة .

وأشياء أخرى» قال يائيل .

«مطعمٌ أمي» . . . قالت إيستر .

هذه حوتسوت هاعير ، هذه أسطورة السوق المفتوحة الكائنة في قلب أورشليم .

«أسطورةٌ أورشليميةٌ» قال يائيل . . . قال وضحك وهو يعدّل جاكتته البيضاء وربطة عنقه الحرير . شارع واحد . . . أشياء مبهجة . . . روائح مسكرة . . . وأجواء ساحرة أليس كذلك؟ شارع واحد قرب اليهودي العجوز

الذي يجلس على كرسيّ من البامبو كي يقرأ الجريدة ويضع عكّازه على الأرض ، قرب متشيل الصغيرة التي تلتقط حبات العنب وتضعها في الطنجرة ، قرب رجل الهاغانا القديم ، الرجل الذي تقاعد من وظيفته منذ زمن ، وها هو يتخاصم كل صباح مع بائعة السجائر من أجل شيكل واحد .

جلس إدوارد سعيد على مقعد خشبي في المطعم وهو يرقب المارة ، تذكر الطفلة وهي تنام . . . وجهها متوردٌ ، وخصلةٌ من شعرها الأشقر تنساب على خدها . تذكر عالماً كاملاً في المدينة القديمة موضوعاً على مقاس صفحات كتاب ، وأم الطفلة تضع مفتاحها في مظروف مع مفكرة غلافها أخضر اللون . علبةٌ جلديةٌ فيها قفلٌ صغير . كيسٌ من الجوخ خاطته ووضعتْ به حفنةً من التراب وخاتمين فضيين . . . وها هو في المكان ذاته ، في شارع مئير جرشون ، أو في شارع هلل ، أو في حي الطالبية وهو يبحث عن شيء قديم . . . عن شيء ضائع . . . كان يمكنه أن يسمع رعدة الحمى في أوصالها ، وقطرات الجليد الذائب وهي تقطر من السور ، سماءٌ شاسعةٌ سوداء تومض فيها نجومٌ باردة ، أشجارٌ ترتفع بهدوء تحجب غيمة فضية ، وعندما يأتي الليل ، يعزف الناس موسيقى الكلام على صفارة الحارس وعلى نباح الكلاب في المخيمات البعيدة . . . وها هو الآن في مطعم قريب جداً ، يجلس تحت مظلة مخططة ، أمامه بقعة من الضوء تستريح على مائدةٍ من خشب البلوط . إناء زجاجي تسبح فيه ثلاث سمكات حمراء ، زهرات الزنبق تزين الواجهة . ويائيل يصرخ في الفضاء الساكن ، يصرخ تحت السماء الخفيفة اللون ، والمبقعة بالغيوم . يصرخ وهو يمشط خصلات شعره الأسود بأصابعه النحيلة :

مادرحوب بن يهودا . . . مادرحوب بن يهودا . . هل تأتون؟

– كل مساء من الساعة السادسة إلى الساعة الثامنة . . تعالي عندي في السبت على الأقل . . . تعالي عندي في الويك أيند . . . في الويك أيند

يا أنطي ميليا . . . سأراك أليس كذلك . . . ضحك بصوت عال فالتفتت الفتاة العارية الزندين والتي كانت ترتدي بنطلوناً وردياً يلتصق بمؤخرتها . . . التفت ثلاثة سياح هناك ، كانوا واقفين أمام الخريطة يؤشرون بالقلم الرصاص على مواقع الطواويس والغزلان ، يؤشّرون على قرود الحديقة التوراتية ، يؤشّرون على قبور الآلهة في الضوء الخافت الذي ينير الزوايا المظلمة من الشارع ، بينما كان المنعطف المظلم والضيق يقود إلى طريق الملك .

- هذه هي الطريق التي سار فيها الملوك ، والقضاة ، والأنبياء . قال يائيل .

- هذه هي الطريق التي سار فيها الجنود والتجار والكولنياليون . . . قالت إيستر .

هذه طريق الحديقة التوراتية . . . هذه الطريق المسيجة بالخشب والحديد ، هذه هي الحديقة التوراتية التي شيدها إهرون شولوف في العام ١٩٤٠ في شارع هراب كوك ، هذه القرود والغزلان والطيور والأسود طالعة من تأمل صامت ، من بانوراما صاخبة في أحلام يعقوب ومن آثار الله المرسومة على الأرض . . . هذه الحديقة التوراتية التي تنقلت مع الحروب والمجاعات من شموئيل هنفيه إلى هارهتسوفيم . . . هذه حرب الاستقلال في حديقة الحيوانات التوراتية . . . حرب حيوانات الله التي عانت كثيراً ، عانت من إصابات البنادق ومن الجوع . . .

- حتى الحيوانات لم تسلمْ من الموت . . . قالت إيستر .

-إنها حرب الاستقلال . . . وقد ضحّت الحيوانات التوراتية من أجل إسرائيل . . . قال يائيل .

كان إدوارد يتذكّر الطفلة التي ترقب الحديقة التوراتية تكبر وتتسع . . . ترقبها من فتحة في سياج الدار التي تضيق وتتلاشى .

***

ها هي الطفلة تكبر . . . ها هي الطفلة تكبر . . . وإدوارد يرقبها وهي تزور عمته نبيهة في منزلها الكبير في حي الزمالك في القاهرة . . . ها هي الطفلة تكبر وإدوارد يرقبها جالسةً وسط أناس آخرين ، كانت تتوسط لاجئين جاءوا قبل الظهر بقليل .

آمال وسط استقبال القاعة الغارقة في الظل ، كأس الشاي الساخن أمامها ، وفي الخارج طريق معبد مسوّر بالأشجار ، وسماء بيضاء كاللبن ، كانت تلتقط بين أهدابها الطارقة سطوع الشمس من النافذة ، والحر المتعدد الألوان في صيف القاهرة .

إنها جالسة هناك . وفي الخارج كانت زحمة شارع فؤاد وضجيجه تملأ المنزل : محطة شركة شل ، بقالية فاسيلاكيس اليوناني ، أزياء الأرمني . . . آمال غارقة في خيالاتها ، ومستندة على أريكة مريحة ، وفي عينيها نظرة غامضة ، نظرة متواطئة لإغوائه . . . فيزداد إدوارد اقتراباً منها .

كانت العمة تتحدث بصوت رخيم . . . بصوت متقطع وهي تسألهم عن أحوالهم ، بينما كان إدوارد جالساً إلى جانبها تشجعه ابتسامة خفيفة من فم شهوي ، تشجعه ابتسامتها حتى تصبح ساقه لصق ساقها .

حبٌّ فائق الوضوح يجذبها نحوه ، تتقرب منه وعيناها ترقبان الصالة في قاهرة العام ١٩٥٠ ، صالةٌ غريبةٌ ، صالةٌ مبهجةٌ يتراقص فيها غبار الطلع الذهبي . . . وهي قادمةٌ من شوارع تقطنها النساء بالفساتين المشجّرة ، والملايات ، والسيقان الغليظة ، والشكربينات القماشية ذات الكعب المنخفض . شوارع يقطنها الشحاذون ، واللاجئون ، والعتالون ، والفراشون ، والشغالات . شارع يملأه عمال اللوكوندات ، والجالسون في المقاهي من عربجية وحمالين وهم يشفطون الشاي الأسود ويقرقرون بالنراجيل .

شقةٌ واسعةٌ . . . ورجلٌ كبيرُ السنِّ يطأ رخام الصالة ، وفي المدخل المسوّى بالخشب المنقوش ، زهرةٌ مرسومةٌ في ظلمة البعد ، نورٌ باهرٌ يسقط

من النافذة على الرجل العريض الكتفين وهو يخلع الطربوشَ ويناوله مع عصاه للخادم الواقف لدى الباب . . . رجلٌ يسير بخطى منتظمة نحو مشربية مشرعة ، والكل يتابعه بنظراته ، بينما إدوارد مشغول بساقه التي تلامس ساقها .

***

سار إدوارد أمام فندق داوود القديم في ظهيرة الصيف ، وردٌ منثورٌ على وادي قدرون ويهوشعفاط في الصباح ، وردٌ يسقط كغطاء فضيٍ من السماء فيخّيم الهدوء . كل شيءٍ يتوهّج في الهواء الهابّ من الساحة المقابلة للمسجد ، كلُّ شيءٍ يتوهج في المدينة القديمة . أرض أورشليم تغفو مثل امرأة تتمدّد على محفتها القديمة ، مثل أرض تخلع رداءها الورديَّ في نهار مطرٍ . . . حفنةٌ من الطباشير بيد يائيل ليؤشّر بها على خريطةٍ موضوعة على الجدار ، حفنة من الطباشير بيد إيستر وهي تضع معصمها على كتفٍ كرسي منجد ، ويائيل يعيد شرشفاً أبيض فوق المائدة ويلفّ الخريطة بيد ، ويمسك صحن العنب الأسود باليد الأخرى ، ويقول :

«من هناك تبدأ رحلتكم التوراتيةُ . . . تبدأ من قلب أورشليم ومن مصابيحها الفضية» . . . يقول ذلك ويمنح الجالسين بالقرب من السور ابتسامة سريعة .

- هل وصلنا الطريق؟ قال إدوارد وهو يقف على الرصيف مقابل فندق داوود .

فندق قديم في العام ١٩٤٨ . . . فندق من الحجر القديم ، صالة واسعة فيها أرائك مريحة وسياح بريطانيون ، غرف تتوهج بيد ابراهام شتيرن ، وثلاثة من إتسل يرتدون أقنعة سوداً ويقفون قرب الجدار الملتهب ، إعلان سياحي على الجدار ، إعلان آخر باللغة الإنكليزية يحظر التجول في الليل ، وصورة لجوبتسكي وهو يحمل السلاح بيده ويقول :

بالسلاح فقط سوف نبني دولة عظيمة . . .

صورة لموسى وهو يشق البحر الأحمر ويقود شعب إسرائيل إلى فلسطين . . . صورة أخرى . . . صورة غير واضحة تتباين ألوانها خلف الضباب . . . صورة امرأة شبه عارية تؤشر على الطريق التي تقود إلى ملهى رحمون . . . كتاباتٌ ممحوةٌ وأخرى مرسومةٌ بالصبغ الأحمر . . . شيءٌ ما غير واضح عن فلسطين . . . وعند البحر تتكسّر الأمواج على الشاطئ ، رملٌ يصل البواخر من أماكن بعيدة وهي تبرك على الشواطئ في السرّ ، ريح قوية تكسر الصمت في الأرياف وتشير إلى سر جاثم بين الصخور ، كل شيء يفضي إلى الشعاب . . . حيث الرجال يتحفّزون كلما تقدم النهار ليجابهوا الحجارة والصمت معا . . .

***

وقف إدوارد في المدى الأبيض حيث تتحرك غشاوة فضية من الأرض ، تتحرك وتعلو إلى سماء مبقعة بغيوم خفيفة . هذا مدى أورشليم الساكن حيث تتحرك ضوضاء السوق ، ضوضاء قادمة من حارة اليهود أو من السوق القديم . ضوضاء قادمة من خان الزيت ، أو من سوق الدباغة . ضوضاء تختلط فيها الروائح مع الأصوات مع الناس مع المحلات الصغيرة المكتظة . باعة وراء القدور والطاسات ، باعة وراء الأقماع اللامعة ، ورجل سمين ينحني على كأس الفريز دون أن ينظر إلى أحد :

«ابحثوا عن الأخضر . . . ابحثوا عن الأخضر . . . هذا مادرحوب بن يهودا أورشليم ، ومساره الأخضر» .

عشب أخضر ، مادرحوب نظيف ، زقزقة عصافير ، ببغاوات ملونة ، عروض بهلوانية ، ألعاب نارية . . . كلوا من منصات الأطعمة ، اشربوا من بوفيه النبيذ والبيرة المثلجة ، كلوا من الفواكه والخضار الطازجة ، اشربوا من الشاي الأخضر ، ابحثوا عن الأخضر .

يجلس إدوارد هناك في المكان ذاته، في مطعم ترابيت في شارع هلل، ينظر إلى المارة في عيد حتسوريت، كما لو كانت هناك حفلة لموسيقى يونانية.

يجلس إدوارد على المقعد الجلدي ذي المساند الخشبية، وقد وضع يديه على الطاولة النظيفة أمامه، أرخى جسده تماما وهو ينظر إلى السابلة تحت النوافذ الخشبية التي تنبعث منها روائح مطفئة. أرخى جسده وهو ينظر إلى الخارجين من فندق قديم بوجوههم البيض ونظاراتهم البولرايز، أرخى يديه وهو ينظر إلى الفتيات الشقراوات شبه العاريات أمام أوتيل حديث يشبه أوتيل الأميركان كولوني... استراح وهو يسمع أغنيةً مقدسيةً تنبعث من مذياع قديم:

«دامتْ عينكْ يا عابدْ ... باني بيتكْ ع الدربينْ ... يلّلي قهوتكْ بتدورْ ... وفناجيلك ع الصفّينْ» ...

أصحاب الحوانيت يقفون وسط البضائع وعيونهم تذهب يميناً وشمالاً، بعضهم كان يجلس على كرسيٍ من الألمنيوم واضعاً ساقاً على ساق، متأملاً الزبائن والمارة، وآخر كان يسحب أنفاسه من النارجيلة ويطلق دخانها ببطء في الهواء، وآخر جالس خلف محفة خشبية ينظر إلى أجساد النساء التي تمر أمام بقالته ...

طقس بارد ولذيذ، طقس منعش يتحرك في اللون الأرجواني عند مدى البصر، روائح في الهواء الجاف تنبعث برقة، وحرارة رطبة تتسرب إلى باطن حذائه، هبات متسارعة قادمة من السوق تضرب وجهه، هبات هواء منعشة تهب على ازدحام الظهيرة المرهق في تلك الساعة ... شوارع المدينة القديمة امتلأت بحشود الناس ... وعند السور القديم كان السياح يسيرون على الآثار القديمة للآلهة ... حيث أجهش النبي بالبكاء تحت ظل شجرة.

قال يائيل : سنحلم أحلام يعقوب في ظل ضجة النجوم العذبة . . . سنحلم تحت رنين الإمبراطورية الخالية من ميمون .

باعة ، سابلة ، سياح ، رجال ، نساء ، شوميير يسيرون متفرقين مع عوزياتهم المدهونة وبناطيلهم الكاكية ، روائح فاكهة مسحوقة على الأرض الإسفلتية ، رهبان يمسكون المجامر الفضية ويحرقون حفنات البخور . عصافير الدوري تتسكع بمرح على الأرصفة المغسولة ، باصات المدارس الصفر تمر أمام المطاعم ، حيث يجلس فيها الطلاب بيضاً ومنضبطين ، ومن الجهة الأخرى كان زحام المارة والسياح الأوربيين بملابسهم المميزة يتسع شيئاً فشيئاً ، ورجال البوليس يقفون هناك . . . أمام مداخل المدينة ومخارجها وكأنهم يتهيئون لاستقبال الملوك . . .

- هناك مشترا وشوميير كثير . . . يفتشون العرب الداخلين إلى السوق . قال يائيل ليطمئن السياح الأجانب وهو يشير إلى المخسوم .

رجال البوليس يفتشون بناطيلهم وجاكيتاتهم وسلالهم وأكياسهم . . . وهم يضعون العوزي على أكتافهم . . . وإدوارد يستمع لبيت من الشعر قديم :

يا أطفال أورشليم . . . إني أتّهمكم يا أطفال أورشليم . . . وألعنكم لأنكم مخربون .

سار السياح إلى جانب إدوارد في زحام الظهيرة وهم يتفحصون أحجار أورشليم ، يتفحصون مطاعمها التي تتهيأ لاستقبال متناولي الغداء ، يتفحصون الندل بمرايلهم البيض وطاقياتهم وهم يجيبون على الطلبات ، يتفحصون الشارع ببوتيكاته المفتوحة وأرصفته الحجرية التي تنبعث منها رائحة قديمة .

يتفحصون أبواب أورشليم : باب العامود ، باب الزاهرة ، باب الخليل . . . بعضهم كان يتمدد في الشمس ، وآخرون يبحثون في قرميد

المداخن عن اللقالق . . .

- هل وصلنا ؟ قال إدوارد وهو ينظر إلى الرجل ذي القبعة الكبيرة ، والبنطلون الفانيلا ، والجعبة الكاكية ، والحذاء المثقوب . . .

- هل وصلنا؟

نظر إليه وهو يسمع صوتاً ضعيفاً قادماً من البرية ، صوت نساء أخريات يبعن في السوق أو يحملن الأسمال في ملاءات وصرار ، صوت جديد ، صوت يشبه صوت يهودا عميخاي وهو يقول :

كل الأجيال التي سبقتني منحتني شيئاً فشيئاً كي أقيم هنا . . . منحتني شيئا كي أقيم في أورشليم . . .

كل الأجيال منحته مكاناً ليقطن به ، مكاناً قريباً من الطالبية أو من القطمون . . . صيحة حادة . . . صوت مكتوم . . . وطء ماعز جبلي ، الشوارع الكبيرة في أورشليم يخنقها الغبار ، وكلما يتقدم النهار تتحول السماء إلى لون بنفسجي . . . ريح وشمس ساطعة وخرائب ومساجد وكنائس وقبور . . . مدينة ميتة تنتهي عند طريق طويل متعرج . . . تساءل إدوارد ذلك اليوم وهو يتفحص ساعته : إن كان السيد عميخاي يعرف آل الدجاني من قبل؟ أو يعرف آل وديع؟ أو يعرف بيت خوري؟ . . . إن كان السيد يذهب إلى حارة الأرمن : أو يذهب إلى كنيسة مار يعقوب - أو إلى المتحف الأرمني ، أو إلى حارة اليهود ، أو إلى الكاردو ، أو إلى هحورفا؟

كان يتساءل إن كان يذهب إلى البيت المحروق ، أو إلى الحي الهيروداني ، أو إلى حائط المبكى ، أو إلى حارة المسلمين ، أو إلى سوق القطانين ، أو إلى سوق اللحامين؟

إن كان السيد قد ذهب مرة مع أمه إلى سوق الدباغة أو إلى خان الزيت . . . أو صعد مع والده طريق الآلام . . . أو سار في حارة النصارى ، أو جلس على مصطبة في ساحة الموريستان قرب الكنيسة اللوثرية ، أو نام

في ساحة النافورة . . . ؟

هل كان يعرف القدس القديمة؟ هكذا تساءل إدوارد وهو ينظر الطريق الطويل المزدحم بالمارة .

ها هي القدس تمنحه صورة أخرى :

صورة ثيودور هرتزل بلحيته السوداء ، بقبعته العريضة على رأسه ، بجاكتته السموكن الطويلة ، بقميصه الأبيض الأنيق ، وهو يقف وسط حشود من الرجال الذين يرتدون البذلات والقبعات السود على الرأس ، يقف وسط الوجوه العابسة الرصينة المنتظرة ، وقد غطتها اللحى الفاحمة . . . وقف بينهم وهو يصرخ :

سنصبح طليعة الأوربيين وسط البرابرة ، سنكون هناك أوربا في وجه آسيا . . .

هيرتزل يصرخ بأعلى صوته . . . هيرتزل يصرخ وتعيد أركان المدينة الأربعة صدى صوته منذ أكثر من قرن ونصف تقريباً . . . حيث إدوارد يقف في المكان ذاته . . . يقف لا ليسمع الصوت فقط بينما تتحلل صورة المدينة في عينيه شيئاً فشيئاً . . . يقف لا ليسمع الصوت فقط إنما لينظر الكولنياليين وهم يرمون المدينة من جهة الشرق ومن جهة الغرب ويجعلونها غريبة على الساكنين الأصليين . . . إدوارد يقف في المكان ذاته تقريباً ، في المكان الذي وقف فيه هيرتزل قبل قرن ونصف تقريباً ، عندما أخذ يصيح : سوف لن نلتقي باليهوديات فقط في هذه المدينة القديمة إنما سنلتقي بالأوربيات الماجنات أيضاً . . .

هرتزل هناك . . . هرتزل واقف منذ القرن ١٩ في المكان ذاته الذي يقف فيه إدوارد ، وحفنة من التجار والكولنياليين والمضاربين والسماسرة والمؤمنين والجنود والحاخامات والعاهرات يبنون المدينة الجديدة على أنقاض مدينة سابقة . . . حفنة أخرى تعمر المقاهي ، والأوتيلات

الضخمة ، وفي الطريق عمال يمحون عن الشوارع لونها المحلي . . .

نظر إدوارد إلى امرأة ترتدي الملابس الكولنيالية : الخوذة ، والبنطلون المنفوخ من الفخذين ، والحذاء الجلد بالرباط العالي . . . وجهها متورد تحت الشمس ، عيناها الزرقاوان تومضان . . . نظر إلى المدى الممتد أمامه من جهة الشرق . . . وفي الطريق إلى القدس كان ثمة فنانون يغيرون الأسيجة وجدران البنايات . . . وصوت قادم من بعيد ، صوت يرعش الدم في العروق :

- ارسموا على الجدران . .ارسموا على الجدران هذا ليس سوق محانيه يهودا . . . هذا شارع اجريباس . . . هل تعرفونه؟

رسومٌ هنا . . . صورٌ ملونةٌ هناك . . . صورٌ عديدةٌ تغزو المكان من وحي سوق محانيه يهودا ، صور من وحي قصصه القديمة ، صور من وحي وجوه باعته ، قصص رسمت على جدار منزل كبير في شارع اجريباس . . . وفي الطريق رأى إدوارد فنانين يرتدون البناطيل الجينز والتيشيرتات يستوحون قصص الباعة ووحي السوق ويرسمونها على الجدران ، رأى نساء أوربيات قادمات من بولونيا وكييف يلصقن صوراً بمحاذاة مدخل مركز دابيدسون ، ينحنين قليلاً فيظهر جزء من مؤخراتهن . . . رأى شباباً يرسمون في ساحة حائط المبكى . . . يرسمون مغمضي العيون تحت الشمس الساطعة . . . يرسمون غابة من الألوان على الجدران السميكة المصمتة . . .

صور حياة نابضة ، صور متعددة الألوان في شارع من شوارع أورشليم قبل ١٥٠٠ عام ، لوحة عن الكاردو ، وقد ركب المسافرون الحمار ، رأى عربات ديليجنس وهي تقتحم المدينة المحاصرة . . . بينما يقف رجل بشاربه الخشن ، وابتسامته الطالعة ، بعينيه الغائرتين تحت جبهته التي لوحتها الشمس . . . خائفاً وهو يربط عنان جواده في المؤخرة .

***

الليل ومنازل الليل ، بشارعه القديم ، بمدينته الميتة ، بنوافذها المضاءة بالمصابيح ، بأشكالها الجنائزية المختلفة ، بآثارها القديمة المتنوعة ، بلهجاتها العديدة ، بأزيائها الملونة : برانص ، جلود حيوانات ، قوارير ماء الورد ، ستر مطرزة بالكشاكش ، بابوجات مشذرة ، راقصون ، مواخير تركية ، سجاجيد ثقيلة ، أنطقة حرير . . . كلها تختفي شيئاً فشيئاً في ظلام واسع يمتد أبعد من مدى الأبصار ، يختفي في غور بعيد بارد ومنطفئ . . . ويبرز الملهى في شارع المراقص . . . أضواء خافتة ، راقصون يتمايلون على الإيقاع ، ويترنحون في أوضاع شبقة ومخدرة . . . هلوسات معربدة ، ومنهكة . . .

- هل ندخل مسرح جرار بخار في شارع ليو موديل بتسلئيل؟

- هل نذهب إلى عين يالو . . . ؟

توقف إدوارد فجأة هناك . . . توقف عند نبع ماء في وادي ناحال رفائيم ، وأخذ يرقب العين الدافقة التي كانت تسقي المزارع الموجودة منذ الحقبة الرومانية ، حديقة تبرز بفخامة فسيفسائها إلى جانب الحمام القديم . مطعم بعيد . . . شارع معبّد بالإسفلت وآخر يغطيه التراب . . .

- هل تعرف روندفو الزهراء الذي يقدم مأكولات شرقية وغربية . . .

- هناك مطاعم أخرى . . . هل تذهب إليها؟

رجل يقف في الباب على رأسه قبعة الطاهي البيضاء يقدم لهم لحم الجدي والشاي . صحفيون من ايدعوت إحرنوت يصورون المكان . . . امرأة ترتدي بنطلوناً ضيقاً تعلن عن سهرات أسبوعية فولكلورية في مطاعم قريبة من البلدة القديمة . . . وها هو إدوارد سعيد يتمشى أمام بنك هبوعليم . . . يتفحص ما فوق الأشجار . . . ويتفحص ما تحت الأحجار أيضاً . . . حارة قديمة ذائبة تحت البناء الجديد . . . شيء ممحو وذائب . . . شيء خفيف يتفحصه بتمهل لذيذ وببطء كامل ، كأنه يكتشف امرأة للمرة الأولى ، يتفحصها بعينيه المشتهيتين ويتحسسها بيديه . . . كما لو كان يتحسس

جسد امرأة جميلة تحت غلالة شفافة من حرير .

***

هنا أورشليم . . .

هنا أورشليم . . . وهناك الحديقة التوراتية . . .

هنا أورشليم . . . وهناك الأسد الذهبي ونمر الثلج وقردة السيانغ ، وهذه الحيوانات الإسرائيلية : النسر واليحمور . . . بينما ضاعت فلسطين في المدى الممتد من تحت السلوان . . . منازل قديمة ، شوارع مغبرة ، أزقة رطبة يجلس على أرصفتها باعة الكتب الدينية والتذكارات ، أطفال نائمون على أكتاف أمهاتهم عند المخسوم ، شحاذون يشبهون التماثيل اليونانية يتململون ببنطلوناتهم الوسخة استعداداً ليوم طويل ، أسواق مزدحمة بالناس ، ضجيج ينسي العشاق التائهين فرحة الموسيقى التي تهب بعذوبة من المقاهي على الرصيف . . . عمال بسواعد معروقة يقفون بالدور ليدخلوا القدس الغربية ، صيادون من يافا يبيعون السمك الذي يلبط في السلال ، معلمون يشربون الشاي ويتحدثون بصوت خفيض ، زبالون يتيهون في الحدائق ينظفون المصطبات ويلمون الحشيش . . .

وحارة النصارى مثلما كانت أبداً : روائحها ، وعالمها ، وفراشها ، وعرق ملابسها ، ومناخها الحار المفعم بروائح الراهبات .

***

سار إدوارد من باب الخليل متجهاً يميناً صعوداً إلى حي الأرمن باتجاه الجنوب ، وقبل أن يمر من مكتب البريد ، تنشق رائحة الرطوبة النائية ، فضيق عينيه بسبب الطراوة الصيفية العذبة للمكان .

وقف يائيل إلى جانبه وهو يشير له نحو الأبنية الغارقة في الغشاوة المتحركة ، ومن الجهة الأخرى كان مدخل قلعة داوود منتصباً : الحجارة البيضاء ، الرطوبة المتجذرة في الشقوق ، ثم مركز شرطة المصرارة بجداره

المصمت وبوابته الحديدية . وحين يقترب من المدخل ، يدفعه التيار إلى آخرة الزقاق .

حشود مثل مستنقع تحاصره من كل جانب . يحاول أن يتقدم : أحذية موحلة ، سراويل مدعوكة ، معاطف ، أذرع ، سيقان ، وجوه مصابة ، ضامرة ، منهارة بشكل غير محسوس . . . قال الشومير لرقيب قادم نحو المخسوم :

- مشلومخاه . . . ما هاشاعا . . .

- شمونيه . . .

فلاح قادم من قرى أورشليم القريبة يتحدث من كابينة الهاتف :

- كيفك ياباه كيف صحتك إنشاء الله تمام . . . أمك هاي جنبي . . . مقلتلكش أنا . . . مش أخوك عماد استشهد في الحرم . . . آه يا ياباه بس جنازته . . . إي نعم همه وكعو أربع خمس مرات . . . إحنا الحمد لله فوك الريح . . . خالك ياباه . . . مهو أكل رصاصه فعينه . . . بس إحنا ياباه فوك الريح . . . ماقلتليش ياباه مرتك طبختلك الملوخيه بالسمك . . . الله يكرمك . . . والله أختك نادره طبختلنا إياها امبارح بتشهي . . . هو أنا مقلتلكش ياباه هي أختك هيها مرميه جنبي هي وأولاها السبعه مش الكت . . . بس إحنا ياباه فوك الريح . . . هو أنا مقلتلكش ياباه . . . صاروخ خش من الشباك وأخد معاه السكف وطلع من الباب الثاني بس إحنا ياباه فوك الريح . . .

***

نسيم يتحرك ويحاصر أعلى المدينة ببرودته اللطيفة الرطبة ، هواء ساكن شفاف ، موجات باردة زاحفة ، عطر امرأة عابرة يضوع ، عطر ياسمين ممزوج بروائح شهوتها ورغبتها وهي تتكئ على ذراع صديقها الأسمر . . . يسمع صوت امرأة تنتعل خفين تصعد الدرج ثم تمشي في الرواق ، صوت يهاجمه ، صوت قادم من بعيد ، صوت قادم من البرية

يقول :

من هذه البدينة ذات الأسنان الذهبية والسروال الداخلي الفيروزي تصعد الدرج بالخفين؟

من هذه التي خلعت ملابسها أمام أسلحة داوود وتعرت في الصالة المظلمة؟

قبلة مناسبة في الضوء الباهت . . . قال رجل تذوب ملامحه وتتلاشى بسبب الظلام .

هل هذه هي إيستر؟ إيستر التي نمجدها بعيد المسخرة؟

أصبحت حرة . . . قال يائيل . . . وبعربية ممزوجة بلكنة يهودية قال :

«ما في مردخاي بن يائير عم بيضحي بإيستر حتى ينقذ اليهود من هامان . . . .»

أزقة نظيفة تؤدي إلى السوق ، وباب العامود لا يحمل تمثال القيصر إدريان . نشالون يتسكعون عند مفارق الطرق . كلاب نظيفة بأعناقها سلاسل ذهبية رفيعة تسير قرب مطعم مردوخ . وعند أنقاض الأسوار قرب باحة أحد المساجد رأى الطيور تلقط الحب الموضوع في آنية من البورسلين . كان الزقاق الصغير يربط الشارعين الكبيرين بميدان المدينة القديمة ، ويخترقها ، وكان هنالك سائح يتحدث مع يائيل .

- لقد حلّت الباصات محل البغال أليس كذلك؟
- الممرّ من هناك من عند الشومير الذي يحمل العوزي عند المخسوم .
- سيّارات تمضي بأقصى سرعة من شارع هلل .
- لقد التحقت قناديل الغاز وظلالها المتراقصة بالتاريخ .
- طنين الباصات ولا نباح الكلاب .
- صوت يافا ياركوني وهي تغني بدلا من صوت أم كلثوم المنبعث من مذياع قديم في المقهى .

اطلب الشوربة اليهودية فهي لذيذة جداً . . . هذه كأسك وهذه كأسي . . . انتباه . . . انتباه . . . لطلب وجبات مختلفة متضمّنة في المنيو عليكم الانتظار قليلاً . . . صلصة تاباسكو أوصيناك أليس كذلك . . . ليمون . . . ماء بارد . . . الوجبة الرئيسية استقرت على وينر شونتزل . . . صحن آخر من وينر شونتزل . . . كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون . . . الأكلة اليهودية شونتزل . . . الأكلة اليهودية التي يفضلها الأشكناز . . . هل تعرفون يفضل السفارديم أكلة أخرى . . . لكنها وينر شونتزل . . . وينر شونتزل . . . إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا والسيدات الآسفات والزلزال . . .

***

من زمن بعيد هجر النشالون العرب مفارق الطرق ، ولم يعد الشحاذون ينسلون إلى الباصات والمعابر والشوارع . . . لم تعد هذه الشوارع موحلة كما كانت أبداً - قال يائيل - ووجوه النساء القابعات خلف المشربيات فيما مضى أصبحت تنير السوق . . . باب الأصباط تزينه أربعة أسود ، كما رآها السلطان سليمان وهي تمزقه إرباً وتلقي به في وادي قدرون . . . لقد تغير باب المغاربة ، شاعار هاشبوت ، باب الزبالة . . . لقد تغير المكان كثيراً أليس كذلك؟

تغيرت أورشليم . . . تغيرت شوارعها . . . تغيرت حواريها . . . تغيرت طرقاتها . . . تغيرت أرصفتها . . .

- سنغير كل شيء . . . قال آحاد هاعام في القرن التاسع عشر . . . قال ذلك وقد انعكس شعاع الشمس على مونوكوله ، كان الوقت ظهراً . . . وقد هبت ريح باردة بين الصخور وصفرت بقوة دون توقف من خلال الخرائب . . . كان هنالك عمال . . . مهندسون . . . جنود استعماريون يجتاحون الأرض ويجعلونها غريبة عن ساكنيها الأصليين .

- نصّ الملكية تغير أليس كذلك؟ سأل المذيع أديباً إسرائيلياً في التلفزيون.

شيءٌ لم يحلمْ به آحاد هاعام أبداً وهو يكتب رسائله في العام ١٩٠٤، أو عند وقوفه أمام حائط المبكى دون أن تهتز مشاعره، شيء لم يفكر به مطلقاً وهو يقيس على مكتبه نص الملكية في فلسطين... ويبحث بين الأوراق والملفات عن خاتم ضائع، عن خاتم مصنوع من الفضّة كان قد جلبه من بائع مسلم في أورشليم.

- حلولنا المطروحة لا تُجدي نفعاً... أبداً... أبداً. قال ثيودور هرتزل وهو يضبط ربطة عنقه السوداء على ياقة قميصه الأبيض المنشاة، ويمسك عكازه المصنوعة من الأبنوس بيده اليسرى، ويهزّها أمام حشدٍ من الصهاينة المؤمنين المتجمعين أمام دار الأوبرا في فينا.

آحاد هاعام يفكر... وضع يده اليسرى تحت خده... وأمسك باليمنى أسفل الغليون، كان جالساً أمام وجاق بيته في كييف، حيث يلتهب الحطب بنار متلامعة، ومن النافذة يبدو ثلج الغابة الأبيض...

وضع كتاباً على الطاولة، نهض وهو يضع مونوكوله على عينه، وتناول بيده كأس نبيذ أحمر، كان يفكر برحلته إلى فلسطين في العام ١٨٩١، يفكر باليهودي الذي رآه هناك ساقطاً في جموده... آسيني يؤمن بخلود الروح، أو صدوقي يؤمن بخلود المادة، وعلى مقربة من مكتبته المصنوعة من البلوط وكتبه المذهبة الكبيرة، وقف آرثر هرتزبرج بملابسه السود، ووجهه الأصهب صارخاً إزاءه:

- أنت حاخام ملحد... حاخام ملحد وها هي أحجار حائط المبكى لم تحرك أية مشاعر دينية لديك... حائط المبكى رمز للخراب... رمز للخراب... رمز للخراب....

في تلك اللحظة بالذات تراءت له صورة الولد صغيراً في حي الطالبية

يلعب على البسكلتة في الساحة المقابلة لمنزل وديع إبراهيم . . . تراءت له صورة الولد بالشورت الكاكي الذي يلعب دون أن يعبأ كثيراً بالهاغانا الذين يسدون الطريق . . . .

– ميا شاريم . . . ميا شاريم . . .

هذه ميا شاريم . . . تبدو منازلها العالية من بعيد ، وجنود بريطانيون يقفون بتكاسل شديد عند الحواجز والأسلاك الشائكة ، نصف فرسخ للأمام . . . نصف فرسخ قدماً . . . نصف فرسخ في وادي الموت . . . حيث ينفذ الخيالة الستمئة إلى الداخل ، حيث يتقدمون وهم يحملون الأسلحة البراقة وعلى رأسهم الخوذ الحديدية ، يدخلون المدينة من جهة الشمال ومن جهة الشرق . . .

– مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

تراءت له صورة المنزل هناك قبل هجوم الجنود ، قبل أن يحفظ قصيدة لورد تنيسون عن ظهر قلب ، قبل هجوم الهاغانا من طرف السوق ، قبل هجرة السكان الأصليين . . .

– مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . صوت إدوارد يصدح بقصيدة تنيسون . . . يصدح من بعيد :

– مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . .

صوته المتهدج الصغير يمجد الخيالة الستمئة ، صوته يصدح بينما تختفي أحياء المدينة تحت نقع تراب الخيالة ، والجنود القادمين من الشمال .

– مجدوا هجومهم . . . بينما يجد المركب مسافة قصيرة في الماء ويصل الشاطئ ، يجري المحارب مرة أخرى من المؤخرة إلى المقدمة . . . خطوة واحدة ثم يندفع نحو الماء فيتأرجح قليلاً . . . صعد وسار إلى داخله

وبدء بترتيب المجاذيف . . . خاض المحارب في الماء حتى ركبتيه وصاح بقوة :

- انتظرني . . . انتظرني هناك . . . هذه أورشليم . . . سنقرب قرابيننا هناك . . . سنجعلها من البقر . . .

- أنا قادم أيضاً . . . أنا قادم أيضاً . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

***

اختفت الأحياء القديمة كما اختفى يونان في بطن الحوت . . . حي قديم تحول إلى حي كبير يقطنه أثرياء اليهود ، فلل كانت صفاً أمام بالكونة البيت تحولت إلى حديقة عامة . . . شيء من الفاست فود . . ومن الهمبرغر . . . ومحلات جديدة لبيع الملابس الرياضية . . . وكان النهار أكثر صفاءً بنغماته الشجية من عصافير الدوري . وفي الأفق يتكسر شعاع الشمس مثل الضوء الوليد على ظهر وز يعانق موجة الماء من بعيد . . .

- لم تعد المدينة كما كانت أبداً . . . قال إدوارد وهو ينظر إلى شارع مواز للحارة القديمة . . .

- كل شيء تغير . . . كل شيء تغير . . .

- أورشليم لا أحبها كثيراً فهي ليست تل أبيب ولا يافا . . . قالت إيستر وهي تدخن يوم السبت .

- منزل وحديقة كبيرة . . . منزل موجود على الخريطة دائماً وأبداً . . . قال إدوارد . . . وهو يحك خده بإصبع يده اليسرى .

توقف قليلاً . . . عدل جاكتته على كتفيه وهو يتوجه نحو الداخل لينظر المدينة البعيدة . . . لينظر إلى سياج داره البعيدة ، إلى البستان القديم ، إلى العشب الذي يذوي تحت الشمس . . . كان ينظر إلى جاره

الذي افتتح حانوتاً . . . إلى الجندي الذي شيد مدرسةً . . . إلى الحاخام الذي أسس كنيساً . . . إلى السياسي الذي عمر حزباً . . . إلى الفلاح الذي حرث حقلاً . . . إلى القادم من الهستردوت . . إلى الذاهب إلى الكيوبتس . . . .إلى المستوطنة التي وقفت أمام خرائب قديمة وصاحت :

فلتحيا خزعة العبرية! فلتحيا خزعة العبرية! فلتحيا خزعة العبرية!

***

كان إدوارد سعيد واقفاً في ظلام ما . . . كان واقفاً وهو يفكر بالمنزل القديم المشيد من الحجر ، بالمنزل الكبير ، بسياجه الحديدي الدائري الذي يحيط بحديقة كبيرة مربعة ، وقد ظهر من خلف السياج بناء متين وأشجار زيتون بلونها الخفيف وأشجار توت بلونها الداكن . . . كان إدوارد واقفاً وهو يفكر بالأغنياء الذين كانت تدير منزلهم امرأة كبيرة السن ، المرأة التي تجلس مساء في البلكونة قبالة بالكونة منزلهم وتتحدث مع والدته بنبرة محببة . . . يفكر بالوالد الذي كان يعمل في يافا . . . والذي كان يصعد في سيارة فورد بيضاء جميلة ، يفكر بسائقه المسلم الذي كان يرتدي ملابس عادية . . .

عبثاً كان إدوارد يبحث عن البالكونة المطلة على الفيلا ، عبثاً ينتظر ابنتهم التي كانت تخرج إلى الشرفة ، تخرج ساعة ثم تغيب اليوم كله . . . عبثاً ينتظر صوتها الذي كان يسمعه ، الصوت الذي يداعب سمعه وهو بانتظار الحلم الذي رافقه . . . المرأة التي ترتدي فستانها المصنوع من زبد الضفاف السعيدة . ملك أورشليم الذي يرتّبُ طقوسه على مذبح الصلاة في خيمة واسعة ، الفارس الذي يصرخ بحنجرته بينما يولد الضوء أبيض في مصابيح أورشليم . . . الطير الذي يحلقُ بجناحيه في الأعالي ، تاركاً خطوطَ ألوانه على خرير ساقية تهدر قرب المنزل .

وها هو الصوت الذي كان ينتظره يغيب تحت ثقل المكان ، يغيب تحت

ثقل الصوت الذي يأتي متحشرجاً . . . الصوت الذي يهتز قادماً من المنازل المجاورة ، صوت ساف هاحوشيخ من المستوطنة الحديثة وهو يصرخ بصوت عال ويضرب الجدار بيديه :

- جسدي في فلسطين منذ عشر سنوات ولكني مكتئب . . . حتى الآن لم أحضر إلى فلسطين . . .

- مازلنا في الطريق . . . قال يائيل .

- في الطريق . . . في الطريق . . . كلنا في الطريق . . . لم يصل أحد . . . نحن هنا في فلسطين ولكننا لا نشعر بأننا موجودون فيها . . . قالت إيستر .

- هل وصل أحد منا؟ قال يائيل .

- نحن في الطريق . . . كلنا في الطريق . . . نحن في فلسطين . . . غير أننا غائبون عنها .

- نحن فيها ولسنا فيها ، نحن موجودون ولسنا موجودين . . . هل كان هذا حلمنا؟

- ما زالت أرواحنا فارغة . . . هل كنا نفكر بيوتوبيا لم تنوجد أبداً . . . ها هم الناس موجودون هنا . . . وهاهم معروضون كل يوم في الإذاعة والصحف والتلفزيون . . . وها هم موجودون هنا يتفرج عليهم السياح كل يوم .

- إنهم هنا في فلسطين . . . في أورشليم وفي تل أبيب وفي إشدود وفي الناصرة . . . غير أن أرواحهم في مكان آخر . . .

- هنا نحن في إسرائيل وها هم أبناء الملك داوود قد تحولوا إلى أبطال في روايات يوسف عجنون وإبراهيم بن يهوشوا وعاموس عوز . . . ها هم تحولوا إلى صابرا . . . قال الناقد الأدبي في التلفزيون .

صابرا . . . صابرا . . . صابرا . . . هل أنت من الصابرا . . . ؟ هل أنت

من الأشكناز . . . ؟هل أنت من السفارديم . . . ؟ هل أنت من بولونيا . . .؟ هل أنت من ليتوانيا . . . ؟ هل أنت من فرنسا . . . ؟ هل أنت من اليمن . . . ؟ هل أنت من الحبشة . . . ؟ أم أنت صابرا من فلسطين؟ هل أنت عربي؟ هل أنت من اللاجئين؟ هل أنت من ٤٨؟ هل أنت من٦٧؟ هل أنت من الضفة؟ هل أنت من غزة؟ هل أنت من القدس؟

سارت إيستر في الطريق إلى المنزل ، بيضاوية الوجه ، ناصعة اللون ، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها وتلمّه وراء عنقها بشرابة بنية . . . هناك رجل يقعد على كرسي من البامبو يقرأ الجريدة ، وامرأة تخرج بالروب دي شامبر الأبيض المصنوع من حرير وقد طرزته رسوم طيور زرقاء ، جسدها اللدن يدفع قماشة الثوب فتؤكد انسياب الساقين الطويلتين . . . امرأة بحذائها الصغير . . . امرأة بحذائها الصغير ذي الكعب العالي وهو يوقع على بلاط شرفتها فيصدر صوتاً غريباً . . . صوتاً يسمعه اليهودي الذي يمر في الشارع . . . يسمعه العمال المغمورون والفقراء والكسالى والتائهون؟

- تحلمي بجادول . . . تحلمي بجادول . . . تحلمي بجادول . . .

شيء يمكن أن يسمعه إدوارد من المكان ذاته . . . أغنية يسمعها بأسلوب توراتي غريب وهو يغادر القدس بسيارة ستوديبيكير خضراء فاهية اللون قديمة ، شيء يسمعه في القدس من سينما الريجنت أو من سينما روكسي ، والجنود الإنكليز يحرسون المعابر المتجهة إلى سيناء ويفتشون حقائب المارة تحت الشمس الساطعة . . .

موسى وشعب إسرائيل يهاجرون من مصر ويدخلون فلسطين . . . إدوارد وآنطي ميليا يخرجان من فلسطين ويدخلان مصر . . .

هل يدخل صالون آنطي ميليا؟

لقد وجد إدوارد نفسه فجأة بين مزهريات وأصص نباتات صغيرة ، بين ستائر كثيرة ، بين سجاد وأثاث قديم ، بين لوحات وثريات وشمعدانات

بلورية في الشقة ٢٠ من البناية الواقعة في رقم ١ شارع عزيز عثمان في القاهرة . كل شيء خلف الأبواب العالية جاء من القدس : ساعة جدارية ذات رقاص كبير . . . مدفئة كبيرة ، مرايا مبرنقة ، تماثيل صغيرة ، وعدد لا يحصى من صور الأطفال والأحفاد والأقارب والأصدقاء ، كل شيء ينمو مثل الظل تحت حياة هادئة في ضوء النهار الأصفر أو غروب الأماسي الطويلة .

في مقعد كبير ومريح جلس إدوارد وسط جاراته السابقات نادية وأمها والسيدة جندي . لم يبق من مرضه غير الشحوب الشديد . كانت ملابسه أنيقة ووجهه حليقاً . وإلى جانب مقعده طاولة صغيرة وضعت عليها كتب وصحف ومجلات ، هنالك كأس ماء بارد ، وقليل من البسكويت .

فجأة تراءت له أمه وهي تدخل عليه ، تدخل بشبابها وصورتها القديمة ، بنبرتها الجذابة والمستحيلة ، تمد يديها نحوه وتجذبه إليها . تعانقه . تنحرف نظارته عن مكانها . يغلب عليه التأثر وهو يدرك أنها ماتت ولم تجب على رسالته الأخيرة .

***

صوت قادم من البرية أشبه بصوت إله قديم ، صوت قادم من كل مكان تقريباً في البيت ، صورة مضببة تبرز وسط أكوام من الأوراق والدفاتر والكتب المتهرئة الأغلفة . . . صوت يقول لإبراهيم بنبرته الدائمة : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك .

وها هو إدوارد يرتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب ، بينما يرتحل إبراهيم نحو الشمال ، ها هو إدوارد يخرج من أرضه ويدخل بدلاً منه إبراهيم ، ها هو إدوارد يبحث عن أرضه ، وها هو عاموس عوز يسكنها ويكتب بها رواياته . . . ها هو إدوارد يرتحل ارتحالاً إلى البرية التي لا يكتشفها ، شيء ما يحوله إلى اليهودي التائه بدلاً من عاموس . . . شيء أشبه بحديث قديم

بين إدوارد وأمه في القاهرة :

- جئت للسكن معكما لمدة شهرين . . . ابعثي تحياتي القلبية لعمتي نبيهة . . . أنا الآن في كولومبيا . . . لدي مؤتمر هناك . . . تحدثت معها بالهاتف قبل قليل . . . عندي الكثير لكي أحدثك به حين أعود .

شيء أشبه بحديث بين إيستر وجدتها البولونية في القدس :

- هل تحسنت حالتك يا إيستر . . . هل ستتناولين الشاي معنا .

تقدم الشاي على صينية صغيرة وتضعها على مسند المقعد . في الصحن الصغير خبز محمص ومرّبى . . .

- ما هي أخبار صغيرتي إيستر .

- ذهبت يوم أمس إلى المعسكر . غرقت في حب فتى بولوني يكبرني بثلاث سنوات . إنه يخونني كل مرة وأسامحه . ربما يذهب إلى الحرب . ربما يموت . ربما يتعوق أو يتشوه . أو يتأسر . . .

- . . .

- لاتقلقي يا جدتي . . . إيستر تعرف كيف تحافظ على نفسها .

- هل تريدين سكراً مع الشاي؟

- كعكتك طيبة . تجعلني أكسر الريجيم .

- الحرب هي أكثر الأشياء التي سمعتها غباء . . . قالت الجدة .

من النافذة . . . صوت ينبعث من مكان قديم ، صوت متحشرج كما لو كان قادماً من أورشليم :

«إلهي لماذا تركتني . . . في النهار أدعو فلا تستجيب . في الليل أدعو فلا هدو لي . عليك اتكل آباؤنا ، اتكلوا فنجيتهم . . . إليك صرخوا فنجوا ، أما أنا فدودة الإنسان ، عار عند البشر . . . ومحتقر الشعب كل الذين يرونني يستهزئون بي . . . »

- أنا آخر اليهود التائهين . . . آخر اليهود التائهين . . . قال إدوارد

سعيد لمراسل صحيفة يدعوت إحرنوت .

-أنا آخر اليهود التائهين . . . آخر أتباع أدورنو . . . لم يعد عاموس عوز يهودياً تائهاً . . . لم يعد إبراهيم بن يهوشوا يهودياً تائهاً . . . لم يمت يهودا عميخاي يهودياً تائهاً . . . لم يمت يوسف عجنون يهودياً تائهاً . . .

وفي مصر كان إدوارد سعيد يسير في الطريق إلى الحديقة في حي القاهرة الجديدة . . . هنالك أوربيون يرقدون على البيسين . . . وخدم مصريون يلبون الطلبات راكضين فوق البلاط وهم يرشحون عرقاً . . . يصعد السلم فيلتقي عمته نبيهة تمسك جدولاً إحصائياً للحاصلين على شهادة المتريكيوليشن عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ . . . وتقرأ أن الطلبة العرب أضعاف الطلبة اليهود . . .

كانت تجذف في البحر وحدها . . . كانت تشعر وكأنها أكثر عزلة من وريقةٍ مهاجرة . . . وهي تجذف بهدوء أمام زوال مباهجها في العزلة ، كانت تجذفُ وحدها في مياه الصيف الخضراء ، سائرة نحو مملكة المنفى . . . سائرة نحو ساحل الهجرة . . . مُنقادة لظل الحب الضحل ، لظل سعادة هاربة ، لظل قديم . . . ثم قالت بعينين باكيتين :

«كل الناس لهم وطن يعيشون فيه إلا نحن لنا وطن يعيش فينا» .

كررت تقول :

«فلسطين . . . فلسطين . . . » وكأنها تردد بعزيمة تفصح عن أملها في حياة جديدة . نظرت إلى النافذة التي لم تزل غائبةً عن عينيها ، وإلى الطير الذي كان يعدو من غصن إلى غصن ، وإلى الكلب الكبير الذي كان يؤرجح ذيله الأصفر الطويل في الهواء .

«فلسطين . . . فلسطين . .» غير أنها لم تعد تسمع شيئاً .

***

كان الشارع ينعطف جانباً ، باص أصفر كبير يحمل السياح ويبدأ

جولته من زاوية شارع رئيس مزدحم بالناس ، ثم ينعطف شمالاً في ظلال شارع خال من واجهات المحلات ومن المطاعم ، قال يائيل ها هي إسرائيل تبدأ حياة جديدة ، ها هي إسرائيل بعد تفجير الأمس تبدأ حياة جديدة ، ها هي إسرائيل تبدأ يوماً جديداً .

ساحة مستديرة ، سيارة إسعاف تمر ، مجنزرة تمر بقرقعة ساخطة ، شارع آخر يزداد حيوية ويعج بالناس ، دكان للفواكه المجلوبة من يافا ، هرم من البرتقال المضيء إضاءة باهرة ، حانوت الفلسطيني يجلس فيه صبي صغير ، قصابة بواجهة من السيراميك الأبيض ، صيدلية صغيرة ، عطارة كبيرة ، وفلسطينيون يتوقفون أمام الحواجز بعد ليلة ماطرة ، وها هو الشارع الإسفلت مبلل وبراق مثل جلد فقمة ، جنود يمرون ويتوقفون أمام الحاجز يفتشون الداخلين والخارجين إلى القدس .

- طقس جميل . . . حياة ساطعة الألوان . . .

- يا لها من مدينة جميلة . قال السائح وهو يحول نظراته عن مشهد الفلسطينيين الذين أجلسهم الجنود على الأرض .

***

كانت الشمس ساطعة مثل الموسى في الظهيرة ، والهواء يهب بعذوبة رائعة وينساب مثل وشاح ، وفي منأى من الضوضاء والجلبة والزحام كان الزقاق نظيفاً يطل على أحد الشوارع التي تؤدي إلى شارع فؤاد ، وفي منتصف هذا الشارع تقريباً ، ينتصب مبنى صغير أبيض اللون وفي طابقه الأرضي دكان بقالة فاسيكلاس ، ودكان آخر يبيع سلعاً راقية ، وعند ردهة البناء تتسكع بعض القطط عبر دهليز صغير ، ودرج واسع خشبي بارز يصدر روائح طيبة ، يقطن هناك طبيب يوناني ، ودبلوماسي كانت زوجته تغني الأوبرا ، ونبيهة عمة إدوارد سعيد وقد جلس في صالتها مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين المنفيين إلى القاهرة .

دخل حسين أفندي أبيض الوجه ، دخل بقامته القصيرة وبذلته السوداء وهو يرتدي الطربوش المكوي الذي يضعه على الزاوية اليمنى من رأسه . كان يمسك بيده اليسرى مذبة مصنوعة من ذيل حصان ، يهز بها وهو يسير ، وبرفقته ابنته آمال بتنورتها الخضراء ، وقميصها الناعم النسيج ، وقد رمت ضفيرتها على كتفها .

صالة واسعة ومبلطة بالمرمر ، وثريات عاليات يتدلين من السقف ، وفي الزاوية غرامفون على شكل صندوق مربع ، وكومدينو من خشب لامع يحمل اسطوانات كثيرات ، وأمام النافذة شرفة طويلة مسقوفة وطاولة من خشب الساج ، ومقاعد منجدة بالجلد الأسود ، كان إدوارد جالساً في الشرفة قرب عمته يقرأ بكتاب مفتوح ، يرتدي الشورت الأزرق القصير ، والقميص الأبيض الحريري ، ويضع أقدامه على الطاولة ، ويرد رأسه إلى الوراء .

سلم حسين أفندي البوصطجي على نبيهة التي نهضت من مكانها . صافحته بود ظاهر ، وأخذته إلى الصالة المجاورة .

أحنى رأسه قليلاً . . . وهو ينظرها بعينيه الغائمتين ، لم تقل شيئاً ، إنما التفتت إلى إدوارد وقالت له :

«إدوارد خذ آمال وشوفها شطارتك على البيانو . .»

نهض الولد من مقعده دون كلام ، رفع عينيه إلى الفلسطينية التي وقفت أمامه بخجل واحتشام نادرين ، نهض من مكانه . . . دون أن يكلمها بشيء ، وسار معها بخطوات مرتبكة قريباً من الممر ، متجهاً إلى البيانو الموضوع بالقرب من حجرة الجلوس ، سارت وراءه دون كلمة تقريباً وقد أحنت رأسها من الخجل دون أن تنظر إليه . . . جلس على البيانو ، وحين رفع رأسه شاهد خديها اللذين تضرجا بحمرة حيية وعذرية ، رفع رأسه دون أن ينظر في عينيها مباشرة ، وسألها ماذا يعزف لها ، قالت له

بلهجة فلسطينية حيية :

- مثل ما بدك . . .

مد الولد يديه إلى البيانو بخفة ، فتح أصابعه مثل فكي أفعى على المفاتيح .

ضربت أنامله الدو ميجور ضربات متتالية .

جرب شيئاً على السي مينور . . . جرب شيئاً آخر من أوراقه التي أمامه ، جرب شيئاً من بارسيفال فاغنر ، ومن كونشرتو شتراوس ، ضربة . . ضربتان دون أن يأتي اللحن ، ثم تسلل فجأة بين أصابعه ، لحن غامض وحزين ، لحن قريب من أوبرا فيردي ، شيء قريب من أوبرا عايدة لكنه معكوس ، شيء ما على ضفاف العمر يفكر به ولا يجد له أي تفسير . . . وآمال ما كانت لتهتم بما يعزف لها من ألحان . . . مع ذلك أصغت وهي واقفة أمامه بكل مشاعرها . أصغت بمشاعرها المتوهجة تلك اللحظة لا بعقلها الذي تاه أمام هذا الفتى المكبوت والمتوتر .

وقفت أمامه منذهلة أول الأمر ، منذهلة ومخلوبة . وحين مدت يدها وتحسست خشب البيانو البارد والناعم ، هيجها بصلابته . . . كانت عيناها تومضان وهي تنظران بشغف هذا الفتى الذي كان يجرب أصابعه على اللحن الذي تعلمه وحده قبل أن يسمعه بمزيد من الصقل على يد تيغرمان . . . شعر بها لأنها انحنت قليلاً أمامه واهتز نهداها خلف القميص الناعم النسيج ، نهدان ممتلئان ومتوتران عصفا به . فأخذ يصعد باللحن ويرتفع إلى أعلى ، ومع تحليقه كان يتهيج أكثر فأكثر حتى رأت آمال الواقفة على رأسه ، انتصابه ، وشمت رائحته ، مثلما شم هو من جانبه وتنشق رائحة حلوة صعدت وهي تتلوى وتدور خارجة من بين سيقانها ، رائحة شبق قريبة من رائحة تخمر تفاح ، رائحة من بين ساقيها تصعد مع اللحن تغزو رئتيه فتصعد نشوة فردوسية حمراء ترتسم بغلالة

على عينيه ، وكانت آمال تهتز أمام عينيه الغائمتين .

تتحرك آمال ببطء أمامه وهي تنضح شهوة ولذة متفلتة من بين احتشام رقيق . كانت أصابعه تضغط على المفاتيح مؤدية تآلفا طويلا متواصلا ، يتكون معظمه من رائحة الشبق التي تغزوه ، والأداء النوراني والشهواني لموسيقى عايده ، حيث ترتسم على خلفية باستيلية مضببة صورة الخديوي إسماعيل وجمهور الدوقات والنبلاء الأوربيين الذين وقفوا بهيبة أمام المياه الغادية الرائحة لقناة السويس من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، كله يمتزج بصوت حسين أفندي البوصطجي وهو يتحدث لنبيهة هانم عن تهجيرهم وترحيلهم ذلك اليوم :

ناولته نبيهة سيجارة جيستر فيلد . أشعلها حسين أفندي وأخذ يدخن بهدوء . سكت قليلاً ثم روى لها أحداثاً متتالية ومتعاقبة شهدها هو وعائلته بعد إعلان دولة إسرائيل . كان جالسا أمامها يروي بصوت هادئ وعذب وحزين في صمت الصالة الذي يحيط به ، وعذوبة ألحان تتناثر مثل بتلات ورد قادمة من ممر قريب .

يعزف إدوارد وآمال تشهق من النشوة والشبق أمامه . . . يشعر بتهيجها وهي تشعر بانتصابه .

يعزف بقوة وتجل كبيرين ، بينما أذناه تلتقطان حديث حسين أفندي البوصطجي من الصالة المجاورة بدقة وتتلاحق الصور أمام عينيه :

صورة آمال أولا . . . صورة والدها وشقيقها ووالدتها وهم يهربون أمام الجيش الخارج توا من بطن التوراة ، صورة العائلة وهي تهرب أمام الجنود المقدسين والمباركين الخارجين من الأسفار القديمة ، صورة الجنود الذين يقودهم سليمان الملك وحاشيته من الأحبار .

صورة حسين أفندي البوصطجي وقد قبض عليه المستر سميث الضابط الإنكليزي المسؤول عن البريد وأودعه سقيفة في فندق مينال هو

وعائلته ، ثم أطلقهم ، فهربوا يركضون هائمين على وجوههم . . . حاملين صرارهم وحقائبهم وعفش البيت . . . متجهين نحو الخلاء .

- إلى أين . .؟

- إلى لا مكان . .

- مردخاي بن غوزيهو يتقدم من غيفعات شاؤول . . .

- مصفحة عليها مكبر صوت بقيادة منشه ايخلر تندفع من الشرق . . .

- يهودا سيفل ينطلق من مستعمرة بيت هاكيريم . . .

- اقتلوهم . . . اقتلوهم . . . اقتلوهم . . .

فجأة أصبحوا وسط الجنود المقدسين الخارجين من التوراة ، وسط الجنود المقدسين الذين يحملون الأسلحة الجديدة ويضعون الخرق المباركة على رؤوسهم ، وسط جنود يهوه الذين يرتدون الكاكي ويعبئون جيوبهم بالخبز المقدس والفواكه المجففة ، وقفوا جائعين أمام الجنود المقدسين الذين يحرقون قصاع الرز البائت أمام أعدائهم .

- ألقوا القبض عليهم ، أودعوهم حفرة كبيرة ، هم وملابسهم وصرارهم وحقائبهم وعفشهم .

- اجعلوهم ينامون على الأرض .

- اقتلوا من تقتلون . . . واطلقوا من تطلقون . . .

وفي الصباح ، كانوا يركضون وهم يحملون صرارهم نحو الحدود ، لقد أطلقهم الجنود على أن لا يعودوا ثانية . . . وبنات صهيون يخرجن من مستوطناتهن وينظرن الملك سليمان بتاج توجته به أمه في يوم عرسه ، في يوم فرحة قلبه . . . وإيستر تستحلف بنات أورشليم بالغزلان ووعول البر ألا ينهضن الحبيبة ولا ينبهنها حتى تشاء .

***

- صمتت دير ياسين من بعيد . . . قال سليمان .

- من الشوارع المتربة . . . انطلقت جموع أخرى بسرعة كبيرة .

- نحن وحدات البالماخ الضاربة . نحن مخمش وكتيبة موريا ، وكتيبة بيت حورون ، ها نحن في معسكر شلنر في الطريق إلى دير ياسين .

- أنا ديفيد شلتئيل أناديكم وأطلب منكم العودة إلى دياركم . . .

- هل أنت ألماني . . . خدمت في الفرقة الأجنبية . . . وعملت رئيساً لاستخبارات الهاغانا قبل توليك منصباً بالقدس؟

- ها هو مردخاي رعنان يقود إتسيل اليوم . . . ها هو يهوشوا زطلر يقود ليحي . . . ها هي عملية نحشون تبدأ لاحتلال القرى العربية الواقعة على جانبي طريق يافا ، ها هي معركة القسطل مع البالماخ . . . ها هو اسحق ليفي في مكتبه يفكر باجتياح دير ياسين .

هامت جموع على وجوهها . . .

سارت آمال وأهلها حاملين صرار ملابسهم وحقائبهم وعفش بيتهم بأيديهم ، هاربين دون نقود ، دون طعام ، دون أوراق ، دون ماء . . . مروا بقرى ميتة مثل يد مقبوضة على نفسها ، مروا بقرى متجعدة ، مروا بمدن كأنها مضروبة ببرصام ، مروا بخرائب كأنها مهدمة بإعصار ، مروا ببيوت حدبتها رائحة آسنة من الحمى ، وبأناس تلتصق بجلودهم وساخة دبقة ، وهم يحتمون بجدار مهدوم ، بشجرة هزيلة تحني رأسها ، وبأسوار مهدمة على الطريق . . .

يعزف الولد وتتحول كلمات حسين البوصطجي إلى صور متعاقبة متلاحقة في ذهنه .

آمال تريد نسيان ما عاشته ذلك اليوم :

تقف على البيانو تتحسس الخشب الصقيل البارد والناعم وتعري بذهنها العازف من ملابسه ، عيناها تومضان بثقل ، شهوتها تطلق رائحة مهيجة .

يعزف الولد وهو يتنشق رائحتها فتصعد به سورة صوفية إلى أعلى .

***

سارت آمال بأقدام متثاقلة وهي شبه عارية ، شعرها الأسود الكث محلول ، وقميصها الأبيض ممزق من عند صدرها ، سارت في عراء البرد حاملة صراراً قليلة فيها ملابس و طناجر ، سارت أمام ماسورة بندقية مصوبة نحو ظهرها . . . سارت في أرض موحلة بمياه آسنة جعلت روحها تتحجر .

أين هروبكم يا أعداء يهوه . . . ؟

تلال بعيدة عن وصولكم ، شناعة دمائكم على أيديكم وقرقرة مقذعة لحشرجة الموت الأخيرة في أفواهكم . . . مطرودون من أرضكم تتجهون شمالاً مرة ، ومرة شرقاً ، منحنين بثقل كراكيبكم وملابسكم وعفشكم لتجتازوا الحدود ، لا مكان لكم لتأكلوا عليه ، لا مكان لكم لتناموا فيه ، لا مكان لكم لتتغوطوا فيه . . . مطرودون من أرضكم تسقطون مرضى ، مطرودون من أرضكم ، تمشون وأسنانكم تصطك من الحمى .

هل كنتم جياعاً ، عطاشى ، يائسين؟

بطون أطفالكم يا أعداء يهوه تقرقر من الجوع ، أعداؤكم يمشون على دوي المدافع وصوت الرصاص الذي يئز ، وعلى الطريق ساحات للجثث المتعفنة دون قبور ، أشجار مقلوعة دون طريق ، بيوت مهدومة دون بشر ، شوارع مكتظة باللاجئين والمحمومين والمقعدين والأطفال الضالين .

قالوا :

ها هو عرش سليمانَ وحوله ستون جباراً من جبابرة إسرائيلَ ، قابضون جميعًا على السيوف ، متمرسون كلهم بالقتال ، سيوفهم على أفخاذهم تحسباً مِن هول الليالي .

سقطت آمال في الوحل ، نهضت باكية ، مرعوبة ، مرتجفة ، وفي الليل

هرشت جسمها ، وقد ملأها القمل ، وشقيقها عزيز الذي أصيب بالجرب نام في حفرة ثانية .

زحف الجنود التوراتيون الذين يرتدون الكاكي بأسلحتهم المدهونة وجيوبهم المعبأة بالخبز المقدس والفواكه المجففة ، زحفوا وهم يحملون خرائطهم ، وعصيهم التي يكشون بها أعداء يهوه يميناً وشمالاً ، يكشونهم بالأسلحة المدهونة ، ويحرقون فضلات طعامهم أمام أنظار الجائعين .

سليمان صنع لنفسه سريرا من شجر فلسطين . صنع أعمدته من فضة ومن ذهب صنع روافده . صنع مقعده من الأرجوان . . . صرخ بجنوده :

- . . ازحفوا نحوهم . . ازحفوا نحوهم . . تقدموا . . تقدموا . . .

- استمروا بتقدمكم وزحفكم وعليكم أن تقتلوا من تواجهون . .

- إلى أمام . . من هنا . . إلى أمام من هناك . . ازحفوا من هنا . . ازحفوا من هناك . . خذوا أورشليم . . خذوا البلدة القديمة . . خذوا قراها ومدنها . . . ازحفوا نحو بلداتها . . اقتلوا من تواجهون . . ابتلعوا من ترون . . . ضاجعوا من تشاؤون . . وإذا شئتم فتغوطوا على رؤوس من تقتلون . . .

- هيا هيا . . اليوم نحن التاريخ . . نحن الذين نكتبه . . نحن شهوده وقضاته وتوراته ليس هناك من معترضين ولا شيء من هذا الخراء . .

- ازحفوا لقد وصلنا . . وصلت جنود يهوه إلى مبتغاها . . راياته راياتكم . . فليحيَ الهيكل ومن لا يعجبه فليتخوزق من مؤخرته . .

- اعبروا من هذا الجانب إلى ذاك الجانب . .

- تعالوا من هنا وعيشوا هذه المأثرة التاريخية الرائعة . . هذه الفوضى الإلهية المقدسة . . لا تسألوا من هو المسؤول عن موت أكثر أحبابكم في الهولوكوست . . . كل شخص ليس منكم هو من أعدائكم . . .

قال بتحيا زليلفسكي :

- سننتقم منكم . . . سننتقم من رجالكم ومن نسائكم وأطفالكم . . . سنذبحكم ونجعلكم عبرة لمن يريد البقاء على أرض إسرائيل . .

- وزعوا على مقاتلي لحي واتسيل البنادق والرشاشات وأعطوهم قنبلتين يدويتين ومسدساً وهراوة للإجهاز على الجرحى العرب توفيراً للذخيرة .

ركض حسين أفندي هو وعائلته مع الطوابير الكبيرة التي تهرول دون هدف .

- إلى أين؟

- إلى لا مكان ، إلى أي مكان خارج هذا المكان .

هناك وقفوا أمام جنود الله الذين يرتدون البذلات العسكرية ويحرقون أمامهم قصاع الرز .

عاد سليمان إلى خيمته ، إلى المكان ، وقال :

- لقد طردناهم إلى الأبد . . . سوف لن نسمع بهم أبداً . . . ها نحن نرتاح إلى الأبد . . . لقد غادروا ولن يعودوا . . . لقد غادروا وانتهى كل شيء . . . مسألة بسيطة جداً . . . لن تستغرق وقتاً . . . سينسى كل واحد مكانه القديم . . . والساكن الجديد سيتعود على المكان الجديد . . . وينتهي كل شيء . . . لقد انتهينا تقريباً وسنرتاح إلى الأبد . . . لا بد أن ننام . . . قال بن غوريون .

عاد إلى مكانه . . . اضطجع على السرير . . . نفض يديه وقال :

-خلصنا منهم للأبد . . . قال ذلك ووضع رأسه على الوسادة ونام .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

تراءت له صورة المنزل هناك قبل هجوم الجنود، قبل أن يحفظ قصيدة لورد تنيسون عن ظهر قلب، قبل هجوم الهاغانا من طرف السوق، قبل هجرة السكان الأصليين . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . صوت إدوارد يصدح بقصيدة تنيسون . . . يصدح من بعيد :

-مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . .

صوته المتهدج الصغير يمجد الخيالة الستمئة، صوته يصدح بينما تختفي أحياء المدينة تحت نقع تراب الخيالة، والجنود القادمين من الشمال .

- مجدوا هجومهم . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

***

حاول حسين أفندي الفرار والهروب من جنود يهوه . . . حاول التملص والتحايل على الجيوش التي تحاصره .

دار أولاً هو وعائلته من اليمين، ثم تجاوز الخط الأول للجنود الذين كانوا يعلكون ويضعون في جيوبهم البسكويت ويصوبون رشاشاتهم إلى أمام، تقدم ليتدبر فراره، وكل واحد من عائلته يتشبث بصرة أو بحقيبة أو بشيء يحمله من عفش البيت، تجاوزهم مرة . . . اصطدم بهم مرات . . . وعلى الرغم من انقضاضاتهم الحادة واستداراتهم الخطرة، ومشيهم على أربع، وانبطاحهم على القاذورات، وإصابتهم بالإسهال والحمى، ونومهم بين القتلى والجرحى، إلا أنهم كانوا يريدون الوصول إلى القاهرة بأي ثمن .

- ماذا ستعمل هناك؟ قال عزيز .

- بدلاً من وظيفته المحترمة سيعمل مراقب تواليت . . . أو يبيع الليمون بالقصاع المصري ، أو يصبح عتالاً أو خبازاً . . . قالت الأم بتهكم .

حسين أفندي . . . تعال هنا . . . أنت اذهب هناك . . . بالدور رجاء . . . لا تسمعوا من هذا إنه يكذب . . . أرجوكم . . . أرجوكم . . . كونوا صادقين وإلا . . . وإلا ماذا . . . أرجوك لا تقل هذا الأمر أمام أحد آخر . . . كل الأشياء يمكنها أن تكون . . . وفي أكثر الأحيان لا تكون . . . بالله لا تقل هذا . . . هل تعرف الخيالة الستمئة الذين يطيرون على خيولهم سابحين في الفضاء . . . هل تعرف . . .

كانوا يريدون التخلص من قصف القنابل المتوالية ، كانوا يريدون التخلص من رشقات الرشاشات ، كانوا يريدون التخلص من صرخات الجرحى ، وعويل المحتضرين ، لا يريدون النوم في حفر القنابل المنتشرة في كل مكان ، لا يريدون السباحة في الدم الرائب الذي ينزفه الجرحى ، ولا النوم بين الجثث الحارة ، ولا سماع بكاء المحتضرين ، ولا مشاهدة السيقان المقطوعة ، أو الأذرع المبتورة التي تقطر دماً وقيحاً ، ولا تحسس الجثث الحارة ، ولا النساء المسلوخات ، ولا القتلى ، ولا الساقطين من الجوع في الطين ، ولا الأجساد المعراة ، ولا الحيوانات الشاردة المجنونة ، ولا الوجوه المعذبة المضروبة المتقيئة ، ولا الرجال الذين يتعثرون بالبط والدجاج والعربات المقلوبة والتي تجرها الخيول والحمير .

***

يعزف الولد أوبرا عايدة لفيردي على البيانو الأسود الموضوع في الممر . صورة ملونة بألوان باستيلية جذابة ومتنوعة ترتسم فوراً بكل أبهتها أمام عينيه الوامضتين الغائمتين . صورة باستيلية تعود ليوم السابع من نوفمبر من العام ١٨٦٩ حين صعد دولسيبس بملابسه الإمبراطورية الملونة ، حين صعد بقبعته الفرنسية السوداء العالية ، ونياشينه الذهبية التي تبرق على

صدره العريض وعلى ملابسه الحريرية ، حين صعد على المنصة الخشبية العالية التي جلس قبالتها الخديوي إسماعيل بشواربه المعقوفة وأنفه المدور وعينيه القاسيتين اللتين ألفتا الاستبداد منذ زمن بعيد . . . التفت الخديوي يميناً وشمالاً حيث جلس ممثلو العائلات الملكية والدبلوماسيون والضباط والمهندسون والعلماء والرهبان ، ومن بعيد توافد السكان المحليون راكضين بأقدامهم الكبيرة الحافية ، وصدورهم العريضة السمر التي لوحتها الشمس ، وعلى رؤوسهم الطاقيات ، كانوا يتعثرون بين البراميل والحبال وقد ضاعت ضوضاؤهم بين هدير الباخرة وهي تقلع في قناة السويس .

وقف رجال ونساء بملابسهم الجميلة الفخمة وألوانها الزاهية ، والتي كانت تبرق متوافقة مع هالة مشعة تحيط بوجوه النبلاء والدوقات والملكات والضباط الاستعماريين ، والعلماء الذين يقفون خشوعاً أمام هذه العظمة والجلال والرهبة ، كانوا يرتعشون على صوت دوليسبس وهو يصرخ :

«إلى العمل أيها العمال الذين تدفعكم فرنسانا . .» .

دوليسبس يصرخ :

« . . تقدموا . . . » . .

فيتقدم صعايدة مصريون في العزلة الملتهبة والعميقة للقنال ، يتقدم نوبيون يسبحون في النيل عراة وقد ظهرت عوراتهم السود أمام عيون السائحات الغربيات . يتقدم فلاحون بجلابيب وطاقيات ممزقة ، يسيرون على الرمال الناعمة الساخنة وهم يغتسلون بلهب الشمس . . . عمال بلديون يجوبون القنال بوجوههم الممصوصة المتعبة . . . نساء يحملن الجرة على كتف والطفل على الكتف الآخر . . . فقراء يتقدمون في الوحل يسحبون خطوات وئيدة وهم يشقون الأرض . . . معوزون يسهرون وهم ينصتون لصمت الحمير والجمال . . . جائعون يفيقون نصف إفاقة على عتبة الأكواخ المهدومة والهمسات الموشوشة . . . عبيد مثل عبيد الأهرامات

يشقون القنال ويركعون عند أقدام فراعنة شقر . . . صعايدة يتقدمون بأقدام كبيرة حافية ، بأيد عارية ، بوجوه سمر لوحتها الشمس . ببطون خمصانة نشفها الجوع . بشفاه راجفة جففها العطش . يتقدمون على ضفة النهر الذي لا ينام . . . نهر يبيّض ماؤه بطبقة شفيفة من الرصاص ، صعايدة مصريون يحملون أكداس الطين بشوالات من الخوص ويبعدونها عن الشق .

دوليسبس . . . دوليسبس . . . كل حانة في باريس تصرخ دوليسبس . . .

ثيودور . . . ثيودور . . عاد من مصر . . . عاد سريعاً وهو يصرخ أي نوع من الرجال هو الباشا . . أي نوع من الرجال هو . . . متى سيصبح مستقلاً . . . هل رأيت رأساً يقطع بضربة سيف واحدة . . . والعالمات . . . هل رأيتهن في مصر . . . والأهرامات وشلالات النيل وتمثال ممنون وإبراهيم باشا . . . والخ الخ . . . كانوا يتكلمون بصوت واحد . . . هل يمكنك أن تجلب النساء من مصر . . . والمومياء . . . هل رأيت النيل الذي يبيض ماؤه بطبقة شفيفة من الرصاص . . .

كان دوليسبس يرى بحدسه الإعجازي هذه العظمة ويعيشها على صوت الطبول وعربدة العالمات . كان يعيشها وهو يسير في الصالات ذات العمد حيث سار أبو الهول ، أو رمسيس ومشى هناك . كان يحلم لا بشق القنال ورحلة مياه النيل إلى البحر المتوسط حسب ، إنما كان يحلم بالعودة مظفراً إلى باريس . يحلم وهو يسير في شوارع باريس على فرس عربية بسرج مزركش ، وخلفه هوادج الإماء الحبشيات ، وفي خرجه تماثيل من الغيرانيت من عهد رمسيس . كان يحلم بعودته بطلاً وهو يمشي في منزله الغربي بملابس نوم تركية وبقارب شراعي يسير في بحيرة لها هيئة بحيرة من الفولاذ المنصهر .

***

صعايدة مصريون يحملون زواداتهم ويسيرون ، قوافل يحيط بها رجال الحكومة على خيولهم البيض وقد تمنطقوا بالسيوف المعقوفة ، وحملوا بأيديهم الكرباجات . . . صعايدة مصريون يسيرون تحت سياط الشمس اللاسعة في الأرض الموحلة الشبيهة باللدائن ، وقد غاصت أقدامهم بالغرين الأحمر والسبخ الأسود اللزج .

عمال يسقطون في الترع الكبيرة ، أو تنهار عليهم تلال التراب ويموتون هناك من أجل مجد فرنسا وفائدة إنكلترا . . . عمال يدفنون في شقوق القنال تحت السماء النيلية الداكنة ، وهم يصغون بهدوء إلى المجذفين ذوي العضل في النيل الرصاصي وهم يصعدون أمواج النهر ، لينشروا موجاته العاتية المرتعشة .

وفي ساحة الأوزبكية سياح ورحالة وتجار وعسكريون كولنياليون يعيشون بانوراما المدينة الموشاة بباقات منتشرة من المنائر العالية والقبب الزرق ، يجلسون في مقاهي القاهرة على الكنبات الإصطنبولية وهم يصغون للآذان تحت سحابة صاعدة من دخان الأفيون ، والروائح الشذية القادمة من الذين يطبخون القهوة في الدلال .

***

ضغط إدوارد بيده يد آمال الرقيقة على مفاتيح البيانو ، فصعدت الضجة إلى أعلى وانتشرت في المكان ، تنشق رائحة أنوثتها وشهوتها الحادة ، استرق السمع إلى حديث الصالة عن النكبة ، همس بأذن آمال بصوت محشرج :

« دو . . ريه . . مي . . » .

وقع غامض وغريب . . . وقع غامض ترسمه آمال في روحه ، وقع غامض في صوتها وحماستها الطفولية الرقيقة ، وقع غامض كان يشعر بثقله العذب وهو يضغط إصبعها على مفاتيح البيانو .

نامت يد الطفلة بين يديه المحصنتين والدافئتين ، نامت يدها بين يديه وقد لمحت في عينيه البريق الحاد الذي يلهبها ، وضعت يدها بين يديه وقد تحسست فيهما ارتعاشة غريبة ، تحسست صمت الحب وسكونه ، الذي نم عنهما ، وكشف جنوحهما . كانت تعرف أي نداء يجذبها نحو هذا الملجأ ، أي حماسة لا تفتر . . . وصوت يعلو في هذه المسحة من اللهاث ، وتلك النبرة المفككة في صوته . فأخذت تسمع نبضات قلبه المتسارعة .

ذهبا معاً إلى المطبخ ليجلبا عصير البرتقال ، وحين خرجت الخادمة سمعت وراءها خطوات مضطربة متلاحقة .

وقفت آمال في المطبخ أمامه ، استندت إلى جدار أبيض بأنوثتها العارمة الجموح ، وقفت أمامه راعشة بصدرها المكور ، بعينيها السوداوين المقدسيتين والمسددتين نحوه ، وقد انسكب منهما حنان صامت ، ارتعشت عاطفة وحشية بينهما ، عاطفة كان ضجيجها مدوياً في المطبخ ، توقفا في الزاوية وقد انعكس عليهما النور بغموض .

كان السكون عميقاً أول الأمر ، وقد أدرك كل واحد منهما الحرارة الودية في جسد الآخر ، رعشات متواصلة تثقبها فترات صمت ، وشعر كل واحد منهما بأنه غرق في شعاع لا عمر له ، والتقى كل واحد منهما بالجاذبية والسحر والنغمة الحزينة التي ترن دون قرار .

خرجت آمال من المطبخ وهي تتنهد بقوة . . . سوت تنورتها وعدلت بيديها شعرها المهوش .

***

وصل إدوارد سعيد القاهرة بعد أن تركها منذ زمن بعيد . . . وصلها بعد أن تغير هو . . . وتغير المكان الذي كان يعرفه كثيراً ، تغير المكان بعد أن رحلت العمة نبيهة ، ورحل لاجئوها وتفرقوا في كل أنحاء العالم . . . أين ذهبت آمال بعد أن أصبحت بقالية فاسيلاكس محلاً للأحذية الرخيصة؟

أين صارت آمال؟

صوت كان يسمعه على الدوام ، كلام غامض يحيط به بعد أن تجاوز حدّ العمر وهو يعبر ملعب الغولف بنادي الجزيرة ، صوت رخيم كان يسمعه كما لو كان هناك من ينادي عليه ، كما لو كان هناك من ينادي باسمه في الظلام . . . صوت كان يسمعه في المكان ذاته ، في المكان الذي كان يلهو ويختبئ بين صخوره في حديقة الأسماك ، صوت كان يسمعه منذ أن كان يذهب في نزهات الأسرة لشرب الشاي في الميناهاوس والرحلات الترفيهية في القناطر ، صوت كان يسمعه حتى وهو منهمك في اللعب ، أو وهو منهمك في مشاهدة عروض المسارح ، أو مشاهدة الأفلام الأمريكية في سينما مترو ، أو وهو منهمك في لعبة التنس في نادي التوفيقية . . .

في عتمة ذلك اليوم من عقد التسعينات ، وقف إدوارد سعيد وقد وخط الشيب رأسه ، وقف أمام منزل عمته نبيهة وقد استضاءت فجأة عتمة عمره ، وتنشق للمرة الأولى عبيراً صامتاً من أنوثة قديمة خصبة حنونة لكنها مقهورة ، وإن ينسى ذلك اليوم فإنه لن ينسَ شعر آمال الكث تحت أصابعه ، وقد حوطها بذراعه ، وكاد أن يذوب بها كلياً وإلى الأبد ، لقد شعر ذلك اليوم وهو ينظر بعينيها ، بأنه يتقد وينصهر بها بحب وتوحش وتوهج وتحرق من غير حدود ولا انتهاء .

تذكر إدوارد جلوسه معها في سينما التوفيقية مرة .

جلس معها يداً بيد ، يباعد بينهما الحياء ويربطهما تجاور المقعدين . تظاهرا بأنهما ينظران إلى الشاشة التي كانت مرتفعة فوق رأسيهما . حزمة ضوئية تنبثق من كوة في الجدار الخلفي كخط من الدخان الأبيض المزرق . كان شارلي شابلن يركض بقدميه السريعتين وعكازه الرخيصة . . . وحين مرت سيارة سريعة طارت قبعته المثقوبة عن رأسه في الهواء .

شخص سمين وراءه . : . شخص يندفع بجنون نحو عمود . مكبر

صوت يزأر بموسيقى صاخبة من مختلف النغمات ، صوت يرتفع من أعماق الصالة المليئة بدخان السجائر- كانا جالسين وسط قهقهات عالية جذلة وتصفيق عاصف .

- الجو خانق هنا أليس كذلك .

فهزت رأسها وأخذت ترتدي قفازيها .

جلسا في نادي السيارات . كانا يتطلعان إلى الزجاج الذي تبدو حبات المطر عليه كأنها شرارات ذهبية ، يلمع المطر مثل ماسّات مختلفة الألوان ، نور مصابيح الشوارع والإعلانات المضيئة تومض في الأعالي المظلمة للشارع بلون أحمر قان .

***

سار إدوارد في شوارع أورشليم وقد سمع أغنية تنبعث من مذياع قديم :

(يا بيتي يا بويتاتي ، يا مستر عيوباتي ، فيك بوكل وبشرب وفيك بكبر لقماتي) .

أغنية تختلط مع صوت بائعات الليمون في خان الزيت ، أو سوق الدباغة . صوت معصرة الزيت قرب الجامع ، صوت المرأة التي تجلس بباب العامود . . . لمحات نساء يرتدين ملابس تشبه ملابس نساء إسماعيل :

رداء أزرق معقود عند الوسط ، تنسدل عليه الطيات المقببة لرداء أبيض آخر ، ويحملن جراراً من الفخار مليئة ومستقيمة على رؤوسهن ، يمسكنها باليدين كما هي تماثيل الكرياتيد في الاكروبوليس . نساء يغسلن عند النبع ، وأخريات يرتدين أثواباً جميلة ويضعن على رؤوسهن شرائط من الليرات الذهبية ، يرقصن تحت شجرة رمان كبيرة على مسافة قريبة من ينبوع هاجر .

لمحة عابرة ، تنهدات ترتعش ارتعاشاً خفيفا فوق الستائر الزرق وهي

تنزاح في توجسات الطرق المعتمة . . . مر أمام إدوارد حشد من السياح الذين يحملون الكاميرات ويبحثون في الحجر القديم عن ضوء نافذة مفتوحة ، كان يمكن لمطر خفيف أن يبلّل الأرض المرصوفة ، وكان يمكن للحجر المرشوش أن يبعث رائحة نفاذة تسكره بذكرى بعيدة غامضة ، تسكره بذكرى طفولية أبداً ، هابطة دون قرار ، ذاهبة من غير رجعة ، من هنا مرّ يوم كان طفلاً . . . قال ليائيل . . .

من ساحة النافورة كان يسير مع أمه نحو السوق . . . كان نحيفاً وساقاه رفيعتان في الشورت الأبيض الواسع ، وكان قميصه مفتوحاً . . . كان يبكر أول الصبح على حافة النهار المضبب ، يقف أمام هذه البيوت الساكنة والشاسعة ، أمام الأشجار المشعّة وكأنها تترقرق في الضوء ، يسمع الماء يخرخر في حديقة منزل كبير السياج بوشيش خفيض يتكرر ، وهو يحسّ عبر كل هذه السنين الطويلة ، يحسّ بالطراوة تحت أقدامه الحافية ، ويشعر حتى اليوم بالهواء البارد وهو يرطّب وجهه .

***

توجّه يائيل وإيستر نحو المنزل .

– هل عبرنا الملينيا . . . هذه العجائب الجغرافية ساعة الازدحام في أورشليم . قالت إيستر .

– يمكننا أن نتزحلق على حرمون . . . قال يائيل .

– مرت الميركافا . . . من هناك . . . مرت الدبابة الأكثر دموية وهي تحارب في التاريخ .

– هل كانت تتتبّع ثانية خطوات السيد المسيح حول الجليل . . . قال السائح وهو يضع المنظار على عينيه .

مرت السيارة على مياه كينريت وقد أقبل المساء ، المنحدرات تفضي إلى القرية ، وديغانيا الكيبوتز الأول يمتزج بالأرض القريبة منه . . . هذه

خرائب بيت شنعان على الطريق الروماني القديم . . . هذه عين هنتزيف ، هذا هو كيبوتزي ، من هناك أسفل وادي الأردن وأريحا ، المدينة المسكونة الأقدم في العالم . . . قال يائيل . . .

صيحة حجرية تطلقها الصقور بين الجبال . . . رحلة في أرض صامتة من بعيد ، فجر جديد . . . صحو في الشتاء . . . وقلب إدوارد ينقبض أمام هذه العظمة التي يغادرها كل يوم . . . العظمة الحزينة هي نشيد الطير الآتي من الجانب الآخر للهضبة ، هي الانسياب المفاجئ للماعز الجبلي . . . أو الوجه الحي لأورشليم الغارقة في الظلال الداكنة والباردة . . . وهناك صورة العربي الذي يتقدم على حماره في الغسق الجميل والرنان . . .

قال يائيل :

قبل ثمانية أعوام قرّرت تشييد منزلي هنا . . . غير أن علي اليوم إعادة تقييم ما فعلت . . . فسفرتي خارج البلاد مكنتني من رؤية الأشياء من منظور مختلف . . .

– ما هي سمات هذه البلاد . . . ؟ – كنت أسأل نفسي –هل أنا صاحب امتيازات كي أصبح جزءاً من تاريخ هذه البلاد الرائعة . . . ؟ . . . أنا يهودي بسيط خرج من الغيتو الصغير إلى غيتو كبير يحاربه كل المحيطين به . . . نحن نمر بصعوبات كثيرة لو تعرف . . . صعوبات كثيرة . . . نحن موضع هجوم أعدائنا العرب . . . واقتصادنا ضعيف . . . ونحن نواجه تزايداً في السكان . . . ونتطلع لمواجهة التحديات بمرور الوقت . . . لا أحد يقبلنا هنا . . . ولا نحن نتقبلهم . . .

– شالوم . . . شالو . . . .شال . . . .شا . . . ششششش . . . قال المخبر الصغير .

خمس مناضد (تحجز مقدماً) . . . خمس مناضد بالضبط . . . في

حانة نعومكن . . . فالحيطان خشب مغطى بألواح ، ومزيّن بالمخلفات التذكارية التي جمّعت طوال عقود . . . عتقها منحها سحراً عميقاً . نُدُلٌ فطنون ومؤدّبون جداً ، وبإفراط تقريباً . مناضد موضوعة عليها مفارش مائدة ومناديل بيض هشّة ؛ مجموعة انتقائية من زجاجيات تستعمل لتغذية العديد من الأسماء المشهورة وسقايتها طوال سنوات .

- اطلب الشوربة اليهودية فهي لذيذة جداً . . . اطلبها أنا لا أخدعك

- اطلب الشوربة وصلصة التاباسكو . .

- أوصيناك أليس كذلك . . . ليمون . . . ماء بارد .

- الوجبة الرئيسية ، استقرت على وينر شونتزل . . . صحن آخر من شونتزل . . . كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون .

- إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا والسيدات الآسفات والزلزال . . .

- خبز . . . لحم بقر . . . خدمة بصلصة هورسراديش . . . والعديد من المسرّات الأخرى . سنشترك بالكعكة اليهودية . . . الكلوغل . . . كلوغل . .كلوغل . . .

نحن مسرورون لشهادتك في الكوشر . . . لكننا سنواصل المشي السريع حتى مركز القدس . .

***

جاءه صوت آخر وهو يصعد من شارع بتسلئيل ١١ ، صوت رخيم خارج من شبابيك وأبواب مركز الثقافة البلدي ، صوت يعقوب وهيلدا بلاوشطين :

مادرحوب معرض فريد من نوعه . . . مادرحوب . . . مادرحوب . . . معرض فريد من نوعه هل تعرفون ذلك؟

هل سألقاك هناك؟ هل سألقاك في شارع بن يهودا ، أو في ميدان

صهيون ، هل سألقاك في شارع لونتس بن هلل ، أو في شارع الهستدروت؟ هل سألقاك هناك؟ في الشوارع فعاليات كثيرة ، في الشوارع معارض عديدة ، وسترون هناك أجنحة لليانصيب ، وستشهدون مسرحاً في ميدان صهيون ، هنالك عروض في الشوارع وفنانون قادمون من كل مكان من العالم ، كما أنكم ستسمعون محطة إذاعة ١٠١ اف ام ، وستسمعون أنغاماً موسيقية دائمة ، وستشهدون حملة تنزيلات ، وستدخلون منطقة حوتسوت هاعير ، كل شيء مجاني هل تعرفون ذلك؟

كل شيء مجاني . . . هل تأتون؟

شوارع أورشليم تعج بآلاف المشاركين ، تصطبغ بألوان عديدة ، بروائح مختلفة ، بمذاقات كثيرة ، بموسيقى متنوعة . . . أنتم مدعوون للتسوق والمشاركة في اليانصيب ، أنتم مدعوون للفوز بجوائز قيمة خلال الصيف ، كل شيء بين أيديكم : أطعمة شهية ، احتفالات المآكل الشعبية ، احتفالات حلو المذاق ، عالم المرأة اليهودية الساحرة ، عالم الرجل الأنيق ، عالم الطفل . . . صيف إسرائيل الجميل . . . رياضة وصحة . إنها بلادكم . . . واجهاتها التي توحي بالغموض ، وستائرها القاتمة التي تُحْدِثُ ما يشبه العتمة ، وحجراتها المنفصلة الصغيرة المضاءة بمصابيح خافتة ملونة ، وصورها المثيرة المعلقة على الجدران ، وأرائكها الواسعة الضخمة .

شيء مجاني هل تعرفون؟

***

نقطة مضيئة . . . نقطة مشعة أخرى . . . في الأسفل أقدام رجال فلسطينيين . . . سيقان نساء ، أقدام محوطة بالحديد . . . طقس ضبابي في أورشليم . . . سكر . . . لا . . . شكرا لكم . . . أنتم دولة المستقبل . . . أنتم إسرائيل المستقبل . . . ضوء نار تندفع . . . تحيل الغرفة حمراء . . . باستثناء وجوه الفلاشا السود وعيونهم المشرقة ، بينما في الخارج وقفت

سيارة فان تفرغ حمولتها .

قال بوخنفالد :

«الآنسة إيستر تحتسي الشاي وحدها ، جالسة إلى طاولتها وألواح زجاج قريبة منها» .

على الطاولة التي أمامها خلعت إيستر جاكتتها ، فبان إبطاها الحليقان والمعطران . . . تقدم يائيل نحوها مختالاً مثل طاووس . . . «الجندي الذي كان في جيش الدفاع تسرح من الحرب» . . . قالت إيستر .

اقترب منها وقد انعكس ضوء المصباح على وجهه ، مسكها من يديها وأوراق شجر الظل تنحرف باتجاه الزوايا ، تنحرف نحو النافذة التي ينفذ الضوء من خلالها .

صندوق هرتزل بغطائه الرقيق ، بغطائه المرشوش بالفضة ، بأوراقه ، بخاتمه الذي اشتراه من القدس ، بملابسه السود ، بقبعته ، بعصاه المقلوبة في الصالة ، صندوق هرتزل يتجمع حوله مجموعة من الجنرالات لتفحصه . . . خريطة جديدة لفلسطين . . . خريطة شبه ممزقة غارقة في الظل . . . ثلاثة أشخاص يحاولون تجميع المادة التاريخية . . . صورة شعار على مربع رخامي مشجر . ومن الأعماق العاجية البيض تبزغ الكلمات ناشرة على الرقعة سوادها . . .

- هل هذه الخريطة تسمح لنعيش فيها آمنين ومسالمين . . .

- الخريطة ليست الأرض . . . ليست الجدران . . . ليست الناس . . . ليست اللهب ، ليست الدخان ، ليست الشرارات التي تنطلق وتحرق . . .

- النهر في الخريطة بلا ماء . . .

- هل تسمح الخريطة لنا أن نزيح بشراً . . ونضع بدلاً منهم بشراً آخرين . . .

- هل تسمح لنا الخريطة أن نعيش آمنين . . . ولا نمضي عمرنا

بحراسة الحدود . . .

- آن الأوان أن يسافر المربع الرخامي إلى مكان آخر ، آن الأوان لمنارة الجامع أن تتهدّل وتنهار وتحلّ محلها معابدنا ، آن الأوان لمعادي السامية أن يدفعوا الثمن . . . وأن يشعروا بالذنب . . . أليس كذلك؟

***

وقف اليهودي هناك وهو يحمل سلاحه ويصوبه إلى صدور الشباب الذين يرتدون الكوفيات البيض والعقل السود .

- أنت عربي أليس كذلك؟

وقف العربي وهو يحمل بندقيته ويصوبها إلى صدور شباب يهود يرتدون القبعات السود والطاقيات؟

- والداك يهوديان هل تعرف ذلك؟

وقف يائيل في الظل يشرب القهوة الساخنة ، يرتدي معطفه الأسود وسيجارته في فمه . . فضاء أبيض . . . أزرق . . . نجوم تتلألأ في سماء سوداء من المخمل ، تجلس إيستر راضية بالقرب من يائيل . . . إسرائيلية تجلس راضية قرب صديقها . . . تتمدد على الصوفا بكسل ولا مبالاة وتضع رأسها على فخذه . . . قالت :

- ألا تخاف من الحرب . . . الحرب تدوم . . . حرب لا تنتهي . . . نقطة يتبعها تجار السلاح اليهود من أوربا . . . أليس كذلك؟

- لنستمع اليوم إلى موسيقى في ديزي جيلسبي . .أو تشاري باركر . . . أو سوني رولتز . .أو ولي مورغان . . . قال يائيل .

- لنذهب اليوم إلى مسرح يروشالايم للفنون المسرحية على اسم شروبر .

- ليكن نصف الشعب في الموساد . . . ليؤدوا خدماتهم نحو دولة إسرائيل أليس كذلك . . . ألم تجمعهم الأرض وتنجيهم من المحرقة . . .

أليس كذلك . . . ؟

- نحن آسفون صدقني . . . آسفون من هذا السؤال .

بوخنفالد الذي يجمع المال من الكيوبتز لا يملك شيكلاً واحداً . . كل ما عنده كان يحمله ويعطيه إلى الرفيق . . . ويعود مالك الحزين مرة أخرى إلى سماء إسرائيل . . . حرب تخبئ نجومها ثم تعود وتكشفها - سنعيش هكذا في التعاسة . . . سنعيش على الحافة . . . كل مرة يحملنا الجنرالات بأيديهم إلى المحرقة . . . نصل إلى الحافة لننزلق . . . ويأتي من ينقذنا .

كان ذلك كافياً بلغة اليديش لنفهمه . . . كان ذلك كافياً جداً . . . لم يكن يائيل في فوج الإسناد على الجبهة مع تاخكموني . . . لم يكن هناك ليجعل عين إيستر تنزلق إلى حافة الجريدة وهي تقرأ نبأ الحرب . . . لتنزلق وترى وجه المرأة المسكينة - خالياً من كل دلالة ، الحرب . . . الحرب . . . oyvey . . . oyvey . . . oyvey . . . لا تتلفظ بها يا عاموس . . . لا تتلفظ بها يا عميخاي . . . لا تتلفظ بها يا غروسمان . . . هذه النظرة هي مصيرنا . . . كنا نخاف أن يشنّ العرب علينا الحرب . . . واليوم نحن خائفون لأننا نحن الذين نشنها . . . نشنها . . . ونعود ونشنها . . . ونخاف منهم . . . متى ينتهي الخوف . . . يا يهود إسرائيل . . . ؟ قالت إيستر .

- هذا ما تراه في عيون الناس ؛ الحياة هي ما تعلموها في الدولة الجديدة . . . هي ما تعلموه فعلاً ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم لا يرجون إخفاء ذلك أو التوقف عن إدراكه - ماذا ؟

- هل هي الحياة هكذا كما تعلمتها في المدرسة العسكرية في كريات شمونة قبل احتجازهم . . . قبل أن ترى خمسة أشلاء لدى الباب . . .

أبناء اللد - هبوعيل كريات شمونة . . مكابي الإخاء الناصرة . . . هبوعيل بئر السبع - كريات شمونة . . . خمسة وجوه مقابل خمسة وجوه أخرى تنتصب أمام كعكة الكوغل اليهودية . . . تنتصب هناك في الكيوبتز

في كفر ميلودي . . . أو كفر سابا . . . وقد دخل الغريب الذي يريد أن يكتم الناس سر وجوده بينهم . . . لا علامات تحفظ على وجوههم ، لا علامات استفهام : شفاه مغلقة ، عيون مظللة ، كل واحد من أولئك الخمسة يفعل شيئاً ليخفي معرفته أو يسفهها . أحدهم كان يدخن سيجاراً ؛ آخر كان يقرأ إيدعوت أحرنوت ؛ ثالث يتفحص كتاباً عن حياة بن غوريون ، جنرال يحدق في خريطة معلقة على الحائط . . . ويقول كل هؤلاء هم أعداؤنا . . . إيستر لا تفعل شيئاً على الإطلاق . . . إنها تنظر وحسب . . . تنظر في المرآة مرة . . . ومرة أخرى تنظر يائيل لدى الباب . . .

- تعالوا نلعب اللعبة مثل كل مرة . . . اللعبة التي خاطرنا جميعاً بلعبها . . .

- هل سمعتني أنا أنظر فوق . . . وأنظر تحت . . . واللعبة جميعنا يكتمها .

تعتذر إيستر منه :

- فقط لو كنت تعلم . . . ؟

انزاحت قليلاً في مقعدها وتنهدت . كانت تريد أن تعتذر له ، كانت تريد أن تعتذر ، ولكنها قالت له :

«فقط لو كنت تعلم . . . لو كنت تعلم . . . ولكن؟!»

ثم نظرت إلى الصحيفة . . . وأجابت دون أن يخطر في بالها أنها تقرأ خبر الحرب . . . أجابت وهي محدقة في اليدعوت أحرنوت :

أعرف أن السلام لن يأتي قريباً . . . أعرف أنه غير موجود على الأقل في هذه الأيام . . .

ولكن كيف ينتهي الأمر بيننا . . . والحرب . . . وأدوار الاستعراض . . . واستوديوهات إسرافون واستوديو ستيريو ١٦ . . . والروس الذين يعزفون على كمنجات غوليفر . . . واليديش تسايتونغ . . .

والجاسوسة التي قبضوا عليها في مكان ما . . . واعترافات بن غوريون . . . وسجق الخنزير الذي أكلوه في الكوشر . . .

– قالوا لنا هذا خنزير كوشر لاستهلاك الخبراء العسكريين وتجار السلاح فقط . . .

ثم ماذا بعد . .ألسنا في إسرائيل . . . ألم نتخلص من المحرقة . . . لكننا نتظاهر بأننا لا نعلم . . . نتظاهر بأن كل شيء موجود اليوم كما كان أليس كذلك؟

***

سارت مجموعة من النساء نهاية السوق ، سارت مجموعة أخرى من النساء القصيرات ، البدينات ، المتسربلات بالفساتين المصنوعة من الكتّان الأسود . . . يهوديات يطفن على مهل في متاجر كبيرة . . . نساء يغادرن منازل فارهة في ضواحي القدس الغربية ، يركبن سيارات الليموزين ، أو يدخلن محلات شبيهة بمحلات الماربل آرش أو ماركس آند سبنسر ، نساء بدينات ، غامضات أيضاً .

وعلى قمم مرتفعات المدينة المقدسة منازل متواضعة البناء ، تتوسطها منازل فخمة . . . شوارع ضيقة لا تتسع لمرور سيارتين في آن واحد ، وفي الطرف الآخر طرقات واسعة تملأها سيارات المستوطنين الفخمة والحافلات العامة وعمال البلدية الذين يعتنون بالورود المنتشرة على الجنبات . . . هنا راموت . . هنا مفساريت . . وهنا إكسا . . . وهناك الباشورة . . . نساء مستلقيات على المصاطب ، نساء يتشمسن بعد أن يطلين أجسادهن بالزيت الواقي ، نساء يتحمّمن في المستوطنات ، جنود يحرسون الطرق والنساء والدجاج في الكيوبتسات . . . أحياء يهودية نظيفة ومرصوفة بالأحجار . . . أحياء مسلمة ونساء سافرات ومحجّبات ، نساء خلف النوافذ الحديدية مسجونة ، عيون خلف قضبان الشبابيك تراقب الشومير

يفتشون الداخلين والخارجين ، صحفي يصوّر الدبابات الميركافا . . . وعند باب عناتا قريبا من الشارع الرئيس رابطت دورية إسرائيلية .

سار إدوارد في ذلك المكان فشم رائحة الفلافل والمخللات تنبعث من مطعم قريب ، كشك قريب يبيع الزعتر ، والعطور ، والتوابل ، محل يبيع اللحم البلدي . . . صوت فيروز يصدح أول الطريق . ماء مرشوش على الطريق . رائحة جوافة تنبعث من دكاكين الخضرة ، بوفيات تعرض طناجر الزيتون الأسود ، سبيل الماء منذ عهد المماليك قائمة في الزاوية . . . صبايا جميلات يشترين حلوية الكسبة من دكان أبو كامل الصالح في السلسلة ، لغز محيِّر ، نظرة أنثوية محدّقة ترشح من وراء قضبان الشباك الحديدية .

وقف إدوارد أمام سوق العطارين حيث تنتشر الروائح والتوابل .

امرأة تتناول شراب الخروب ، ابنها يشرب العرقسوس ، زوجها يشرب شراب اللوز .

سيدة تدخل سوق الخواجات .

في الطريق هدايا الأعراس والأثواب معلقة ، مقاعد مصفوفة على مقربة من سوق الصاغة القديم . . . نظر إدوارد سعيد إلى قباب مقرنصات ، إلى عارضة فوق ماء سبيل ، إلى مؤمنين هنود يدخلون خان الزيت ، إلى طيور تحطّ في ساحة مسجد الأقصى ، إلى رجال يغتسلون عند الميضأة التي تفيض ، إلى مجموعة من الشبان وهم يدهنون الأعمدة بالزعفران ، إلى طرّاش يتفحص باب حبس العبيد .

ها هي القدس . . . ها هي القدس . . . قال إدوارد في نفسه .

ها هي في الصباح تستيقظ تحت زقزقة العصافير . . . تستيقظ على رائحة الأرض الندية . . . أروقتها باردة ، جدرانها تبعث رائحة قديمة ، وعند باب القطانين ينظر إدوارد إلى التزيين على الأبواب التي جددها محمد بن قلاوون . . . إلى المآذن المزخرفة ذات الجوانب المستطيلة ، إلى القبة الصغيرة

التي تستدير من بعيد ، إلى امرأة عجوز تجلس عند باب المغاربة وقد تغيرت كثيراً . إلى رجال يصلون أمام حائط البراق ، إلى فتاة صغيرة تمد رأسها لتشرب من سبيل قيتباي بجانب المصطبة .

ها هي القدس . . . ها هي القدس . . .

زخارف نباتية خلفها العثمانيون . رجل دين بعمامته البيضاء التي لفها على طربوش أحمر يسير عند ميضأة الكأس في المسجد الأقصى . قباب عالية تبدو من بعيد . مآذن رفيعة مثل شموع النذر ترتفع إلى أعلى . أسبلة عديدة جوار الجدران الرطبة والعتيقة تطفح بالماء البارد العذب . مصاطب خشبية منتشرة هنا وهناك . محاريب واسعة مقرنصة . شجر معمر يفرش أغصانه في الهواء . مرافق عامة مزدحمة . خلوات وبوائك متعددة . مدارس ومكتبات تشير إليها اليافطات . خزانة زجاجية فيها آثار مسجد عمر وعلى مقربة منها مسلمون يقرءون القرآن بمشهد يطل على السياحرة وسلوان . أضواء ملونة تطل من الزجاج المعشق .أشجار سرو وصنوبر عتيقة . مصطبات وساحات مسجد صغير .

يذهب في غيابه إلى نهاية الصفاء ، يصل إلى حافة السلسلة ، يطل فيها بنظراته الهادئة ، النهار يتبخر على جذوع الأشجار وعلى أوراقها النضرة ، وجه مشمس يصغي لصخب الماء في الميضأة ، ماذا تغسلون في جداول العزلة؟ اللحظة صافية وفي شمس النهار يتفرع الماء ، مشهد الرؤية ناعم والطراوة التي تهبط من أعلى تتشرب في القرميد ، الوقت قادم وعروق الأشجار تتيبس في اللحظة . . . عم تبحثون أنتم إذن؟

يدخل إدوارد درجاً حجرياً جنوب المسجد . ينظر المسجد المرواني من الجهة الشرقية تحت ساحة المسجد الأقصى . . . يصل البائكة الجنوبية ، يرفع رأسه وينظر ساعة الحرم ، يتجول في بوائك بركباتها وأعمدتها وأقواسها ، يتجول في ساحة القبة ، يهبط درجات المدخل الذي يطل على

ساحة مسجد قبة الصخرة ، يدخل المغارة الصغيرة .

نظرة من نوع خاص تركّزها الفتحة الضيقة المخصَّصة للعدسة ، آلة تصوير تلتقط شيئاً نادراً ولا تخطئ . . . نظرة تمتد من حجرة مظلمة محددة المنظر . يحاول إدوارد تصوير الشارع . . . شيء أسطوري عظيم جذبه . . . شيء مفاجئ جذبه إلى مكان ما في البعيد الغامض ، جذبه إلى ظلام غامض في أزقة القدس من قبل خمسين عاماً ، شيء ما جذبه إلى الأشجار المثيرة للضجة فوق الأسيجة ، إلى الكنائس الصغيرة خلف أسوارها الحجرية الصدئة ، إلى الأبنية الواطئة ، إلى الهندسة الحجرية فوق البوابات ، وقد ظهرت من خلل الدوامة ، إلى باحات البيوت ذات الآرمات الصغيرة ، إلى أبراج الحمام القديمة ، إلى المناضد المغروزة في الأرض تحت الأشجار المعمرة .

***

قالت إيستر :

كان الوقت ليلاً عندما وصل ايريل بوخنفالد إلى كيوبتز كفر فكتيم ، كان ذلك في العام ١٩٤٨ .

لمح من بعيد مجموعة من الأنوار المتفرقة ، ومجموعة من المزارعين ، وعند اقترابه منهم ميز الحمير من البشر ، كان بعضها ممدداً وبعضها واقفاً ، ثمة بغلة محملة بالأمتعة . خيول وحمير منزوعة اللجام تأكل الشعير في دلاء من الجلد ، وثمة عدد من الفرسان فوق الخيول . ثمة نساء محجبات يجلسن على السجاد وسيقانهن متقاطعة ، يتجمعن حول النار التي يستخدمنها في إعداد الطعام .

قال : لن يبقى أحد في هذه الأرض غيرنا . . .

في الطريق الذي كان ينظر نحوه ، مزارعون يدخنون الغليون عند باب الخان ، ويصغون للقصص ، آخرون كانوا يحمصون القهوة في مقلاة

فخارية ، وكان الميارون ينتقلون من نار إلى نار ، يقدمون الحنطة المجروشة ، والفواكه ولحم الدواجن.

دخلت الفرقة العسكرية إلى المدينة :

مؤمنون يتوضأون ، وآخرون يسجدون في باحة الأقصى . حمالون ينامون ممددين على الأرض ، أرض مغطاة ببالات صغيرة ، وأكياس قطن ، وأكياس رز . حاجيات جلية مضاءة بحدة ، وقسم منها غارق في ما يشبه الظل .

وفي الخمارة قال الراهب لإدوارد :

«هذا هو المسيحي المجنون . . . هنا . . . إنه من بيت مسيحي عريق . . . كان جده مصاباً بمس غريب . . . جده ترك قريته في حيفا صدقني وانتقل إلى القدس . . . يقال بسبب عداوات كثيرة مع عائلات مسلمة ومسيحية هناك . . . عداوات بعضها ينسى وآخر يورث . . . » .

نعومكن . . . بيرة من فضلك . . . نعومكن . .لا تنس الماء البارد . . . يقولون بأنه خرج في ثورة العام ١٩٣٦ يحمل العائلة على حمارين وثلاثة بغال لحمل الأغراض ، وانتقل إلى مكان جديد ناسجاً صورة جديدة للعائلة . . . ويقال أيضاً إنه رأى بعينيه مجموعة من المسلمين يقودون ابن عمه إلى أعلى مئذنة الجامع ، ثم يلقونه من الأعلى ليموت هناك .

كان إدوارد يتفحصه وهو يتحرك بطريقة غريبة ، على خلفية المشهد يظهر صراع الهويات في الشرق الأوسط ويتوضح .

سائح يحمل دفتره . . . دفتر الراهب المسيحي الذي يكتب تأريخ المسيحيين في هذا المكان ، وباللغة ذاتها التي يتكلمها المسلمون .

خط طويل ومتعرج ومتنوع ومتداخل .

لقد ضرب المسيحي ابنه ، صفعه . . . لأنه أحب بنت الخوري ، اليتيمة التي مات أهلها ، والتي ربتها عائلة حدادين ، لكنها انتقلت

وعاشت خادمة في منزل آل أنطون في بيروت ، ويقال إنها عاشت مع كوليت العانس التي أجبرتها على ممارسة السحاق معها ، غير أنها لم تطل بها الحياة هناك وانتقلت بعد النكبة إلى القدس .

وقف يائيل أمام السياح مثل معلم وقال لهم :

في سنة ٥٨٦ ق .م كانت أورشليم تحت الحكم الفارسي عندما احتلها نبوخذ نصر وقام بتدميرها ونقل السكان اليهود إلى بابل .

قال : بقيت تحت الحكم الفارسي حتى احتلها الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق .م .

توقف قليلاً وتحدث لهم عن أورشليم بعد وفاة الاسكندر المقدوني حيث تتابعت الأزمات والخلافات بين البطالمة والسلوقيين ، حيث حاول سلوقس أخذ سورية وتأسيس دولة السلوقيين .

صوت صلاة طويلة وخاشعة . . . صوت سير المركب الذي كانت تدفع به الرياح التي تهب على البحر اللامع ، صرخة ترتفع وأخرى تهبط ، مدينة دائرية تحت أشعة الشمس . . . أرض المعجزات تتمدد على منابع الشعر الأكثر إدهاشاً ، وتتحول السواحل التي زارها فرسان الصليب : غودفراو دو بويون ورايمون دو سان جيل وتانكريد لو براف إلى الكشف عن صور كثيرة ، إلى الكشف عن حروب ونزاعات كثيرة . . . وإلى أشياء أخرى لم يكن تهمه بطبيعة الأمر . . .

أورشليم . . . عند حلول منتصف النهار ، تغزوها تموجات بيض يولدها تناقض الضوء والظل ، نتوء على الخط المائل ، على الخلفية التي تملؤها الغيوم البيض المزركشة . . . والقمر الذي بدا بهيئة مدهشة ، هيئة صحن وهو يرشد السفن إلى المدينة المقدسة .

ها هو إدوارد في القدس ، يتملى بوجوه عديدة ، بوجوه سمر تبرز منها عيون كبيرة ذاهلة ، ملابس عربية واسعة ، ملابس بيض تسير نحو

الأقصى تسبح أمام ناظريه في الهواء ، دورية إسرائيلية تصل ثم توقفهم ، وتمنعهم من الصلاة داخل الحرم ، رجل يجلس في دكانه أمامه قراطيس كثيرة ، ومجسم للكرة الأرضية على مقربة منه ، صورة فلسطين على الحائط ، وتمثال على قاعدة من كتب سميكة .

- كان هرتزل هنا يديم النظر في الوجوه وهو يسحب الدخان من غليونه وينفثه في الهواء . . . قال يائيل للسياح الذين يحيطون به .

وقف هرتزل في هذا المكان وهو يسحب شفتيه من تحت مبسم الغليون المصنوع من الأبنوس ، كان يرهف أذنيه لبعض اليهود وهم يتلفظون أمامه بكلمات قليلة باليديشية . كان ينظر إلى رجل فظ بينهم وهو يعنف رجلاً آخر بعنف ، بينما وقف الحاخامات أمامه حاملين كتبهم ومحدقين بأوراقهم . . . وقف مندهشاً من يهودي يرتدي بذلة رمادية فضفاضة تكشف عن جزء كبير من صديريته ، يتخطى بأقدامه الطويلة أمامه ، ينظر الساعة التي علقها بصديريته بلمحة واحدة ، كانت حركته بطيئة وهو يتكلم عن الأمة التي ستأتي يوماً ما هنا وتصنع المعجزة .

أبدى امتعاضه من الدخان الخارج من غليون هرتزل ، أخرج من جيب صديريته ورقة وقدمها للحاخامات ، أمسكوا بها وهم ينظرون إليها على كفه .

وفي منتصف الليل تماماً نفض هرتزل غليونه في المنفضة ، دفع حساب الفندق ، مد يده وودع الحاخامات ، وعاد إلى منزله في فيينا .

***

وقف يائيل مثل معلم وقال للسياح :

أورشليم . . . أورشليم التي افتتحها الرومان في العام ٦٣ ق .م بقيادة بومبي . . . أورشليم العظيمة التي دمرها هادريانوس في الماضي وسحقها بجيشه . . . أورشليم التي تحولت إلى مستعمرة يونانية اسمها «ايليا

كابتولينا» . . . أورشليم التي تحولت في العصر البيزنطي إلى مدينة مسيحية . . . أورشليم التي حكمها الإمبراطور قسطنطين وسماها إيليا . . . أورشليم التي شيدت فيها الملكة هيلانة كنيسة القيامة في العام ٣٣٥ . . . أورشليم أورشليم التي احتلها الفرس ثانية ودمروها تدميراً تاماً ، أورشليم التي احتلها البيزنطيون ، أورشليم التي أخذها المسلمون وسموها القدس . . . أورشليم . . . عادت إلينا . . .

كلمات محروسة ومحفوظة في كل زاوية من هذا المكان ، وحديث كأنّه من دسم ذاكرة بعيدة ، رفرفات أجنحة طيور قديمة في أورشليم تحرك هواء قيلولة الملوكِ . وتصنع من حركة ريشها أغنية في الصباح . أسماء قديمة ضائعة في وهاد ومتاهات المدينة ، وفرسان يقفون عند ضفاف البحيرات السعيدة ، يربطون خيولهم على شِفاه الحجر ، ويتحركون برفقةِ ظلال الغيوم على الأرض .

- أبو عبيدة . . . صاح . . .

سار أبو عبيدة بن الجراح بعمامته السوداء . . . بسيفه ودرعه وحصانه القادم من مكة . . . ثم توقف هناك بوجهه الأسمر ، بلحيته الكثة ، بعينيه الواسعتين الشبيهتين بعيني صقر . . . توقف أمام أسوارها الصامدة طوال مدة الحصار ، توقف قليلاً ، ثم تحرك بحصانه أمام مقدمة جنوده المتجمعين حول أكبر بوابة فيها . . . كانت الشمس الساخنة مائلة جهة الغرب . . . وبضع قطرات عرق تنضح على جبينه الأسمر . . .

- أبو عبيدة . . .

التفت جهة البوابة الكبيرة التي فتحت أمامه . . . خرج أكبر بطاركة المدينة ، بطرك الروم صفرونيوس ، سار بخطوات ذابلة ، بملابسه الملونة التي كانت تبرق تحت وهج الشمس ، سار بخطوات وئيدة متعثرة وخلفه مجموعة من الرهبان ، مسح بيده على وجهه الأصهب الذي يشبه النبيذ ،

قال للقائد العربي المسلم :

- لقد قرأنا في كتبنا أن المدينة يفتحها رجل أحمر .

مسح القائد على جبينه ، التفت إلى مساعده الواقف بحصانه خلفه ، وأشار له بلحيته . تقدم القائد وهو يخرج من خرج حصانه كتاباً مصنوعاً من جلد غزال .

- ما هذا . .؟ قال صفرونيوس .

- إنها العهدة العمرية! قال أبو عبيدة .

***

دخان يتصاعد من أفق مضبب بعيد . . . لقد أعتم الشرق تحت سماء نيلية داكنة .

دخان أبيض يتصاعد ببطء وهدوء شديدين . جيوش تتقدم على قرع طبول مصنوعة من جلود الجمال ، جنود يحملون الرماح النحيفة إلى أعلى ، وقد شدوا في أعلاها قماشة صفراء تخفق في الريح ، شيوخ بعمائم سود وقفاطين مبطنة ، قادة على جياد صهب يسيرون بحركة وئيدة بين دروب ملتوية وعرة مغطاة بطبقة خضراء متراصة ، وقد حملوا سيوفاً ودروعاً ورماحاً ، كانوا يسيرون بينما تخفق الأعلام السود عالية أعلى رؤوسهم .

تقدم صلاح الدين بجواده الأشهب وقد هبطت على جانبيه الركائب المذهبة . لحية صهباء محناة ، عينان صقريتان مكحلتان تدوران ببطء في محجريهما . وضع يده اليمنى على قبضة سيفه ، وأمامه شيخ يمسك مجمرة فضية بيد ، ويحرق باليد الأخرى البخور .

كان صباحاً أزرق شفافاً ، كان صباحاً جميلاً يغمر ببهائه الناضج وثرائه غرة الفاتحين ، وعلى الجانبين كانت الطراوة تقطر ببطء ، كانت تقطر وهي تنشر في الهواء الشفاف رائحة معطرة ، رأسه ودرعه مغموران بأشعة

الشمس وهو يقف متلفتاً في المكان ذاته الذي وقف فيه أبو عبيدة الجراح قبل سبعة قرون تقريباً ، وقف وقد التف من حوله ألف منجم فاطمي يحملون الكتب والقراطيس ويتنشقون رائحة عميقة منبعثة من الأرض .

توقف الجيش وكان نقع الغبار يتصاعد وراءه .

ترجل القائد من صهوة حصانه وتخطى خطوات على الأرض ، نظر إلى انحدارات التلال الوعرة ، نظر إلى امتداد الصحراء وراءه ، ثمة جنود ينصبون خيماً وسرادقات ، ثمة نيران تتوهج من بعيد ، نهيق خيول يسمع من وراء التلال ، ضباح إبل حزين ، وعلى مبعدة جلس بضعة رجال بالعباءات الباذخة المبطنة بالفرو وأحزمتهم مليئة بالخناجر .

في الوديان كانت هناك تنهدات خافتة وصلاة على قبور مشيدة على الرمل ، قبور تسفعها الريح ، فرسان ماتوا على حافة الصحراء . أبراج مسننة سيطر عليها الصليبيون ، أبراج صامتة ، ركام جثث محصنة بتراب ، تعفن جثث على أرض وعرة . قبرات تثرثر على مذبحة ، أسرى جالسون بصمت على ركبهم ، صليبيات محشورات في طرف الخيمة ، مستلقيات على سجاجيد مزخرفة ومحروسات بجنود مسلمين .

تانكرد . . . تانكرد . . . ترف ضائع . . . برانص قانية من الصوف ، أردية تتموج ، ألوان صاخبة وصارخة ، أسلحة براقة ، مواكب مدججة بالسلاح ، إبل تهبط ، صرخات ذئاب ، أصوات ابن آوى ، ضربات مريعة هابطة على أعناق أسرى مسلمين ، قادة يجوسون بأرجلهم خياماً هدمتها الكلاب والبغال .

وقف تانكرد . . . وأشار بيده ، فأخذت السيوف تنهال على رؤوس الرجال الملفوفة بالعمائم البيض ، كانوا يتهاوون كما لو كانوا يرقصون بنشوة مأتمية مخدرة ، وجوه تهتز ، أيد ترتجف ، أفواه تتمتم بهلوسة معربدة ، أشباح سود ترقص على إيقاع طبل وتدور على عربي يُذبح أمام النار .

مؤمنون يقرفصون بالملابس البيض بصورة غامضة ، رجال يكتمون نوباتهم المسعورة ، سحرة يرمون ثعابين صغيرة بأكياس أخذت تتلوى على الرمل .

خلف أورشليم . . . امتداد بعيد . . . صحراء لا متناهية كئيبة ، خواء مقفر ، خواء موحش ، وجوه صنمية متجمدة . رجال يرمون أنفسهم وسط النار ، مؤمنون أذرعهم متصالبة في رقص هائم ومنتظم ، وعلى غناء حاد ، وزعيق مبحوح ، وصوت خارق ومروع .

- صلاح الدين . . . صلاح الدين . صاحت امرأة من بيت المقدس .

قال الرواة جاء صلاح الدين على جواده الأشهب . . .

جنود يطعنون رجلاً بالخناجر ، مخيم بعيد وبضع نساء يتجمعن حول موقد للنار يدفئن أنفسهن به ، دخان يتصاعد ببطء ، دخان من بعيد ، عربية تتقدم وقد أزاحت غطاء رأسها ، فكت رباط ضفائرها تاركة شعرها الأسود ينحل في حالة من الفوضى ، ثم جلست على ركبتيها وبدأت بتحريك صدرها ورأسها باتجاهات مختلفة . . . رجال يحيونها وهم يقرعون الطبول ، صوت يتصاعد ببطء ، انسجام كامل ، هيام حقيقي ، خصلة من شعرها بين أسنانها ، كانت تريد تغطية وجهها ، تاركة باقي شعرها في حركة مستمرة تبعا لحركة رأسها ، حتى انفصل رأسها عن إرادتها ، كان الشعر يجاوب حركات الطبل الذي تدق به امرأة جالسة قربها ، وقد أخذت تفلت خصلة ثم تعضّ على خصلة أخرى ، وكان الرجال يقتربون وهم يحاولون رؤية هذا الوجه الهائم والعينين الشبقتين ، والشفاه الجائعة ، والصدر الذي يصعد ويهبط بقوة أمام خيام حمر . نيران مخيم ترتسم على جسدها ، ومن بعيد كانت أورشليم تسبح بوميض أحمر .

- اطلب الشوربة اليهودية فهي لذيذة جداً . . . ضع النبيذ في كأسي . . .

- انتباه . . . انتباه . . . هنالك وجبات مختلفة سترونها في المنيو . . .

صلصة تاباسكو أوصيناك أليس كذلك؟

. . . ليمون . . . ماء بارد؟

الوجبة الرئيسية ، استقرت على وينر شونتزل . . . صحن آخر من شونتزل . . . كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون . . . أو شولنيت . . . من فضلك هلاشي . .

***

تقدم تانكرد نحو أورشليم بجيشه ودخلها بعد أن هدم أبوابها . . . ها هو تانكر يجول على حصانه في شوارعها بعد أن راكم آلاف الجثث على أسوارها . . . آلاف الجثث الساخنة السابحة بدمائها . . . هذا الرب المدفون هنا يستحق آلاف الذبائح عند قبره . . . فلتكن هي أعناقهم يا أهل أورشليم . . .

***

تقدم صلاح الدين نحو بيت المقدس على جواده الأشهب . . . كان وجهه النحيل مكتئباً ، ويده اليمنى ساخنةً وهي تمسك مقبض السيف .

***

تقدم اللورد اللينبي من بيت المقدس . . . سار قليلاً تحت أشعة الشمس ، ورجلان بالملابس الكاكية والنياشين وراءه ، خلع قبعته السوداء وقفازات يديه ، تناول مقبض عصاه وهزها قائلاً بصوت غائر أجش :

« اليوم انتهت الحروب الصليبية . . . »

***

تقدم بن غوريون نحو بيت المقدس ، كان يحمل علماً به نجمة سداسية ، وعلى مقربة منه جثا رجلان ارتدى كل منهما قميصاً بأكمام قصيرة ممزقة الأطراف ، وقد شداه عند الخصر بحزام عريض من الجلد .

صورة من التوراة قديمة :

رجلان وضعا خنجرين عند خاصرتيهما وقد ألقيا فوق قميصيهما غطاءين من الصوف مقلمين بخيوط حمر ، وغطيا رأسيهما بقماشتين هبطتا قليلاً على مقدستي وجهيهما ، كانا يتقدمان ببطء . . . أمامهما امرأة عارية ، امرأة تدلى من شعرها خرز ملون ، كان معصماها مقيدين بسلسلة ، وقد تحجلت بسيرين يضغطان على أسفل ساقيها ، وسيرين يحزان أعلى فخذيها الربلين ، بينما ربطت على خصرها حزاماً أحمر .

***

وقف منجم نحيف مثل رمح ، كان وجهه أسمر مثل صخرة ، وعلى كتفيه ضفيرتان صغيرتان تدلتا من خلف عمامته . وقف ، وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وهو يتملى في الأفق شحوباً غامضاً وطرقاً منعزلةً ، صعد من أعماقه وهن الرؤية الخفيف ، كان صلاح الدين ينظر إليه وعيناه تومضان ، وقد خدره الانتظار وهو يرقب وحياً يصعد مثل المد يشعره في أقصى المدى بمدينة أعظم من مدينة العباسيين .

التفت صلاح الدين الذي كان يرتدي درعه الصلب المكتوب عليه بالخط الكوفي لا إله إلا الله ، وأشار للمنجم بيده اليسرى وفي بنصره خاتم من الفضة يبرق في وهج الشمس وقال :

- من هذا الباب سندخلها . . .

***

لم ينطق تانكرد وهو يشير بيده النحيفة إلى الجند الواقفين على جيادهم أمامه ، ويأمرهم بذبح سكانها .

كل شيء قادم من مجهول ، يصبح في الحاضر وقبل أن يفهمه يذهب إلى الماضي ، ويصبح شيئاً مما مضى .

كل شيء قادم من القدس ، قادم مما مضى . . . قال .

وكما يفعل المجوس وهم يدورون وراء الكوكب المنقذ ، الكوكب الذي

لم ينفد ضياؤه أبداً ، الكوكب الذي يقودهم نحو المرفأ القريب ، المرفأ الذي تاقوا على الدوام الاقتراب منه ، رحلوا إلى الساحل المقابل للقيصرية .

مركب عند الظهيرة تدفعه ريح لينة ، مرج جبال يهودا ترتفع من بعيد ، وعند أسفلها يهبط سهل واسع حتى البحر . . . كان قصر قوطيا مهدماً تعلوه منارة متداعية مهجورة ، وعند حافة البحر ، كانت اليابسة تنتهي بشاطئ صخري أصفر مموج بالسواد ، يشرف على ساحل رملي ، حيث كان تانكرد يرى ويسمع أمواج البحر تتكسر عليه . . . كان يرى العربي الذي يتجول على هذا الساحل ، يتبع بنظره التواق المركب الذي يمر في الأفق ، لعله كان ينتظر جثة غريق عند الحافة بعينها ، حيث أمر المسيح إطعام الجياع وكسو العراة .

***

جنود يسيرون صفين صفين ، طفل يختلس الحياة من الغبار الذي يثيرونه وراء دربكاتهم المنتظمة .

بين لقاءين قصيرين كان الجنرال غورو يسعى أن يفهم جوهر الحجر ، جوهر الشجر ، جوهر الماء ، جوهر الشمس ، جوهر الصلاة في الشرق ، أن يفهم النسغ الصاعد والهابط ، أن يسرع نحو اكتشاف الأشياء ، أن ينظر عقارب الساعة ، أن يترقب مساقط الماء ، أن يرى تبعثر رذاذ النافورة على ميناء الحوض ، أن يصمت مثل كلمة تنصهر ، أن يتوهج مثل كوكب في شوارع ضاجة بالعتمة ، أن يخاف الشرق ، أن يراه نوعاً من الاقتران المريب بين الشك واللهب ، أن يتخيله وقد أصبح جزءاً من الأسطح الخرسانية في بلده ، وأن تصبح الأرض الخضراء مرعى للحديد . . .

رفع الجنرال غورو يديه أمام قبر صلاح الدين ، كانت الشمس ساطعة ، والمدى الممتد أبيض مثل شلال ، وتحت الخضرة القانية للشجر المعمّر صرخ بصوت عال :

يا صلاح الدين لقد عدنا مرةً أخرى .

***

عاد تانكرد . . . إلى مياه الصيف الخضراء في أورشليم ، عاد ليقف على الآثار الدارسة لقبور فرسان الصليب ، عاد إلى الصوت المرتجف في التاريخ البعيد والطالع كالنسغ الأخضر ، عاد ليرى النبات الغريب المنبجس في أقصى الرحبة الشمالية من أورشليم ، إلى الأثر الواضح من الفراغ المتعرج للأزقة . . . وهو يحدث قتلاه المسلمين عن عزلته ، وقتلى صلاح الدين المسيحيين عن تساقط الفاكهة ، وعن الحضور الليلي للأغصان .

***

عاد هرتزل وبين عينيه صورة قديمة من التوراة :

يهود يخططون الأرض المختارة طبقا إلى أرقام وحروف مكتوبة في كتاب ، فيضعون حبلاً طويلاً ومجدولاً وقد علقوا عليه أجراساً كبيرةً ، علقوا عليه نواقيس مثل نواقيس الكنائس ، لوى الحاخام رأسه بهدوء وهو ينظر نحو المدينة المخربة .

« إذا دقت الأجراس . . ستكون هذه مدينة اليهود . . . مدينة الله المختارة من عهد إسرائيل» .

***

قال إدوارد سعيد ليائيل :

أمويون ، عباسيون ، طولونيون ، أخشيديون ، فاطميون ، سلاجقة . . . صليبيون ، أيوبيون ، مماليك ، عثمانيون ، بريطانيون ، يهود . . . ايليا اسمها . . . بيت المقدس اسمها . . . القدس اسمها . . . أورشليم اسمها . . .

- احذرو السيارات لأن الطريق ضيقة . قالت إستر . . . وقد مروا تحت جسر معتم وضيق حتى وصلوا كنيسة الأرمن . . .

- استر المقدسة عند بوابة صهيون ، قال يائيل وهو يمزح معها ، أو ديفيد الطفل الذي منعه إخوته من محاربة فيليستينيس .

- ديفيد كان لا بدّ أن يبقى في البيت لأنه كان صغيراً جداً .

- ديفيد كان الطفل الأصغر . بينما خرج إخوته لمحاربة فيليستينيس .

- ديفيد كان لا بدّ أن يبقى في البيت لأنه كان صغيراً جداً .

- ديفيد قاتل وقتل أسداً .

- أمة إسرائيل خائفة من عملاق فيليستينيس .

- فيليستينيس أرعبهم . . . والده أرسله إلى ساحة المعركة لجلب الغذاء لإخوته . بينما سمع هناك بجالوت . . . ولذلك ألبسوه أفضل الدروع .

نزع ديفيد الخوذة ، والدرع ، وصحن الصدر ، ودروع الذراع ، ودروع الساق ، والسيف الثقيل وذهب إلى النهر ليجد خمسة أحجار ناعمة . قال جالوت لماذا ترسل ولداً مجرّداً لمحاربتي . لكن ديفيد قال : أنت تجيء لي بالسيف والدرع ، وأنا أجيء إليك باسم اللورد .

- أمتنا خائفة من عملاق فيليستين . . . قالت إستر . . . يوم خرج داوود إلى الحقل ونزع الخوذة والدرع وصحن الصدر ودروع الذراع ودروع الساق والسيف الثقيل ، وذهب إلى النهر ليجد خمسة أحجار ناعمة ، فصلى لرب إسرائيل . . .

درور الموج يصرخ على جثة أخيه المسجاة منذ حرب الأيام الستة : واحسرتاه على حياتك التي انتهت .

ضياع . . . ضياع . . . ألم أقل لك بأننا نعيش في ضياع . . .

المستقبل . . . لا تحدثني عن المستقبل . . . سينتصرون بحجارتهم كما انتصر داوود على جالوت على الرغم من عدته وسلاحه . . . داوود بالحجارة . . . وجالوت بسلاحه . . . إنهم تعلموا من داوود . . .

كان إدوارد يسير في أورشليم وهو يشعر برطوبة المكان ، كان يتنشق طراوة الهواء القروية . شيء موحش هناك يشعر به بقوة . . . وهو يتذكر صوت دزرائيلي الذي يضرب على الأعصاب ، الصوت الذي تكلم قبل أكثر من قرن عن العرق :

«لا شيء سوى العرْق . . . العرْق وليس ثمة شيء آخر» .

جملة دزرائيلي التي أوقظته في هذه الساعة ، جملة دزرائيلي المرتعشة في مكمنها منذ القرن ١٩ ، يسمعها وهو يسير في هذا المكان بالتحديد ، يسمعها في الزقاق الذي كان يقطنه أحد أعمامه .

مكان مبهم آخر من لندن الرأسمالية عندما كان يقطنها دزرائيلي . الثلج على مبعدة أمتار من منزله حين سار على الأقدام متجهاً نحو المكتبة . شارع ويستمنستر كالشوارع التي سدتها ثلوج لندن هذا الشتاء ، شوارع مهجورة قد تدلت أشجارها الحور العالية على الرصيف ، زغب الطيور وقد طار في الهواء ففرش الأرصفة بطبقات بيض ، وتراكم في الأركان التي لا تصلها الرياح قرب المداخل .

نظر إدوارد وهو يقترب من البناء الحجري القديم وكما لو كان يرى دزرائيلي في لندن الفيكتورية القديمة ، رآه وهو يبشر بالعرْق الذي يبقى ، العرْق الذي يضيء من نافذة مجهولة في ظلام التاريخ . نظر إدوارد إلى الأحجار البيض التي تبقعت بألوان كامدة متعددة . . . كما لو كان يرى دزرائيلي في عتمة صالة انكليزية قديمة يجلس إلى مكتبه ويفكر ، القناديل تضيء أقصى اليمين ، غير أن جو العتمة المقصود يخيم على أفكاره ، مع ذلك يبقى غارقاً في عتمة الصالة بين الألوان الثقيلة والخافتة . هنالك رجال آخرون يمسكون كؤوس النبيذ ويجلسون تحت ظلال قاتمة ، وجوههم ممسوحة في الظلام ، ملابسهم ولحاهم وقبعاتهم تتحرك أمام بيانو قديم ومكتبة عظيمة ، ومن النافذة كان يهود لندن يجمعون القشّ ويضعونه

قرب سياج الحديقة . . . هنالك جرس قديم من القرن الثامن عشر ، وعربة يجرها حصانان ، وبار تقف أمامه نادلة مفتوحة الصدر .

حفل كبير في الساحة القريبة من نهر التايمس في لندن الفكتورية ، ودزرائيلي يقبّل امرأته عند حزمة قشّ ، يقبّلها حتى السُّكْر ، يداعبها كقطّ مخمور من سعادته ، وقد ألقت بمنديلها الأحمر على كتفيه ، ووضعت يديها بين ساقيه حتى طلعت عليه حمرة الصباح .

سار دزرائيلي قرب البار ، كانت النادلة مفتوحة الصدر ، تبتسم له ، وعند عطفة الزقاق كان هنالك مجموعة من الشبان يشربون نخب تانكرد ، وفي القفص القريب فرخ مالك الحزين جنيناً جديداً في الحديقة التوراتية .

***

لهب هائل في مدفأة قريبة من إيستر ، مقاعد ذات أذرع خشبية مكسوة أعاليها بقماش فاخر ، أريكة واسعة تجلس عليها ، وهي ترتدي ثوباً منزلياً راقياً . . . يعيد إلى اليهودي الذي ينظر نحوها صورة إيستر في التوراة . . . كان حديثها عذباً . . . غريباً . . . وشعرياً أيضاً بسبب قراءتها الكثيرة لشعر بياليك . . . صوتها جميل غريب ناعم جارح الوضوح . . . كانت أحياناً تنهض من مكانها . . . تنظر من النافذة العريضة ، تزيح الستائر المطرز أسفلها بالدانتيلا وتنظر للناس الهاربين من المطر ، تنظر أسفل القدمين ، لترى بوضوح أرض إسرائيل التي تحمل أقدام اليهود وتنجيهم من المحرقة . . . قالت :

- ما معنى الحياة؟

- الحياة إما محرقة أو الدفاع والحرب كي ننجو من المحرقة . . . قال يائيل .

- ولكن الحرب أيضاً محرقة؟ قالت إيستر .

- نحن شديدو الحماسة لفكرة أننا سنحقق للشعب اليهودي المعجزة

. . . قال يائيل .

. . . .

إدوارد يقف في المكان ذاته ويسمع الصوت ذاته :

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

تراءت له صورة المنزل هناك قبل هجوم الجنود ، قبل أن يحفظ قصيدة لورد تنيسون عن ظهر قلب ، قبل هجوم الهاغانا من طرف السوق ، قبل هجرة السكان الأصليين . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . صوت إدوارد يصدح بقصيدة تنيسون . . . يصدح من بعيد :

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . .

صوته المتهدّج الصغير يمجد الخيالة الستمئة ، صوته يصدح بينما تختفي أحياء المدينة تحت نقع تراب الخيالة ، والجنود القادمين من الشمال .

- مجّدوا هجومهم . . . بينما يجد المركب مسافة قصيرة في الماء ويصل الشاطئ ، يجري الهارب مرة أخرى من المؤخرة إلى المقدمة . . . خطوة واحدة ثم يندفع نحو الماء فيتأرجح قليلاً . . . صعد وسار إلى داخله وبدأ بترتيب المجاذيف . . . خاض الهارب في الماء حتى ركبتيه وصاح بقوّة :

- انتظرني . . . انتظرني هناك . . . هذه أورشليم . . . سنقرّب قرابيننا هناك . . . سنجعلها من البقر . . .

- أنا قادم أيضاً . . . أنا قادم أيضاً . .

- مجّدوا هجومهم . . . مجّدوا هجومهم . . . مجّدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجّدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

***

كان إدوارد في صالة الفندق وهو ينظر عاموس عوز على شاشة التلفزيون . . . بوسامته البليدة . . . بهدوئه العظيم ، بأفكاره الخطرة المتذبذبة ، بحياته التي تجاوزت العقبات وانتصرت عليها . . .

قال له المذيع :

- أحب أن أمتلك أملك وتفاؤلك أنت على العكس من السيد غروسمان فهو متشائم جداً . . . أنت تنظر إلى الحب . . . أنت تنظر إلى لب الحياة . . . إلى حياة المرأة وجوهرها . . . أكاد أقول إننا ننتظر منك الكثير . . . أنتم أدباء إسرائيل تبتكرون العالم . . . وتجعلون العالم يحترمنا . . .

- عوز مثال للعيش في هذه البلاد أليس كذلك؟ قالت إيستر .

يستمر المذيع في الكلام :

استهلال ثابت مع السيد عوز . . حياته التي عاشها تحت التهديد ؛ ومع ذلك فهو يخبرنا عن العلاقة المؤلمة بين العربي واليهودي . . . تفضل سيد عوز .

- في حياة الأفراد والناس ، أيضاً ، أسوأ النزاعات . . . تندلع أغلب الأحيان بين الجلاد والضحية . . . ولكننا نختلف مع العرب فلسنا الجلاد . . . وهم ليسوا الضحية . . . لا هم جلادونا ولا نحن ضحاياهم . . . ومن الممكن أن نتحد ضد مضطهد عديم الرحمة . . . ضد مضطهدنا المشترك .

- هل يمكن ذلك؟

- نعم . . نعم . . . في أغلب الأحيان نعم . . . تقريباً . . . يمكن ذلك . . . أظن هذا . . . على الوجه الأفضل يمكن أن يحدث . . . وبصورة ما لو كنا . . . سوف . . .

- . . . كيف؟

- هذا شريك في سوء الحظ لكن في الحقيقة صورة مضطهدهم المشترك هو شخص آخر . . . يرى العرب اليهود الإسرائيليين مجموعة باقية على قيد الحياة ، نصف هستيرية ، وهي فرع جديد من أوروبا ، باستعماريته ، وهي في تطوّر واستغلال تقني ، عاد بشكل ذكي إلى الشرق الأوسط . . . بينما لا يرى الإسرائيليون العرب زملاء . . . ضحايا ، بل كوساكس صنعوا مذبحة مدبرة ، وهم لا ساميون متعطشون للدماء ، نازيون متنكرون ، كما لو أنّ مضطهدينا الأوروبيين ظهروا ثانية هنا في أرض إسرائيل ، وضعوا كوفية على رؤوسهم ونموا الشوارب على وجوههم ، قتلتنا الكبار هناك . . . قتلتنا الكبار هناك . .

- هل حكموا علينا بقدر مشئوم . . بقدر أبدي؟ قالت إيستر .

- هل يمكن أن نقول أكثر من هذا؟ قال يائيل .

***

قادته قدماه إلى منزلهم القديم في حي الطالبية ، كانت بوابته الخشبية مغلقة ، مشى خطوات متمهلة ، دخل عطفة صغيرة تقود إلى مجموعة من الفلل هناك ، وعندما اقترب من نهايتها شاهد مجموعة من المحلات الراقية ، صالة للياقة ، ومتجراً للسيارات .

كانت نوافذ المنزل العالية مغلقة أيضاً ، وعلى مقربة من المكان منزلان متجاوران بأفنية عالية . ها هو المنزل القديم بنوافذه الخشبية أمامه ، من الجهة الأخرى كان يحدق بنوافذ زجاجية ، بمصراع مستطيل ، وبمصراع صغير قريب من النافذة ، وباب المنزل العالي نقشت على واجهته مسامير حديدية كبيرة .

كانت هنالك امرأة في الحديقة تسقي مزروعاتها ، كانت غاضبة لسبب غامض .

توقف أمام الباب ، تبدل إيقاع خطواته البطيئة المتمهلة ، توقف

لحظات وأخذ يتذكر، تذكر أبناء عمومته عند السياج، الطفل الصغير بالشورت الكاكي، والقميص المفتوح أمام سياج الحديقة الأبيض.

عند نهاية السياج استدار، تمهل قليلاً أمام شجرة عالية، كانت هنالك عينانُ من فتحة في الستارة المعدنية ترقبانه، سقط في دائرة المراقبة تماماً، كأن ضوءاً ما تسلط عليه، شعر بتنمل يسري في عروقه، بدأ قلبه يخفق، لحظات، دون أن يعرف لماذا.

فجأة استسلم للجاذبية التي أحدثتها العينان المراقبتان من خلف نافذة مفتوحة ومغلقة بستائر معدنية، شيء ما هيمن عليه، لحظة جذبته، لم يلتفت إنما تعلقت نظراته بالباب الخشبية الكبيرة.

تبدلت مشاعره، شعر بارتياح كبير، تبدل حضوره، لم يقاوم هذه الجاذبية ولا السحر، ركز طاقته على الأشياء المحيطة به، ركز طاقته على ذكرياته في هذا المكان غير عابئ بمن ينظر إليه، تذكر جريه لاهثاً من هذا المكان إلى ذاك المكان، تذكر لعبه تحت شجرة الجميز، تذكر وقوفه تحت السياج، تذكر الجنود الإنكليز الذين كانوا يتسكعون بالقرب من الشارع، تذكر سياراتهم العسكرية التي تخطو على الطريق الترابي البعيد، وحاجزهم القريب من المنزل، لم يكن ينسى أن بصراً يرقبه من موضع ما، لم يكن يعرف أية عينين، عيني امرأة أم رجل... لكنه غير إيقاع مشاعره تماماً واستسلم لفرح كامل.

طرق الباب.

تقدمت المرأة المسنة التي كانت تسقي الزرع عند السياج.

- نعم...

- في هذا البيت كنا نسكن فيما مضى هل يمكنني أن أدخل وألقي نظرة...

***

- نعومكن هل تجلب لي الثلج . . . بيرة من فضلك . . .
- كيف ترى الفلسطيني . . . ؟
- إنه مخلوق غريب ، مخلوق غريب الأطوار يرتدي جلباباً ممزقاً ، ويضع على رأسه غطاء قذراً ، أما زوجته فإنها تلف نفسها بثوب أبيض ، ويسير أطفالها وراءها حفاة . كل شيء يتعلق به مادياً كان أو معنوياً ينطق بصفاته ، إنه ليس قذراً فحسب بل هو أيضاً لص ، وكذوب ، وكسول ، وعدواني . . .
- نعومكن أين كأس الفودكا والليمون . . . .

كان من المحال على إدوارد سعيد أن ينظر إلى البهو المغطى بالصاج . . . فظلام البار يحجب المشهد . . . وهناك بار كبير . . . أقداح تلمع في الضوء الخافت الأحمر . . . جهاز تكييف ، ماكنة لإعداد القهوة ، وماكنة لصب البيرة في الأقداح ، وجهاز حاسوب ، فكر أول الأمر بالهبوط إلى أسفل . . . عبر البوابة الخارجية ، وكان اللوح الخشبي مبطّناً بشبكة حديدية لصد الناموس ، ومن الزجاجة العريضة للبار كان يمكنه رؤية الطرف الآخر سن الشارع الواقع في الواجهة ، وعلى الجانب الآخر من الطريق كان هنالك منزل مشابه لمنزله ، وبجانبه شجرة يهوذا وهو يفطن لاسم الشجرة المحمّلة بالأزهار المتضخّمة التي كانت ترهقها .

***

سار دزرائيلي في لندن على الرصيف ، سار بخطوات بطيئة .

قدماه متعبتان ، جسده نحيل ، وما إن تجاوز واجهة حانوت حتى انعطف نحو باب في الجدار الأيمن ثبتت في وسطه لوحة معدنية تحمل اسماً يهوديّاً . . . كان منزله فارهاً في لندن ، غير أنه كان ينظر إلى منازل اليهود الفقراء الصغيرة ، باهتة ، تطل شبابيكها الكئيبة على فناء .

- هل يمكن أن يكون لهم وطن آخر . . . في مكان آخر . . . هل

يمكنهم أن يحلّوا محل شخص آخر في أورشليم . . .

سيصحو عندما يبزغ فجر الراية الكبيرة على إسرائيل ، خلف إشارات أصابعه حينما يحكي قصة الملائكة الذين تساقطوا واحداً بعد آخر في نومه على أرض التوراة ، كان ينظر من بعيد وهو يرى خدود عملاق فلستينيس التي بللها الدمع ، ساعة الندى . . . ساعة غفوة فلستينيس يعبر فوق البحار ويتجاوز الأوقات المضطربة ، يعبر سلاسل المدرعات ، أحلام الأطفال .

- تحت أقدام أي ملجأ يوثق الكناري ، أين يصل الخيط الأصفر من ذنبه؟

قالت : ما هذه البضائع البريئة التي تصل مرافئنا؟

أي مذاق تفرزه نكهة الخبز المجهولة في قصر الأنبياء؟

مشتعل بروح وهاجة كنار الاستواء ، يخترق السماء الكثيفة الحادة جناح أرجواني ، ويحط طير أحمر قان على قمة الشجرة ، فينفجر الفرح في قلب سليمان واضحاً ، نقياً ، شاملاً ، فرح سبق له وأن أحس به في زمن بعيد جداً ، وصوت إيستر يتبعه :

أقوم وأطوف في المدينة وفي الأسواق والسَّاحات ، أطلب من يحبهُ قلبي ، أطلُبه فلا أجده .

تسمع هذا الصوت بينما كانت آمال تجلس على أريكة صغيرة في حجرة مؤجرة ، على مقربة منها تجلس أمها على كرسي خشبي أمام آلة خياطة قديمة مرصعة بكتابات صينية ، في الزاوية تتكوم أغراض عديدة ، تنظر إلى الحائط ، تنظر إلى صور فوتوغرافية شاحبة . . .

هل تفكر إيستر فيها أم تفكر في السنجاب في الحديقة التوراتية وهو ينط على الأرض المعشبة ، تفكر بالصقر الذهبي وهو يحط لتوه على رأس الشجرة ، فتهتز موجة من الورود السكرى .

حديقة توراتية . . . شجرة يهوذا ، حيوانات قديمة جداً . . . وطير ثمل بماء النسغ ، ثمل بعطور الحديقة . . . ونحل ثمل بالعسل ، حيوانات لا تعرف مكانها بالضبط . . . حيوانات الأرض ذاتها في السماء تنقر وتغوص في الغيوم النيلية الممتلئة بأشجار الحدائق . . . وحين يعود حسين البوصطجي إلى الحجرة المؤجرة في القاهرة يجلس قرب زوجته المرهقة من دواسة ماكنة الخياطة . . . يجلس على الأرضية يمسد شعر آمال وهو يبكي .

***

دخل يائيل منزله في شارع كارل نطر ، كانت إيستر تقرأ وهي في سريرها رواية لديفيد شاحور عن القدس وتشرب عصير البرتقال ، يبتسم لها يائيل ويتلمس طريقه ليجلس على الكرسي المقابل لها ، جلس وأخذ يخلع جزمته ، ثم تقدم نحوها وجلس على طرف الفراش .

- عليك أن تعرفي . . . إن علاقتي بالأميركية كانت أمراً عابراً .

- أمراً عابراً . . . أمراً عابراً . . . قالت ذلك بهدير بضعة مرات .

رجعت إيستر إلى حجرتها ، حجرتها الصغيرة الضيقة ، لم تعد تطيق الجلوس على الكنبة في الصالون أمامه ، كانت رائحة الأسرة الضيقة والروائح الحية النائية تترك في نفسها أثراً مخدراً . . . أشياء كثيرة كانت تدور حولها ، وإلى جانبها ، وفي ذهنها وفي مخيلتها ، أشياء عديدة لم تكن قادرة على التخلص منها أو دفعها ببساطة . . .

- قصة مخزية . . . قال يائيل في نفسه .

في الليل حين يتسكع في شوارع أورشليم كان يشم نسيماً فاتراً في سماء منخفضة كئيبة ، تعصف أحياناً به مشاعر متناقضة ، دم يفور في شرايينه ، وعزلته تترنح مع رعشات أرواح الناس الممددين في الظلام ، يشعر أحياناً بالأمل وهو يغور في دقات النبض ، ويشعر أحياناً باليأس وهو

يستولي على كينونته السقيمة .

كان يعرف أن في حياتها عربياً وسيماً جداً . وبعد شهر أو شهرين لم يبق أي أثر من تلك الفتاة النقية الرقيقة المحببة التي كانت تصلي من أجل جيش الدفاع ومن أجل إسرائيل . . .

– ربما كانت تخرج معه . . . تذهب معه إلى شقته . . .

– أنا لا أفهم كيف يمكنك أن تغار علي منه؟

– أنت مشغولة به . . .

– أنا أتسلى معه ، إنه في نظري شخص لطيف لا أكثر .

– شخص لطيف!

– هذا يذكرني بنعيم الذي أحبته ابنة آدم اليهودية . . .

– أبناء إسماعيل . . . هنا . . . أبناء إسماعيل هنا . . . قال .

– أبناء إسماعيل لا يذهبون . . . ولا يزولون مطلقاً . . . لا يغادرون هذه الأرض مطلقاً . . .

ثمة سر يترصد المنحدرات والهضبة العالية . . . شيء منحوت على أحجار مسنّنة ، شيء لا يمحّي أبداً . . . شيء لا يختفي ولا يزول مطلقاً . . . لا تزول التضرعات المريرة التي نقشتها نساء إسماعيل على قمم الجبال . . . إسماعيل هنا . . . إسماعيل وأبناؤه هنا . . . موجودون في قلق الأيادي ، وفي نبض الأرض . . . وحتى في الطمأنينة الجوفاء الرائعة التي تسكن صمت الخرائب . . . موجودون في مياه الصيف الخضراء وكأنهم يحيون في الخرائب ذاتها . . .

– أنت تلوثين نفسك . . . هل تعرفين . . . ؟

– إنهم يلوث بعضهم بعضًا . . . قال المذيع في التلفزيون .

– سعادة التقوى لا تثيرني . . . قالت

بينما كان يائيل يسمع صوت المطر وهو ينداح في الأرض من

بعيد . . . يهجس قبلة ترتجف في الظلام . . . وامرأة خائفة ومبللة مثل عصفور . . .

- هل من السهل نسيانها . . . نسيان الفتاة النقية . . . قال .

وقف إدوارد محل يائيل تقريباً . . . كان ينظر من النافذة إلى الطريق العام وهو يتذكر أشياء متعددة وغامضة : لاجئين من فلسطين . . . يهوداً قادمين من كل مكان . . . مسيحيين من القدس . . . رجالاً . . . نساء . . . كلهم يتحركون على خلفية متشابكة من الأحداث . . . وقائع حقيقية تتداخل مع مشاهد متخيلة ، ذاكرة طفولته معاينة صادقة للأحداث التي يسجلها عبر أحاديث الناس الذين عرفهم .

- ذكريات . . . ذكريات . . . ذكريات . . . قالت إيستر .

- مقطع يتداخل مع خط سردي متصل . . . قال الناقد الأدبي في التلفزيون .

- جميل أنتَ يا حبيبي . . . وحُلوٌ وسريرنا أخضر . .قالت متهكمة من يائيل ومستعيرة جملة من التوراة .

أبخرة موسم الصيف الصاعدة من المنحدر تحيط بكلماتها ، باب بيت زجاجي للنبات حيث يتدفأ الورد ، أسفار عهد قديم تتجدد في طرقات عربية ضيقة ، أحلام في قرى نائية ، طيور تبتهج في الحديقة التوراتية ، زهرة الملك ليست مصادفة قال إدوارد .

عين طائر الذعر ذو الذيل الهزاز . . . ليس مصادفة .

الثعلب الذي يلبس ظل الماء الذي جف عند نهر الأردن ليس مصادفة . . .

هل يدرك وزير الدفاع أو نائبه في أورشليم لون الورود المستحيلة؟

كانت فلسطين تبرز مع مجموعة من الشخصيات الذين ينشبك إدوارد معهم بعلاقات جديدة تختلف نوعيا عن علاقاته مع أقربائه .

علاقات جديدة . . . علاقات تنير خطوطا غامضة ، إشارات ملتبسة ، سيرة تنشبك مع حكاية قديمة ، حكاية جديدة تنشبك مع أخرى ، حكايات يشتبك بعضها مع بعض . . . حوار جديد مع آمال يوضح كل الثغرات والفجوات التي تتركها الحكاية الأولى في ذهنه ، مجموعة معقدة ومتداخلة من علاقات جديدة يقيمها إدوارد مع نفسه ومع الآخرين .

وفلسطين . . . أين خارطتها؟

في إسرائيل طبعا . . .

***

اليهودي الذي حل محل أهل إدوارد في منزله ضاق تنفسه ذلك اليوم . . . عجز عن الكلام طويلاً ، كان مريضاً جداً . . . وخائفاً جداً . . . يمشي في الشارع وهو متوجس ، يسير بخوف شديد وهو ينظر في الوجوه ، ربما يقتله تفجير ما في الشارع .

ذهبت زوجته ذلك اليوم إلى النوم دون رغبة ، استلقت تحت لحاف القطن إلى جانب زوجها الذي بلغ به الغضب مداه ، نهضت من فراشها وذهبت لتملأ الكأس من صنبور الماء ، جرت قدميها إلى المطبخ ، كانت قصيرة القامة ، ترتدي قميص نوم باهتًا ، وجهها صغير محمر من دفء الفراش .

قالت لزوجها :

«تعرف . . جاء هذا اليوم أحد الفلسطينيين من أميركا وادعى أنه كان يسكن هذا المنزل ولم أدعه يدخل . .» .

«حسن فعلت . .» قال لها زوجها دون أن ينظر في وجهها .

***

– حلم مشبوب ، ثابت ، مضن ، هذه أورشليم . . . هذه أورشليم قالت إيستر .

قالت وهي تنظر نحو إدوارد . . . وتتذكر ما كانه والدها وهو يفكر قبل أن ينام . . . ينام على ظهره دائما ، ينام بعد أن ينكس طاقية بيضاء على جبينه ، ينام عميقاً نوماً صاخباً ، نوم يهودي مهاجر إلى أرض جديدة . . . تتذكر ما كانته هي أيام مراهقتها . . . صورة جيمس دين أعلى جدار حجرتها قبل أن تلتحق بالجدناع ، كيوت . . . كيوت . . . شيء يدل على بدء اهتمامها بالرجال ، علامات المراهقة العاطفية ، صورة مارلين مونرو وهي تمسك بتنورتها ، هل يمكنها أن تحب فلسطينياً . . . ؟

***

سار إدوارد في حارة النصارى . . . كان يشم رائحة الرصيف المبلول قادمة من الأعماق . هضبة كلسية وهي ترق . شيء ما يضغط على جذوع الأشجار أمام كنيسة بيضاء ، أبنية جميلة متناسقة ، نقوش كنيسة إنجيلية في ساحة الموريستان .

قالت إيستر : في الشتاء يهرب الناس ويغلقون أبواب منازلهم .

مسيحيون يحتمون في منازلهم أمام وجاقات تلتهب بالنار ، أطفال يتدثرون بفرشهم . مسلمون يرصدون الليل من فوق هضبة عالية ، صيادو الطيور ، صيادون يصغون إلى الهمهمات التي تحملها الرياح . . . من يتذكره في الطالبية وهو يحفظ قصيدة تنيسون الجنود الستمئة . . . شخص واحد يتذكر الخفافيش التي تطير في الظلمة . . . شخص واحد يتذكر الظلال التي تخيم فجأة فوق الأرض .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . .

أين قياس الزمن؟

هل الجدران هي قياس الزمن؟

هل الأرض هي قياس الزمن؟

هل الوجوه هي قياس الزمن؟

هل التاريخ والحروب والبحار هي قياس الزمن؟

هل أورشليم هي قياس الزمن؟

كان إدوارد ينظر إلى شجرة البيت القديم ، بيت الطفولة حيث لم تدعه قاطنته الجديدة يدخل وأوصدت بقوة في وجهه الباب .

شجرة واحدة ربما . . . ربما شجرة واحدة تبين بصمت تنامي أغصان الأشجار وجذورها . . . تبين ما مر عليه من أعوام ، أغصان تتطاول في امتدادها على أسيجة المنازل . نهار مشع يصعد بخفة من برج كنيسة بيضاء ، بناء معبد يهودي جديد يبزغ وأمامه ساحة متروكة ، إيستر ويائيل ضائعان هذا اليوم . . . ضائعان في همومهما . . . وفي مدى شارع كارل نطر ضوء حارق هابط من أعلى ، ضوء آخر من عمود كهرباء في شارع مقفر ، حقل أخضر بعيد تقطعه حواجز إسمنتية ، نيران في منازل الفلسطينيين تومض منذ أكثر من ألفي عام . لاجئون يسيرون ولا يصلون بعد . مسير طويل وعناء ، مشردون يرتعدون أمام الشومير ، عالم جامد مرعب ، وطرقات مقطوعة .

وجه ما يلاحقه ، دون أن يتعرف إليه . . . مدينة في الليل ، وجه جامد ومدينة تلاحقه . . . أروقة عديدة لهذه البنايات القديمة ، أزقة ضيقة معتمة ، شجرة كبيرة في شارع يؤدي إلى المخسوم ، شيء ما يلازمه بلا انقطاع ، وجه يظهر له حتى في الكتب التي كان يقرأها ، حتى في الشوارع التي كان يسير فيها .

- هل أنت مقدسية؟ قالت والدة إدوارد لجارتها .

- نعم ولكننا هاجرنا منذ زمن بعيد . . . وأنت . .

- مقدسية . . . طبعا . . .

صاحت امرأة على جارتها :

- هل تحبين الملوخية؟ . . . منذ زمن لم نأكلها . .قبل أعوام كنا عند

شقيق زوجي وقد عملتها زوجته التي لم أكن أحبها . . . هل تعرفين الطليانية أنت أيضاً . . . كنا نأكل وكان الراديو يصدح بأغنية عربية . . . العربية نسيتها ولكني أسمع الأغاني وأحبها . . . من أربعين عاما تركنا فلسطين . . . عشنا عامين في مخيم في دمشق ثم انتقلنا إلى أميركا . . . يقول أولادنا إنهم أمريكيون . . ولكننا نقول لهم . . . لا أنتم فلسطينيون . . . فلسطينيون . . . هل أولادكم يعتقدون أنهم فلسطينيون . . . هل ما زالوا يعرفون العربية . . . هل يأكلون الملوخية . . . هل يسمعون الأغاني . . .

***

وقف إدوارد على الرصيف ، مشهد تصنعه الشمس وتطبع عليه أورشليم ألوانها . مشهد تصنعه إيستر بأصابعها الرقيقة ، ألوان عديدة على ملابسها ، سياح يسيرون في الطريق إلى خان الزيت ، مشاهد عديدة في شارع المورستان تصنعها الشمس ، مسيرات خاصة بالملوك اليهود الذين يفتحون بسيوفهم خاصرة الفضاء الجنوبي ، ويفتحون سماء كبيرة لضيافة النجوم . يضحك رئيس الوزراء ملء فمه ، يضحك الحاخام حين تلامس أصابعه جدار المنزل ، أسوار حجرية تحيطها غيوم الليل ، أشعة تنساب على طول الشارع ، أقبية عديدة في الساحة المتاخمة للحرم ، أسواق ، مطاعم عديدة ، صباحات ، سكون ، بيوت مبنية من جص وحجر شاحبة اللون ، أشجار خضراء ، خمرة في المعاصر ، خمرة قديمة ، أسبلة ماء ، قلال زيت مركونة على الجدار ، ينابيع لا يغرف منها أحد ، ينابيع من ضياء يبحث عنها المؤمنون ولا يجدونها ، منازل مسيجة بحجارة بيضاء .

قالوا : قلوبهم تدمى ولا نزيف لها .

قالوا : سراج مطفأ ، فراغ ، خمور معتقة في دنان الملك .

سهوب بعيدة تنحدر نحو تاريخ يعرفه الجميع ويختلف عليه الجميع ، خمورهم في الظهيرة على رخام الكنيسة ، ساعة تنبض في الحرم . . .

عقاربها في قلب كل واحد منهم ، هناك أشياء أزلية وأخرى زائلة . . .

عندليب أورشليم في الساحة يغرد هذا الصباح فيتخثر الدم غائراً وعميقاً وأسود في قلب إدوارد . . . يقف متكئاً على جذع شجرة جميز قديمة . يسير في خان الزيت وكأنه يرحل صوب القمر ، كلمات الباعة التي تصدح تترك خدوشات ذهبية على حافة أصابعه ، هل يصعد أفقياً نحو ساحة الحرم ، هل يعود إلى ساحة كنيسة القيامة ، حفيف ورق أشجار الساحة تخترق المكان بصوتها ، رجل ما يطارد الأرانب ، ويجاور في حاراتها ظلالاً طارئة قادمة من وهاد بعيدة .

***

– أنت غاضبة يا إيستر اهدئي ، اهدئي أرجوك .

تهدأ إيستر بالفعل وتتكئ على الجدار . تصوّب إلى يائيل نظراتها . . . تشعر بالإهانة . . . تشعر بإهانة حادة ، لم تتمالك نفسها ، فجلست على كرسي صغير أصفر اللون دون مسند .

– إيستر لديك على الدوام إيضاح لكل شيء . . . لا أفهم ما تفعلينه . . . أنا نمت مع الأمريكية مرة واحدة فقط أو مرتين . . . لم أعد أتذكر . . .

كان صوتها يخلو من نبرة العداء . . . ترفع يدها وتضعها على جبينها ثم تعقد يديها على رأسها مثل طفل مغتم .

– ها إيستر هل تظنين أني أرسلتك إلى المستشفى كي أنام مع هذه الأميركية . . . هناك تجهضك الطبيبة وأنا أنام مع الأميركية على سريرك . . أنت أيضاً كنت مع هذا العربي أليس كذلك . . إنه عربي بعد كل شيء .

– حقنة . . . حقنة مخدّرة . . . أليس كذلك؟ . سألت الممرضة .

أجابت :

– هل هي ضرورية . . . ؟

أجهضت . . . إيستر . . . شاهدها يائيل تحت الشرشف الأبيض . . . وجهها معصور مثل ليمونة . . . وقربها على الطاولة كتاب ودفتر تليفونات وصحيفة . . . من النافذة شاهد العربي ينظف الأرضية بممسحة ، وآخر من الفلاشا يحمل جردل الماء ويذهب به إلى الحمام . . .

- إنهم العرب . . . لا كما تصورهم موشيه سميلانسكي ويهودا بورلا رومانتيكيين ، قاصرين . . . بل إنهم مجرمون . . . خطرون . . . صورة من صور ملاحقي الشتات من الأوروبيين ، اقرئي برينر ويوسف أريخا : العربي مثل أرضه ، غريب ومخيف ، وحشي وعدو .

***

ألقى إدوارد جسده على أريكة في صالون الفندق متعباً ، نظر من الزجاجة العريضة إلى الرصيف ، فراغ الشارع وخلاؤه يجذبه ، ضباب الشارع الصباحي يجذب نظره . قبة بعيدة تذكره بقبة أخرى في مكان آخر ، يحلم بصباح ضبابي جديد كان ينتظره منذ زمن بعيد . . . وجه مدور شاحب ، يعتقد أنه نسيه ، يترجرج في ذاكرته . . . تأمل طويلا ذلك اليوم في المكان ، فتراءت قبالة عينيه المتعبتين دوامة الشارع المضطرمة ، صخب المدينة العالي . مقاصف قديمة . . . محلات . . . تحف تذكارية . . . ابتسامة ساحرة ، وامرأة فخورة بوجودها .

- كنيسة القيامة على الجلجلة . قال يائيل .

- بستان وقبر وضعوا به ابن الله قبل قيامته . قال السائح العجوز .

- بطريرك صفرونيوس حصل على العهدة العمريه . قال يائيل .

مُشاعٌ هذا الحب مثل عبق الأكاسيا في أزقة الفجر لكنه ممنوع . . . قالت امرأة إسماعيل : شيء جاثم فوق صدري . . . ساخن في يدي . . . ملتهب . . . مندهش في ضفائري المنفلتة مني . . . لكنه ممنوع . . .

كلهم يصعدون الطريق ، ويسيرون على الدرج المبلط ببلاط حجري ،

كلهم يصعدون حتى يصلوا الباب الجديد ، مر الجميع في شارع السلطان سليمان ، هناك فندق وكنيسة ، هناك جامع ومستشفى ، قطع إدوارد الشارع عند الإشارة الضوئية حتى شفتي يسرائيل عند مبنى البلدية . . . دخل الفندق واختفى .

***

أشبه بعقد ، وجدها إدوارد في حقل مسيج بالحجر ، تلفها من العنق إلى قدميها قبة مذهبة .

قالت له إيستر : ليس لديّ أيّ صديق ، أقرب صديقة تعيش على مبعدة خمسين ميلاً ، أعيش وحيدة مع جدتي ، يائيل تركني وحيدة ، لذا فأنا دوماً حزينة . سأتبعك إذا رغبت . أتبعك حتى بيتك .

- أين بيتي . .؟

إنه على الجانب الآخر من البحر الأحمر ، أو وراء الأطلسي . . . سوف أعيش في بيتك حتّى تطردني منه . . . يدك رقيقة ، عيناك ناعستان ، وأنت لاجئ أليس كذلك . . . أنت منفي أليس كذلك . . . أنا ولدت في إسرائيل ولكني أعيش منفية . . . روحي منفية ولم تصل . . . فلنذهب! لا أحمل شيئاً معي سوى تذكار من والدتي يتدلّى من عنقي ، سأضعه قرب عقدك ، ونبكي بيتاً لم نصل إليه كل ليلة .

***

ثمة صبي في طريقه إلى المدرسة ، رجل يجرجر قدميه ببطء يحمل حقيبته على ظهره وبيده ساندويتش ، سارا أمام حانوت تبغ ، علب سجائر إسرائيلية تحمل صوراً ملونة ، دكان للتحفيات والتذكارات من أورشليم ، سارا أمام صيدلية ، أمام سوبر ماركت كبير ، أمام حانوت قديم جلس فيه يهودي قادم من كييف يخور ويمط شفتيه حين يتحدث باليديشية ، رجل آخر يضع في فمه الغليون وينفث الدخان في الهواء ، شخص ضجر

يجلس على كرسي من البامبو يقرأ الجريدة ، يضع أمامه على الطاولة علبة كرتون مفتوحة ، شومير يقف على المحسوم يسرح نظره أمامه صامتاً ، مكثراً من إطلاق حلقات الدخان من سيجارة في فمه . . .

هذه أورشليم الجديدة . . . بضائع جديدة وقديمة . . . مزبلة قريبة من سور المدينة ، علب كارتون ، ملابس رخيصة ، بضائع صينية . . .

- رئيس الوزراء كان بحاراً متسكعاً محتالاً ، تزوج في سن الشيخوخة تقريباً من امرأة روسية صفراء كابية الوجه . . . جاء بها إلى فلسطين . . . وفتح دكاناً لبيع الأشياء الغريبة ، وسرعان ما توفيت الزوجة وقت كان ابنهما يرتاد المدرسة ، ثم أخذ يساعد والده في الدكان ، ثم لا أذكر كيف التحق بالهاغانا في حرب الاستقلال . . .

- هل تحبين حديقة الحيوانات التوراتية في أورشليم؟

- ها هم يأتون بجميع الحيوانات حتى الفراشات الذهبية . . . حتى حمار الوحش . . . حتى حصان البحر . . . حتى طيور الكوليبري المحنطة . . . حتى الأسود المتوحشة . . . حتى قردة السنياج والصقر واليحمور . . .

- هل تحبين حديقة الحيوانات التوراتية . . .

- . . .

ها هو يائيل وهو يعود بذاكرته إلى الخلف ، يعود بذاكرته بعيداً ، يعود بذاكرته إلى الليلة التي ذهبا بها معا إلى فرقة للجاز في شارع حاييم أفرام ، إلى الليلة التي أمضياها يتنقلان من مكان إلى مكان في العيد ، إلى الليلة التي استمعا فيها إلى موسيقى وأغاني أوفرا هانزا .

«تصليلي مدورا . . . تصليلي مدورا» وهو يسمع أنغاماً ساحرة من بعيد . . . «هل تريدين موسيقى يهودية . . . هل تريدين أغاني الكوشر . . .» قال لها وهو يضع يده على كتفها ويشعر بأنه تحرر من

مخاوفه، ومن رعبه الذي ورثه من الحرب، شعر بأنه يطير، يحلق، وقد لعبت البيرة التي احتساها في البار في رأسه.

تفوخ بدباش.. قالت له.

سنذهب هناك، سنرى فولكلوراً عبرياً، سنقف أمام منصات للمأكولات، سنشرب البيرة، سنأكل الفستق، سنضرب الكؤوس نخب معرفتنا.

***

نعومكن... تعال هنا... نعومكن... أنت مضجر هل قال لك هذا أحد من قبل... هل تعرف جدي جاء هنا على ظهر الباخرة مارثا في العام ١٩٣٣... وهناك قطن في خربة خزعة...

نعومكن تعال من فضلك... أنا عربي ولدت في هذا المكان... وقد أحببت ورأيت ومشيت وأكلت ونمت وهربت من منزل والدي، هنا كونت أول أفكاري عن المرأة... عن جنس النساء، وتعلمت تلميحات كثيرة... وفي القدس شاهدت الأفلام الخلاعية مع صديقي في المدرسة... وأحببت عالية... وطريقة مشيتها ونظرتها ووجهها المطرق وشعرها النحاسي اللون... كل هذه الأشياء جعلتني أحبها... وأهيم بحبها... شيء دخل إلى قلبي وجعلني متيماً بها...

نعومكن تعال... أنا يهودي جئت من بولونيا وطردت العربي من خزعة... وفي المساء صرخت:

فلتحيا خزعة العبرية... فلتحيا خزعة العبرية...

نعومكن... نعومكن... بيرة من فضلك...

***

إيستر... تظهر كل يوم في المكان نفسه... في أورشليم... في شارع يهوداه هنسيه ٢ (بجانب مدرسة دنمارك) في الشارع الصغير الذي

يحاذي مكتبة مئير هوف أ- كطمون حيث كانت الشمس في طرفه تلمع فوق المبنى والطيور تدفعها الرياح .

سار يائيل إلى جانبها في أورشليم .

سطوع رماديّ خلف البلدة العتيقة والسياح يسيرون مجموعات مجموعات ، شيء خفي خلف الأسوار في الصباح ، ورائحة اللوز تنبعث بعمق من النوافذ المقورة لبيوت الفلسطينيين ، شيء يرف على المسالك والعشب . . .

- إنه الأسبوع الرابع من مهرجان حوتسوت هاعير في أورشليم هل نذهب له؟ قال يائيل ذلك . . ونظر بعينين مقطبتين كما لو كان ينظر في العتمة . . .

إدوارد يطوف ذلك اليوم بين مناضد بيع منتجات الموضة : شعر مستعار ، ماكياج ، مانكير أحمر ، لكن أورشليم كئيبة وقاسية .

قالت إيستر : تعرف . . . أمضيت حياتي في يافا . . . أحب النوارس وهي تدور فوق المراكب . . . أحب الريح تدفع الأشرعة وأحب النور . . .

قالت ذلك وكأنها خرجت من البحر تواً . . . وجهها مشع وسط العتمة الكبيرة ، وجهها مشع وهو لا يدري لماذا تخيلها تلك اللحظة وهي ترتدي ذلك المعطف الكاكي الذي كانت ترتديه دائماً في المعسكر . . . أو أيام كانت ترافق جيش الدفاع في الانتفاضة . . . لا يدري لماذا رآها تلك اللحظة وكأنها تهرع مع سيارات الإسعاف نحو التفجيرات في مطعم في يافا . . . لا يدري لماذا تخيلها تلك اللحظة كما كان يراها عند الصباح وهي تضم شعرها تحت البيرية بسبب البرد والرطوبة ، شعرها الأسود المنسدل على ظهرها وقد لفته بشرابة كاكية ، بينما بدت سحنتها ثرية بالبياض . . . وعيناها الزرقاوان شفافتين .

كل يوم كانت إيستر تأتي إلى شقة يائيل . تنام في حجرة نومه ، في

شقته في فردينون ١٢ . أحياناً كانت تتأخر عليه ، فيجلس على الكنبة الخشبية التي اشترها من المزاد ويقرأ الصحيفة ، منتظراً دون صبر ظهورها على الباب . لم يكن يريد أن يرى أي شيء آخر في هذه المدينة سواها .

قال لربة عمله في مكتب السياحة . . .

- أريدها أن تشتغل معي . . . ترافقني . . .

- هل تنفع؟

- نعم . . . نعم تنفع . . . ستدخل دورة أو دورتين وتتعلم . . .

كان صوت معترض في الراديو يقول : يوم الشابات تتوقف فيه الحياة في الدين اليهودي عن النبض . وبالرغم من ذلك فإن الدولة لا تتقيد به . . . حيث تستمر المطارات في العمل وأجهزة الدولة من شرطة وجيش

***

طافت إيستر في المدينة في حوتسوت هاعير ، طافت على الملابس النسائية ، على أدوات الزينة ، على مواد التجميل والمانيكرات ، على محلات النظارات الشمسية ، وعلى مقربة من المسرح وقف مصممو الأزياء ومنتجو أدوات التجميل .

- هل تريدين تنورة من تصميم ميخال ازولاي يا عزيزتي؟

هل تريدين فستانا من تصميم اوديلية مزراحي يا عزيزتي؟

تعالي وقصي شعرك بالمجان من مصفف الشعر شوكي زيكري ، هنالك نساء كثيرات . . . نساء من قوات المحافظة على الأمن ، هنالك مجندات أيضاً . . . هنالك زوجات رجال الأمن . . . هنالك موسيقى جميلة أيضاً ، هنالك مسرح على الهواء الطلق . . . حوتسوت هاعير . . . حوتسوت هاعير . . . تظاهرات احتفالية كبيرة . . . تظاهرات كبيرة يا عزيزتي إيستر . . . هذه أورشليم ألا تعرفينها هل تتحدثين مع الشبان هناك ، هل

ترافقين يائيل الذي كان في جيش الدفاع . . .

سار إدوارد يتفرج على حيل السماسرة ومكائدهم في الميدان الصغير ، ها هما ينتظران الصيف . . . أو مجيء روزيت ، ثم يعودان إلى الشارع الصغير لأن الساعة تكون قد أزفت لتناول العشاء في الشقة .

***

مر بيير لوتي من هذا المكان .

في مساء يوم الجمعة ذهب اليهود للبكاء في مكان خاص تنازل المسلمون عنه لهم فوق خرائب معبد سليمان الذي لن يعاد بناؤه أبداً ، قال بيير لوتي .

كان يريد المرور من موضع البكاء قبل حلول المساء . لقد قطع الساحات الخالية ثم بلغ الأزقة الضيقة المغطاة بالقاذورات ، ووصل أخيراً إلى ما يشبه الحظيرة التي تعج بحركة حشد غريب ينوح سوية في صوت خفيض ، وبعد أن حل الغسق كان قاع الساحة المحاط بالأسوار الحالكة مغلقاً .

قال : قطعة من محيط المعبد مكونة من كتل مخيفة متشابهة ، وكان هناك رجال بأثواب طويلة من المخمل يتحركون كما لو كانوا دببة في الأقفاص تترنح ، وقد أداروا ظهورهم لنا ، وكانت وجوههم تتجه صوب قطعة الحطام العملاقة ، وهم يلطمون جباههم بأحجاره ، ويهمسون بنوع من الغناء الرتيب المرتجف .

أثواب ملونة ، مخمل أسود ، مخمل أزرق ، مخمل بنفسجي ، قرمزي مبطن بالفراء الثمين ، كل قبعاتهم مصنوعة من مخمل أسود ، كل قبعاتهم قال لوتي محاطة حواشيها بفراء من وبر طويل يلقي الظل على أنوفهم الحادة كحد السكين ، ويلقي ظله على نظراتهم . . . كانت جميع وجوههم تستدير نصف استدارة لتتفحص الآخرين . . .

هل كانوا مخيفين وقبيحين؟

اليهود لهم عيون صغيرة جدا . . . قال لوتي .

لهم عيون ماكرة ودامعة تحت جفون متهدلة ميتة ، وبشرتهم بيضاء أو وردية كشمع رديء النوعية ، وعلى آذانهم جميعا خصلات من الشعر ملولبة تتدلى مثل الموضة الانجليزية للعام ١٨٣٠ ، فتكمل تشابها مقلقاً مع السيدات العجائز ذوات اللحى . . . قال لوتي ، فبكى يائيل .

***

من زمن بعيد وهم يروننا ماكرين وحقيرين ، ضعفاء بهشاشة حلوى السكر المصبوغ . . . قالت إيستر .

كبار وصغار لهم تسريحة شعر مجعدة ، ويترنحون مثلهم ، ويحملون أيضا الكتاب المقدس ، يهود ذابلون وشاحبون من جراء قرون من الارتزاق والربا تحت سماء الشمال . . . قال لوتي .

من أجل المعبد الذي هدم ، صرخ الحاخام .

نحن جالسون متوحدون ونبكي ، يجيب الحشد .

من أجل أسوارنا التي أطيح بها .

نحن جالسون متوحدون نبكي!

من أجل أسوارنا التي أطيح بها .

نحن جالسون متوحدون ونبكي!

من أجل جلالته الذي مر ، ومن أجل رجالنا العظام الذين هلكوا .

نحن جالسون متوحدون ونبكي!

شيوخ يذرفون دموعاً حقيقية ، وقد وضعوا كتبهم داخل حفر الصخور لتتحرر أيديهم فيلوحون بها فوق رؤوسهم إشارة إلى اللعنة .

ساحة مزدحمة ، رجال يصلون بصورة واحدة .

قبعة ذات الوبر ، خصلات ملولبة على الطريقة الإنجليزية على

الصدغين ، ثياب ملونة ، يمرون مطأطئي الرؤوس على كتبهم المفتوحة ، متخذين هيئة من يقرأ المراثي ، ويرمون من الجانب ومن تحت نظرات حادة .

- عد بأطفال أورشليم ! أسرع . . . أسرع يا محرر صهيون!

وتلمس الأيدي العجوزة الأحجار ، وتصطدم الجباه الشائخة الحائط في إيقاع واحد ، ويرتعش الشعر العجوز والتجعدات القديمة . . .

***

كانت إستر تكلمه وهو يضاجعها .

تعرف ما الذي كان يفكر به عندما فتح أزرار قميصها ، كانت تخلع كالسونها على السرير . . . قالت له على الفور :

- لا تشغل بالك كثيراً . كل شيء سهل وبسيط مثل كلام .

أمسك ذراعها ، جذبها إليه وبدأ بتقبيلها وهو يمرر يديه على جسدها ونهدها . . . قال لها بأنه انتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل . . . غرق بجسدها . . . غرق تماما . . . وهي تحلم بحوتسوت هاعير . . . تفكر بمئات الذين أرسلوا إلى قناة «فوكس كيدز» وصفات أطعمة ، وهم يتبارون في المرحلة النهائية على لقب «الطاهي الشاب في حوتسوت هاعير» .

- هل تعرف - قالت له وهما منهكان على السرير - شيري لوطن نجمة برنامج مطيبخات هي التي تدير المسابقة؟

- هل تذهبين إلى شيري زوكر ليصفف لك شعرك . . . ؟

كان رحيق الحديقة الخفيض يدخل إلى الحجرة . . . وقد أخذ يائيل يضفر شعرها بأصابعه ، شعر ناعم كاللبلاب ، عشبة بين ساقيها ، شعر أشبه بالذهب ، صدر عال وثري . . . أصابعه تحيّي جسدها برقّة على السرير . . . جسد شاحب وساطع ومتعرق عند الإبطين . . .

سنكون سعداء أليس كذلك؟

قال لها ذلك وكأنهما ما زالا حتى الآن يتجولان في يافا . . . بينما أخذت إيستر تنظر نحو النافذة المطلة على الحديقة ، تنظر بعينين ساهمتين إلى الشجرة المبللة بالمطر . . . وعينا يائيل تراقبانها :

- إيستر . . . إيستر . . .

كان ينظر نحو الجسد الممتلئ والطافح بنشوته ، باللحم المترع وقد تورد وتعرق قليلاً . . . وكأن إيستر خارجة توها من التوراة وهي تحمل الإبريق الرماديّ المصنوع من الفخار .

- تعالي برفقتي! يا إيستر . . . صوت يناديه . . . كما لو كان قادماً من برية بعيدة .

- أنت لم تنس ما قمنا به . . . صوت حاضر خارج من تكرار حشرجته على السرير . . .

وإيستر عند النبع غارقة في الظل . . . حيث شجرتا حور مع شجرة شربين في المروج . . . وها هي تدير القناة على مسابقة الطهي . . . شيري لوطن بعمر الحادية عشرة وهي تقرأ أسماء الحكام . . . وتقرأ أسماء الطهاة المعروفين في كل أورشليم . . . إيستر تسمع مذيعاً آخر ينقل أخبار المنطقة الحرة لقص الشعر . . . عشرة من الحلاقين من صالون شوكي زيكري وهم يمنحون نساء قوات الأمن تسريحات بالمجان . . . عشرة من الحلاقين المهرة يمنحون العاملات في قوة حفظ الأمن والمجندات الأورشليميات التسريحات الحديثة . منطقة حرة في أورشليم يديرها حلاقون من مدرسة جيجي للتجميل . . . مضيفات يقدمن الخدمات للنساء الأورشليميات ، يقدمن لهن المكياج ، ويوشمن أجسادهن بالحناء ، ويضعن على أظافرهن المناكير .

كانت إيستر عارية تحت الغطاء . . . عارية في ردهة النوم . . . عارية تتأوه والهواء البارد ينساب من شارع فردينون ١٢ ، عارية وهي تسمع صوت يسمعان بن مزراحي وهو يصرخ : كانوا الشر . . . كانوا الشر . . .

كانت عارية وهي تنظر التلفزيون يعرض أفراد الحكومة واحداً، واحداً . . . عارية وهي تسمع صوت بن مزراحي وهو يقول :

لقد ضحّوا بأطفالهم . . . لقد خرقوا قوانين يهوه . . . لقد أحرقوا البخور إلى إله خاطئ . . . لقد سمّوه بعلاً . . . لقد كسروا يوم السّبت . . . لم يشرّفوا اليوبيلات . . . لقد كانوا قساة للفقيرات وللأرامل . . . لقد كذبوا وسرقوا وغشّوا . . . لقد سقط منزل الله في الخراب .

- إنه مشروع إدوارد سعيد الموسيقي الذي بدأه مع الموسيقي الأرجنتيني اليهودي الشهير دانيال بارينباوم قائد الأوركسترا المعروف . . . قال المذيع . . . المشروع هو اوركسترا ديوان الغرب والشرق وهو مشروع إنساني لتعليم الموسيقي ومعرفة الآخر، حيث يعزف العرب واليهود الموسيقى سوياً، ويمكنهم التعرف بعضهم على بعض وهو ما يفتح المجال لتعايش إنساني يكسر جدار الكراهية .

رأى يائيل من الأفضل أن لا يكف عن مضاجعتها، أن لا يكف من اكتشاف أسرار جسدها . لم يقل لها شيئاً . شعر بأنه يريد امتلاكها، وأنه يستطيع أن يضاجعها بكل كيانه ويحصل على سعادة لم يحلم بها . . . فتمدد فوقها شاعراً بأن غرائزه هي التي كانت تقوده . وكانت هي تترقب حركة ساقيه وتأوهاته وحركات يديه اللتين تعبثان بشعرها .

كانت تتأوه وصورة امرأة من جنين تنتحب على التلفزيون . . . لم يدر المحطة . . . غير أن البرنامج تغير وهي تنقلب فوقه، صعدت على جسده وعيناها ترقبان شاشة التلفزيون، كانت تصعد وتهبط . . . وهي تتأوه أمام الشاشة التي تعرض احتفالات حوتسوت هاعير : موسيقى جاز ملتهبة، شعل مضيئة، عروض أزياء باللون بالأحمر- أوديليا مزراحي هناك، منصات مأكولات، قناني نبيذ، كؤوس بيرة كبيرة، معرض فنانين ينتجون باللون الأحمر، بطيخ بارد، كرز حلو، تفاح، أمواج عاتية، أعلام الدولة

باللونين الأزرق والأبيض ، أسماك في بركة المفاجآت ، بصّارون يقرءون النجوم في خيمة التأمل والأحلام ، موسيقى من كوبا ، عمير شرايبر ، ايبالة هود ، عروض يونانية ، عروض أيرلندية . . . صرخت آه . . . آه . . . وانهارت على جسده . . . بينما كانت عيناها على آخر لقطة في الأخبار تعرض صورة قتلى في جنين . . .

***

أورشليم مومس مريعة . . . قال عميخاي .

– كيف يمكنها أن تتنقى من هذا العقاب المقدس . . . سأله المذيع في التلفزيون .

– إذلال . . . إذلال . . . هذا إخلاصها القديم . . . إذلال لنا . . . أورشليم كانت مخلصة وقد أصبحت عاهرة . . . قال عميخاي وهو يردد كلام النبي إشعيا . . . تسجيل قديم يعيده التلفزيون هذه الأيام بمناسبة محاصرة جيش الدفاع لجنين .

نظر يائيل إلى إيستر في الفراش وتخيلها عاهرة قديمة . . . بطانة مرقعة تلفها . . . لون أرجواني وقرمزي بين ساقيها ، شيء مزخرف بالذّهب على صدرها ، جواهر . . . لآلئ . . . وهي في حجرة مسودة في بيت المحرق . . . أرض شنعار هناك . . . روما هناك . . . وهناك أحبار تلمود قديم . . .

هل يمكن لعازب أن ينجح في البقاء عفيفاً في مدينة كبيرة كهذه . . . مثل رهبان نيتريا . سأل نفسه وهو يقرأ صفحات من رواية «ليس من الآن ولا من هنا» التي كتبها «يهودا عميخاي» في العام ١٩٧٥ ، فالبطل «يائيل» يخون زوجته مع الأمريكية «باتريشيا» في أورشليم .

– في أورشليم؟ . . . قال يائيل .

ضوء ينعكس على الواجهات الرمادية للمخازن ، أرصفة يقف عليها منتظرو الباصات وسيارات السرفيس الصغيرة ، لا مقاه لانتظار العشاق ، لا

فنادق ، لا أماكن للسفر ، لا ملاه ، لا بيوت دعارة ، لا مواخير صغيرة شاحبة . . . أماكن أخرى غير موجودة ، أماكن أخرى أغلقت أبوابها ، أزقة ، روابي ، جسور خشبية صامتة ، وسلوان على التل ، سلوان نواتها الأولى شيدت على تلال الظهور ، الطور أو تل أوفل ، المدينة المطلة على السلوان ، إلى الجنوب من المسجد الأقصى ، المدينة التي حلت محلها . . . حلت محلها بزيتا .

***

استيقظ إدوارد من قيلولة السبت ، وجد أورشليم تحت غطاء من الشمس .

كمية الشمس كافية لأن يعلن رئيس البلدية مسابقة رجل الشمس . قالت إيستر .

هبط إدوارد من البناية وسار في الشارع ، أمضى يومه في حانة صغيرة قريبة من موقع دائرة انتخابية تدعى بن يهودا ، تقع في بناية قديمة رائعة .

يوم جميل عند يائيل ، يوم جيد لصنع الشولنيت المكون من الكبد المقطع وسمك الجفلت وهو الثالوث المقدس من أطعمة الكوشر .

القانون اليهودي هالاشا يحرّم بعض أفعال العمل يوم السبت . قالت إيستر لإدوارد .

صحن مطبوخ يوم السبت يترك في الفرن حتى وقت الغداء . يهود السفارديم يأكلون الهامني . . أو الدافينا . . . أما نحن اليهود الأشكناز فنأكل الشولنت . . .

- لنأكل الشولنت ولنترك زلزال الأمس . . .

- بعد العشرة والربع بدأت منضدتي بالاهتزاز . . . إنه الزلزال بالتأكيد ، ٥ على مقياس ريختر . . .

- إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا

والسيدات الآسفات والزلزال . . .

ورقة هذا الصباح على أية حال ، ورقة هذا الصباح وعنوانها الرئيس تؤكد سقوط قنينة على رأس أحد الإسرائيليين . . . سقوط القنينة لم يكن عارضاً . . . ربما هو عمل مدبر لا من الزلزال إنما من شخص آخر .

- أؤكّد لك بأن القنينة سقطت وأصابت رأس المصاب . . . !

- إسرائيل عندها قضايا أكثر جديّة أما القلق حول مستقبل إسرائيل . . . فلنعلم أنها معركة وجودية .

- إسرائيل ليست بلاداً طبيعية لكن لها صفات طبيعية أخرى مثل حق الدفاع عن النفس .

- نعومكن بيرة من فضلك . . .

***

كان مع السياح ذلك اليوم .

إدوار يجرب بأقدامه صعود تلال أخرى ، يجرب الصعود على مرتفع بيت الزيتون ، يجرب النظر إلى مدريا في الشرق عند باب الساهرة ، يجرب بأقدامه مرتفع ساحة الحرم ، ومرتفع صهيون في الجنوب الغربي . . . يمر ببطء وهو يحمل خريطة حديثة مكتوبة باللغة الإنكليزية . . . بيت صغير مطل على التل ، باب يلمع كما لو كان مصنوعاً من الفسفور ، شرطة يقفون على السياج ويلوحون بكشاف النور ، فقراء مسلمون يجلسون على بلاطات رصيف مهشمة ، وفي السياج تجاويف مطحلبة تأوي إليها الطيور .

فتحت إيستر علبة كوكا كولا . . . أزبدت المياه الغازية في فمها ، وأمامها إعلان من بلدية القدس لم تعرف كيف تقرأه . . . صورة أخرى على الجدار تتحدث عن عيد حتسوريت هاعير ، ومن بعيد منازل مهجورة . . . سياح يأتون للجلوس في الظل . . . بذلة كاكية في العتمة ، شومير يضع العوزي على كتف ويمسك كتاباً باليد الأخرى على غلافه

صورة ملوك . . . ونسور إمبراطورية محفورة في المقدمة . . . أنغام آلات العود والكمان والقيثارة تأتي من بعيد ، صورة ليافا . . . للبحر والضواحي والنوارس والمجاذيف التي تضرب المياه معلقة على زجاج مقهى .

وإدوارد يفحص بعينيه الغائرتين خريطة ملونة بين يديه :

بناء قديم في العتمة ، جامع ينتصب بجداره العالي وقد نخر شجره السوس ، نوافذه مهشمة ، مصلاه كبير ، وشومير يحمل مكبر صوت ويستدير نحو الساحة . . . يخاطب الفلسطينيين ويجمعهم عند الجدار . .

- نعومكن هل اشتقت لبلادك . . . قال يائيل .

- تعرف . .اشتقت كثيراً لبولونيا . قال الرجل المسن .

وتذكرت إيستر عند الساحل كيف يراقص ضوء النهار أمواج البحر .

كما لو كانت تخرج من حلم مشوش ، كما لو كانت تسير في الليل برفقة الخفافيش وقد سار المتدينون اليهود بملابسهم السود أمامها . . . وتذكرت الصوفا التي نامت عليها مع يائيل أول مرة ، تذكرت الأرائك العتيقة ، النوافذ الوسخة ، الشجرة وسط الفندق ، الضوء الذي يتذبذب على صفحة الماء . . . كما لو كان يخرج من حلم مشوش ، قال لها :

- ألم يعجبكِ العيد في أورشليم؟

- بيرة من فضلك . . .

- أوديسا أجمل من أورشليم . . .

- أنت جئت من هناك . . .

- نعم .

إنها أجمل بكثير . . . أجمل بكثير من مدينة المتدينين . . . أجمل بكثير . . . أليس كذلك . .ألا تتذكر الحجر الذي يعكس الشمس . . . وموج البحر . . . ألا تتذكر المركب الذي يرشح ضوءاً في الماء . . . وأنا أصرخ من مقدمة السفينة : .

- كابتن !! كابتن أعدني إلى اليابسة . . .

كشاف النور ذكرها بعتمة البحر . . . عيناها المغشيتان في بطء العتمات ذكرها بشيء قديم ، ذكرها بالمركب الذي انزلق بها على الأمواج ، ذكرها بتيار الماء الذي جذب النوتي النائم إليه .

- هل تتذكره . . . النوتي من أصل روسي كان متدثرا بمعطفه . . . والنوتي الآخر من أصل ألماني على مقبض الدفة . والخادم الأسود من الفلاشا الذي خاف أن تتحطم السفينة وتتطاير قطعها في الماء ، ونحن نموت وتغطينا الطحالب . . . هل تتذكر المرأة من الصابرا . . . الجالسة قرب العربي الذي خفنا من أن يغرق السفينة بنا . . . هل تعتقد كان من الإرهابيين . . . ماذا يفعل في يافا . . . ألا تتذكر هذا العربي الذي فجر المطعم . . . . ألا تتذكره . . . ألا تتذكر أشلاء سكان المنزل الفلسطيني في فلسطين ، أو في لبنان ، أشلاؤهم المخلوطة بقطع الزجاج وقطع الخشب والشظايا . . هل تتذكر الإسرائيليين القتلى والمجروحين . . . هل تتذكر؟

***

صورة فوتوغرافية حديثة . يائيل وإيستر بملابسهما وهما يقودان السياح في المواقع الأثرية . صورة أخرى يائيل وإيستر في شقتهما في شارع فريدنون ١٢ في القدس الغربية . تاريخها منتصف حزيران/ يونيو ، بعد الظهر .

إيستر جالسة على الكنبة الصغيرة في الصالون ، يبدو واضحاً أنها بكت قليلاً ، جلست بقنوط وقبضتا يديها مرتخيتان . شعرها أسود فاحم ذو خصلات كبيرة غطى كتفيها . وجهها جميل يبدو محموماً ومتورماً .

ثبتت نظراتها على التلفزيون قال غروسمان :

- يعرف اليهود أن الفلسطينيين لن يزولوا .

بعد ترقب طويل للشاشة ، شعرت بأن يائيل تأخر عليها ربما ذهب عنها . .

إيستر كفي عن التظاهر ! قال لها يائيل من المطبخ .

غروسمان : لا أعرف عن أي شيء تتكلمين . أنا موافق . . . إن الجبن السياسي للقادة هو أنهم يبنون أمجادهم على شجاعتهم البدنية! أنا موافق أيضاً على أن الحلّ معروف ، وأن العالم أجمع سيفرضه علينا يومًا ، بعد أن يكون اشمئزازه مما يجري قد بلغ حداً كافيًا . غير أني أكثر تشاؤمًا من عاموس عوز . فأنا أعتقد أننا ، لو توصّلنا يومًا إلى السلام ، فلن يكون سلامًا ورديًا وأبديًا ، بل محفوف بتشنجات العنف . نحن لن نعرف السلام الحقيقي في حياتنا هذه .

سألته المذيعة :

- ما الذي يثير مخاوفك؟

قال غروسمان : أكثر ما يثير مخاوفي هو أنني لم أعد أؤمن بوجود إسرائيلي . ساوَرَني الشك دائمًا ؛ وهو كابوس مشترك يعانيه اليهود كلهم الذين يعيشون هنا . لكننا ، خلال عقود ، توصّلنا على الأقل إلى التعايش بعقلانية مع هذا الكابوس . والواقع إنه ، منذ عامين ، عاد أفق زوال إسرائيل وإنهاء التجربة «البطولية» الجارية هنا ليصبح ملموسًا .

- ايستر أقسم لك بأنني لا أعرف عن أي شيء تتكلمين . صاح يائيل .

تنهض ببطء . وجهها شاحب للغاية ونظراتها تنضح بالكراهية . تبصق بوجه التلفزيون .

- إيستر هل أنت مستاءة؟

قال غروسمان :

إن الفضائح التي تخللت الانتخابات الإسرائيلية تظهِر أن الناس فقدوا أيَّ حس أخلاقي ، واختفت ، بكلّ بساطة ، أدنى مستويات الرياء الضروري للعيش في المجتمع . وهذا ناتج ، إلى حد ما ، عن الإرهاب .

فعندما يمسي محيطك أجساماً ممزقة وبقايا بشرية ، لا تعود تقوى على الإيمان بشيء! لا بد من أن يتقاسم الأفراد وهماً ويتقبّلوا عقداً اجتماعياً للإبقاء على ثقافة ما ، وعلى ديمقراطية . هذا كله تفتت .

جئنا إلى هذه البلاد لنؤسِّس دولة لا نخشى فيها على حياتنا . أما اليوم فقد بدأت غريزة البقاء على قيد الحياة هذه تتلاشى ، ولا يحلم الناس سوى بالذهاب إلى أمكنة أخرى .

دخل يائيل وقال لها :

- إيستر لنتفاهم ونحاول أن نوضح الأمر .

خطفت إيستر ملفاً من على المكتب ، رفعته وانهالت به بكل قواها على رأس يائيل . وقد أفلح يائيل بصعوبة في تفادي الضربة .

محتويات الملف تتناثر على الأرض . فأمسك يائيل إيستر من كتفيها وأرغمها على الجلوس .

***

- هذه مدينتنا . قال يائيل .

بلاد مسالمة نشطة سعيدة لذيذة ممتدّة على شاطئ بحرٍ أزرقَ متلألئ إلاّ أنها تنصتُ إلى الأصداء المكتومة لصوت الانفجارات .

أنصتت إيستر إلى نبضِ القلب المنهَك ليائيل .

بلاد جريحة تعيش على الدم المُراق . . . بلادكم هذه مرعى للحرب والدعارة . . . نحن جميعاً نعمل للحرب . كلنا في مصنع الحرب . .كلنا بقدْرٍ أو بآخر عمّالَ حرب . .

***

كل شيء يقدم في الحانة . . . إنه العيد . . . في أورشليم . قال يائيل للسياح المتجمهرين حوله .

شجرة أمنيات ضخمة للأطفال . . . ورش لصنع الشوكولاطة . . .

ورش لصنع التماثيل من الطين ، مسابقة بناء القصور في الرمل ، وملء القارورات بالرمل الملون . وهناك عرض لفرقة الرقص هورا افروحيم ويقوم لاعبو فريق بيتار أورشليم لكرة القدم بإعطاء التواقيع للأطفال . وكما ستعرض قطع أثاث قديم من الخشب ، أدوات فخارية ، وتنصب في المكان منصات لأنواع الخبز والمعجنات المختلفة . . . يقام خلال الأسبوع معرض ومسابقة رسم لوحات ، وسيكون مفتوحا أمام الجمهور ، أما موضوعه فهو يروشاليم شيل زاهاب والفائز في المسابقة يحظى بنهاية أسبوع جميلة ومجانية في المدينة الذهبية .

***

إسرائيل . . . . إسرائيل .

ضجة في الصوت . . . حين يقترب الاسم من الأذن . . . قالت إيستر .

صوت ويوتوبيا أيضاً . . . حلم . . . وكل شيء سوف يصبح بالتالي ضجة لا موسيقى .

قالت ذلك وهي تعود من مكان انفجار الباص في شارع ميا شاريم ، قالتها وهي تسترجع هذه الفكرة في نفسها ، تسترجع ما سيكون ضجة يوماً ما . إنه الكلام الذي تريده ، ويائيل لا يكف عن الكلام ، لكنه كالفراغ الذي يتكلم ، وها هو ذو همهمة خفيفة ، ملحفة ، لا مكترثة . بلا شك ، كان كلامه واحداً في جميع الحالات ، كلام لا يقنعها وهو بلا سر تقريباً ، ومع ذلك فهو يعزلها عن كل حالة من الحالات الأخرى .

كلام . . . كلام . . . قالت في نفسها .

هل يفرق يائيل بين كل حالة وأخرى ، هل يفرق بينه وبين كل حالة يعيشها ، حين ذهب إلى الحرب كفر بالحرب ، وحين عاد من الحرب سالماً كفر بالسلام . . . إنه يتكلم كثيراً في شركة السياحة عن الآثار

والتاريخ . . . ولكنه كلام لا أكثر . . . بينما نحن مع كل حالة نتحول إلى كلام ، وعالمنا إلى كسر وشظايا .

شيء يفصلها ذلك الوقت عن كل ما يحيط بها ، متاهات سافرة ومكشوفة تبعدها عن الحدث ، شيء يجذبها بعيداً بواسطة صورة جذابة ، تأخذها بعيداً عن الكلام الذي تسمعه يومياً في الإذاعة وفي التلفزيون أو الذي تقرأه في معاريف أو يدعوت إحرنوت . . . أما الكلام الذي تسمعه من الناس فهو وحده الذي يبدد غربة المشهد ويمسح كل ما علق به من غش وتشويش من ذهنها ، كلام تكمن أهميته في كونه يقول شيئاً ما ، بينما لا يقول التلفزيون أي شيء البتة . فضلاً عن ذلك ، يتبدى أنه عميق ، ويجعل من اللا مسموع مسموعاً .

***

قال إدوارد :

- كان راشد حسين هناك في العام ١٩٦٦ ، يقف وحيداً عند الرصيف .

سفن تتقيأ المسافرين ، صيادون يحملون السلال ويهبطون بها إلى البر ، نساء في سوق العجمي يشترين الملوخية ، والزعتر ، واللبن الرائب .

يقف راشد حسين هناك ، يفتح رواية بالعبرية ليوسف عجنون ، أو ديوان شعر لحاييم نحمان بياليك ويقرأ ، وبين آونة وأخرى يرفع رأسه عن الكتاب ساهماً ، ينفث دخان سيجارته في الهواء ، ويراقب العمال العرب الذين يعملون على الرصيف .

عمال يشربون الشاي قبل أن يدخلوا شارع روتشيلد ، زبائن يتجمعون عند السوق ، صناع يدفعون عرباتهم اليدوية ، صبية يأكلون خبز الزعتر وقد سال الزيت من فمهم ، يزدردون بملء الفم خبزهم ، وهم ينظرون الجنود بملابسهم الكاكية وعوزياتهم ويمرون . . .

كـان إدوارد يرقب الدرزيات اللواتي يرتدين غطاء الرأس ويذهبن من هناك إلى الشارع أو إلى السوق ، يرقب الأزواج المسيحيين الشباب وهم يذهبون إلى المتنزه ، ينظر البدينات الثرثارات المنتظرات الباصات التي ستنقلهن إلي الأحياء البعيدة ، أو إلى الضواحي ، أو إلى أورشليم .

برز راشد حسين من بين هذا الحشد ، برز العجوز القادم من قرية مصمص ، العجوز الذي يؤجر منظاره الحربي الذي شارك فيه في حرب الثمانية وأربعين للأطفال .

«لم يبق شيء» . . . قال راشد حسين ، وهو يعدل ياقة جاكتته الأنيقة ويقف على قدميه .

أخرج علبة سجائره من جيبه ، أخرج سيجارة ووضعها في فمه ، أشعلها من عود الثقاب وأطلق الدخان في الهواء ، وضع كتبه على مصطبة ، وأخذ ينظر إلى البحر البعيد :

بوارج حربية هناك . . . ناقلات بترول تستعد لتنطلق في رحلة عودة عن طريق المتوسط ، قمة برج المعسكر القريب الذي خدمت به فيما بعد إيستر ويائيل .

ذهب راشد حسين إلى العجوز الذي يحمل المنظار . . . ثم أخذ ينظر به نحو البحر . . . منظار الحرب ذاته ، كان ينظر به ، لم ينقل شيئاً جديداً . . . لم يكن ينظر إلى يافا . . . إنما إلى البحر . . . والرجل العجوز خلفه . . . كان يتساءل في سره هل ستظهر له؟ وجهها المدور الشاحب ، هل سيتبدى له؟

ماذا تنظر قال العجوز لراشد حسين .

للاشيء . . . ألم ننظر منذ أكثر من نصف قرن إلى لاشيء . . .

ضحك العجوز بفم بلا أسنان . . . وقال له :

- لا تغلب حالك . . . الكل هون تنتظر . . . بس إشي ما بيجي . . .

مش انت اللحالك . . .

***

كان إدوارد ينتظر منها أن تأتي وتربت على شعره ، بهو مغلق ومقيد الى المكان ذاته . . . عمال عرب هناك مرتبكون أمام السفن الخالية المربوطة إلى كل ضفة ، أضواء نيونات ملونة شاحبة ، ملامح ممحوة لطرقات بعيدة ، مزابل مستوطنين ، معلبات محفوظة تطفو في دوامات الموج ، صبي يقترب منه . . . قال له :

سار راشد حسين في الطريق متجهاً إلى شارع باروخ . . . جلس في تيراس مطل على البحر ، فتح ديوان حاييم نحمان بياليك وبدأ يقرأ .

- انتباه . . . انتباه . . . هذه الشوربة اليهودية لذيذة جداً . . .

- أنا أريد وجبة مختلفة غير متضمّنة في المنيو . . .

- صلصة تاباسكو أوصيناك أليس كذلك . . . ليمون . . . ماء بارد .

- الوجبة الرئيسية ، استقرت على وينر شونتزل . . .

- صحن آخر من شونتزل . . .

- كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون .

- إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا والسيدات الآسفات والزلزال . . .

***

لم تنس إيستر يائيل مطلقاً وهو يضع شفتيه على حلمتها البارزة ، يتمرغ بين نهديها ، كان يثور أحياناً ، ثم يهدأ ، ينظر إلى وجهها ، يديم النظر في عينيها مباشرة .

- صمت . . . صمت . . انتهى خداعنا . قالت إيستر . . .

كلام بارد بصورة مذهلة .

كلامك لا حميمي وحزين . . . كلامك خداع ، كلامك لا يقول

شيئاً . . . أنا أتحدث إليك ولكنك مجهول ، أنا أتحدث إلى داخلي . . . وأنت تتحدث إلى داخلك . . . لا شيء في الخارج مطلقاً . . . عالم منعزل ، لا نفهمه ولا نسمعه ، لكنه غير هذا في أي مكان ، وفي كل مكان ، والكلام صامت ، صمتنا هو الذي يتكلم ، كلامنا خاطئ ، هل سمعناه . . . كلامنا سر دون سر .

كان إدوارد يسير قريبا منها ، يسير تحت سماء شاسعة ، سوداء . تومض نجوم باردة . بين الأشجار قمر يرتفع وريح تجعل الحجارة تتحرك . . .

«تحت سماء شاسعة كان آدم الإسرائيلي يهيىء عشيقاً شاباً لزوجته الشابة» هكذا قرأت إيستر في رواية إبراهام .ب . يهوشوا في العام ١٩٣٦ في القدس .

كان إدوارد ينظر نعيم العربي وهو يعمل في ورشة آدم ، يعمل ليل نهار في ورشة آدم اليهودي . . . في قلب أورشليم كان صقيع الليل يجعل الناس يتدثرون أمام مدافئهم ، ويجعل الكلاب تكف عن النباح . والأطفال الصغار يلتصقون بأجساد أمهاتهم ملفوفين في أردية معقودة ، والشيوخ يتأرجحون في فرشهم المعلقة وأنظارهم شاخصة لليل . ليس هناك ما يقال الآن . ليس هناك ما يقال .

الأسرار مغلقة داخل الأفواه بتأثير البرد . وبتأثير الظلمة . قالت إيستر .

كل ما نترجاه لا يجيء في الليل . ليس ثمة ذكريات . وما نفع الذكريات . . . فهنا الحاضر هو المهيمن . . . وهذا الموضع هو المكان الأكثر يقظة فوق البسيطة . . . ماذا تريدون منه . . . ماذا تريدون منه . صرخ آدم بوجه اليهود .

« ماذا تعرفون عنهم؟ يعمل لديّ ثلاثون عربياً وكل يوم أعرف عنهم أقل ، تستطيعون أن تثقوا بي ولكن هذا عربي آخر . مختلف عنهم . .»

قال آدم الذي صنعه يهوشوا في روايته .

- إنه ماهر في عمله .

- نعيم مؤمنٌ بواجبه ومخلص .

- اليوم يعمل لديك في الورشة تقي ونشيط ، مبتسم ومخلص . وغداً يصبح حيواناً قاسياً . سيصبح إرهابياً . .أليس كذلك .

- اليهود يعتبرون العرب ظلاً فقط ، ويعطونهم أوامر بطريقة ميكانيكية . . . قال نعيم .

- ما يشعره بالغربة ملصق الفتيات الجميلات في الورشة وذلك الطعام في بيت آدم .

كان إدوارد يراقب نعيم ، ويراه مع النساء في المطبخ . . . كان يعرف أنه يحب قصائد (بياليك) و (الترمان) ويترك نفسه يصغي للسور القرآنية . إنه مسحور بحياة اليهود . اليهود لا يعرفون شيئاً عن العرب ، بينما يتعلم العرب كثيراً عن اليهود . الإسرائيليون هم اليهود الذين جاءوا من بولندا! قال نعيم . . . ابنتي اليهودية أحبت نعيم العربي . . شيء بسيط أحبت به رائحته وخشونته وبربريته . . . وأنا متأكد أن نعيم ليس مثل كل العرب يريد قتل اليهود .

- أنت تنام مع يهودية في بيت يهودي . . . قالت له ابنة آدم .

- لا أنا أنام مع يهودية في بيت عربي . . . هذا البيت هو بيتي وأنتم سرقتموه .

- لا ينسون بيوتهم أبدا . . . لن ينسوا أنهم أهل البلاد الأصليين . . . .

- أنا يهودية . قالت لنعيم .

كان إدوارد يسمعها وهي تتكلم ، إيستر كانت تسمعها أيضا .

هل قمت بهذا الوعد؟ لم أقم بهذا الوعد . قالت . لو كنت اعتقدت

أن هذا سيدوم إلى الأبد ، وهو ليس كذلك .

لم يكن من شيء ، لم يكن من شيء . قال لها إدوارد .

حلم فتاة جاءت من بلاد بعيدة ، حلم فتاة جاءت لتتعرف الى مدينة كبيرة ، وتواجه الآخرين ، حلم فتاة تلتقي برجل تحبه .

- لا ينتهي هذا الأمر نهاية سعيدة .

- نهاية سعيدة . . . بعد كل هذه المشقات . . . إسرائيل ذاتها لن تنتهي نهاية سعيدة . . .

- بعد كل هذه المشقات التي واجهتني . . . سترتادني حكاية ذلك الرجل الذي أغرم بي .

كان إدوارد ينظرها وهي تقرأ رواية إسرائيلية عن هذه اليهودية القادمة من أوربا ، سيكون كل شيء مع آدم إلى الأبد ، وابنته ستبقى تحب نعيم العربي ، ستبقى روحها تعانق روحه ، سيرافقها بأحلامها على الرغم من مظهره المقزز نسبة لليهودي ، ولكنه سيتغير . . . سوف لن يكون الفظ ولا الثقيل وهو ينام مع ابنته ويأكل السجق والبطاطا ، سيتعود على الكوشر الإسرائيلي ، سيقرأ يدعوت إحرنوت ، وشعر بياليك ، وسوف يتعرف على الحياة اليهودية ، سيتعرف على جيرانها ، وفي الليل يسمع آدم شخير ابنته من اللذة تحت جسده القوي وعضلاته المفتولة .

- العربي آلة جنس . . . بالتأكيد ، فهو يصلح لهذا . . . ولكن إياك أن تنجبي منه ، حتى لو كان ابنك ، غير أنه سيغدر يوماً بأمة إسرائيل ، عربي لا تأمني منه ، هذا نعيم تحت تصرفك نامي معه ، استغليه جنسياً ، وأنا سأستغله في دكاني . . . ولكن إياك أن تنجبي منه . .

***

لقد أمضى راشد حسين الليل وهو يقرأ على مصباح المقهى المطل على البحر ، وكانت النادلة تقدم له البيرة كأسا بعد كأس ، يخرج ورقة بيضاء

من جيبه ويترجم شعر بياليك جملة ، جملة . . . فارجاً شفتيه المنديتين بالبيرة عن ابتسامة شاحبة .

كان وجهه شاحباً وهو يقرأ شعر بياليك ، وهو ينظر البحر أمامه ، وهو يفكر بالنادلة ، وبوجه أمه ، وبصغير يجرب منظار العجوز ، وبطفلة تلعب التخبئة ولا تعود ، وأمها تبحث عنها ولا تجدها ، بالمرأة التي قتلها عشيقها بعشرين طعنة من مديته ، إلى الفلسطيني الذي يركض ولا يصل ، يركض ولا يصل أبداً . . . وضع يده على شعره الأجعد ، أطرق قليلاً وهو يفكر هل يغادر فلسطين . . . إلى بلد آخر ، هل يغادر . . . ولكن أين يذهب ومتى يعود . . . ؟

كانت عيناه سوداوين ، أنفه كان صغيراً ، أخرج سيجارة من جيب بنطاله ، أشعلها وأخذ ينفث دخانها في الهواء ، شيء لا يتقدم أبداً . . . كل شيء يتراجع إلى وراء ، كل شيء يأخذ دوره في هذه التراجيديا ، دفن حزنه بدخان سيجارته ، كان يسحب الدخان إلى الأعماق ، ويمص كأس البيرة بقوة ، تاركا الشحاذين وراء زجاج المقهى يبتعدون ، والصمت الليلي لا يخترقه سوى صدى صافرات السفن ، منبهات السيارات ، طنين الباصات ، خفقات أبواب الحمامات في المقهى . . .

خرج راكضاً نحو الرصيف وهو يريد أن يشم الهواء . . . كان محاطاً بصياح الباعة ، بسائقي التاكسيات ، بالإضاءة الساحرة والمذهبة مع صور المدينة في الليل وهي تستقبل السكارى والعاهرات ، بالرمل البحري الذي يصفر كالذهب ، وبآلاف أزهار دوار الشمس ، وأزهار الأقحوان ، وأماكن بيع عرانيس الذرة المسلوقة ، وبأنواع الخبز والمعجنات ، وبباعة عجة البيض ومشروب النعنع بالليمون ، وبكوكتيلات الموز المخلوطة مع مشروب الكمباري وعصير الجريفوت .

- مدينة جميلة ولكنها ممنوعة عنا . . . ممنوعة لأن وجوه الناس غير

آبهـة بنا . . . نوع من الاحـتـقـار المريع الذي يبـديه اليـهـودي إلى الفلسطيني . . . عنصرية مريعة . . . خبث جبان . . . كيف نعيش تحت هذا . . .

***

فجأة يمر إدوارد سعيد ، ينتهي خمول الظهيرة في أورشليم . يمرق السياح من مختلف الأعمار بشورتاتهم الكاكية وكاميراتهم ، وينتشرون في الشوارع والمطاعم والمقاهي ، وشيئاً فشيئاً تأخذ الحركة في الشارع نسقاً سريعاً ، ويكثر الجرسونات من الانحناءات والابتسامات ، وما إن يتقدم الليل قليلاً حتى تمتلئ المطاعم والمقاهي والنوادي بهم .

أشعلت إيستر سيجارة وصاحت :

- مللت من أورشليم ومن الكلام عن أحجارها القديمة .

دخل يائيل بعد قليل حاملاً فنجان قهوة ثم اختفى من جديد . همس وأصابعه النحيلة الطويلة تواصل العبث بشعر إيستر .

شاب يتحدث للسائح عن صديقته التي رافقته في رحلة أورشليم . . . قال :

- إنها فتاة رائعة . . . أنا أحبها إنها من كفر ناحيم . . . وصلت قبل شهرين إلى أورشليم . . . لقد تعرفت عليها في بار حقير قريب من هنا . . وأبداً لم ترو لي شيئاً عن حياتها . وأنا لم أسألها عن ذلك . أعرف فقط أن اسمها هيلا ، ورأيت على جسدها كدمات ، قالت إنها تعرضت لحادث حينما كانت في الجدناع . . . هذا كل ما أعرفه عنها . ربما تكون قد فرّت من زوجها . . . وجاءت إلى أورشليم . . . إنها تحب أورشليم كثيراً . . . وأنا لا أحب أورشليم فهي مدينة متدينين . أنا أحب تل أبيب كثيراً . . . ربما سترافقني إلى هناك . . .

قالت إيستر :

- هذه المدينة حقيرة . . .

بعد دقائق قليلة دخل يائيل من جديد ، وجلس أمام إيستر واضعا أمامه سمكة وسلاطة وزجاجة نبيذ أحمر ، وجلس قبالتها . أشعلت سيجارة . فتحت زجاجة بيرة . وراحت تدخن وتشرب صامتة .

كان إدوارد يجلس وهو يرقب الشارع ويقرأ قصيدة لسامي شالوم شتريت :

قطط تولول لغة البشر ضمن قطيعين من هذا وذاك ، في خرائب ، تتأجج من عيونهم اللهب ، وفي رؤوسهم أسنان بارزة قاسية على عجلة القمامة المحلية ، بينهم سنتيمتر واحد للإرهاب يعلنون بضجيج صارخ ، وفي مخيماتهم يستعدون للمعركة وأنا أولول لهم بلغتهم ، ما لي ولكم يا قساة ، يا أيها المنحطون ، سأسفك أنا قمامتي ، واسفكوا أنتم من فضلكم دمكم لدى مرور عربة القمامة المحلية .

قال : هل سنسفك دمنا عند مرورهم؟ تساءل .

مرت عربة عسكرية . . . وفي أعلاها العوزي مهددة صدور الذين يمرون من هناك . شمس تنحني نحو المغيب . . . رجل يشعل سيجارة ، عاشقان يتعانقان ، عابر سبيل يرفع قبعته عن رأسه وهو يقول : أسعدتم مساء ، لحظة من حياة مغلقة في المخيمات ، شعور جديد في مدن تحت الاحتلال ، ظلام وعزلة وحب وأعذار وسعادة بسيطة وجمال ذاو في مزهريات قديمة .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

تراءت له صورة المنزل هناك قبل هجوم الجنود ، قبل أن يحفظ قصيدة لورد تنيسون عن ظهر قلب ، قبل هجوم الهاغانا من طرف السوق ، قبل هجرة السكان الأصليين . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . صوت إدوارد يصدح بقصيدة تنيسون . . . يصدح من بعيد :

- مجدوا هجومهم . . . .مجدوا هجومهم . . .

صوته المتهدج الصغير يمجد الخيالة الستمئة ، صوته يصدح بينما تختفي أحياء المدينة تحت نقع تراب الخيالة ، والجنود القادمين من الشمال .

- مجدوا هجومهم . . . بينما يجد المركب مسافة قصيرة في الماء ويصل الشاطئ ، يجري الهارب مرة أخرى من المؤخرة إلى المقدمة . . . خطوة واحدة ثم يندفع نحو الماء فيتأرجح قليلاً . . . صعد وسار إلى داخله وبدأ بترتيب المجاذيف . . . خاض الهارب في الماء حتى ركبتيه وصاح بقوة :

- انتظرني . . . انتظرني هناك . . . هذه أورشليم . . . سنقرب قرابيننا هناك . . . سنجعلها من البقر . . .

- أنا قادم أيضاً . . . أنا قادم أيضاً . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

***

قالت آمال لإدوارد في التلفون :

- استلمت التصريح بصعوبة دون شك . . .

ثم أخذت تتحدث له عن رحلتها إلى فلسطين . . . وكيف حلمت وهي في التاكسي الذي أقلها من فندق صغير وسط البلد إلى الحدود ، حلمت وكأنها تسير في شوارع القدس القديمة ، حلمت بجارتهم ماري :

- ماري هل عرفتها . . . اصطحبتني مرة وعبرت بي باب العامود ، عبرت بي الشوارع المزدحمة حتى وصلت كنيسة القيامة .

ترجل سائق التاكسي ، أنزل حقائبها .

- ماذا سنفعل؟ سألت .

نظرها السائق بطرف عينه وقال لها :

«ناولْي جواز سفرك للشرطي الواقف هناك وانتظري دورك» .

شعرت بقلبها يدق بقوة ، خوف مفاجئ هيمن عليها تلك اللحظة ، أمعنت في الوجوه الحزينة الصامتة ، اقتربت من الجندي وناولته التصريح ، لم يلتفت إليها ، عادت إلى حقيبتها ، كانت القشعريرة تنتابها بين حين وآخر ، الدمعة على قمة الرموش ، مشاعر حزن وأسى صامت ، صوت أجش ينادي عبر مكبرات الصوت ، جموع بشرية تتقدم مع الحقائب والأطفال ، كل ساعة يخرج الشومير بسلاحه العوزي ومجموعة من الجوازات والتصاريح ، يقف ويقرأ الأسماء ، الوجوه تتفرّس به ، عيونُ النساء والرجال شاخصة نحوه ، كان الوقت يتخثر في المكان ، أشعةُ الشمس تشتد ، شوقهُا ينضح ، وصبرها يذوب ، سمعت اسمها فدخلت المخفر :

- سبب الزيارة؟

- لا سبب! . .

- مدتها . . . ؟

- لا أعرف . . .

كيف . .هل تنوين البقاء هنا إلى الأبد؟

- . . .

جلست في الباص . . . تحرك ثم توقف ، بعد قليل ثمة جنّدي يفتشُ عن التصاريح في الباص ، وقف الباص بعد لحظات فوق جسر حديدي قديم ، كانت تسمع دربكة عجلاته على السكة . رائحة شجر مبلل بالمطر ، ونهر الأردن يجري بهدوء . دخل إلى الباص جنّدي أسرائيلي :

- تصاريحكم .

ناولته التصريح فأخذ يطالعه بعينين مستريبتين ، ثم تناول تصاريح الآخرين وهبط من الباص . كان الصمت يخيم على المكان ، وأخيراً رأى محطةً لنزول الركاب ، وقف الجميع طابوراً ، ثمة قال لهم عتال :

- كل واحد يحضرُ شنطته إلى هنا .

شاب يدخن بعصبية يجلس خلفها على مصطبة ، امرأة عجوز تحمل كيساً كبيراً ، أطفال يتصايحون في الباحة ، رجال . . . نساء . . .أطفال . . .

- أين تذهبين؟

- إلى القدس . . .

- مدة الزيارة . . . .؟

- لا أعرف . . .

- يجب أن تقرري . . . ؟

- صدقني لا أعرف . .؟

قضت ربع ساعة في ترتيب حقيبتها المبعثرة بإهمال أمامه على منصة التفتيش ، ثم عرتها اسرائيلية من ملابسها في غرفة داخلية ، في ذلك الوقت كانت تتذكر ستها التي تقص عليها قصة قبل أن تنام :

لبست آمال الفسطان وراحت تجري عالكصر ولما شافها الأمير حبها ، دكت الساعة طنعش وجراي وصارت ترمح وترمح ووكعت ببوجها عالدرج . . . آمال راحت عالبيت واتمنت لو انو الساعة ما دكتش على الطنعش ، بس شو تسوي بحظها المشحبر مثل حظ هاظا الشعب . حط الأمير فردة البابوج على مخدة يمكن لونها زركة أو نهدي ، المهم صار ينادي بالصوت على كل البنات عشان يكيسن البابوج ، ولبسنها كل البنات إلا آمال . . . آمال نزلت على الساحة ومعها فردة البابوج ، وحطتها على المخدة الي عليها الفردة الثانية ، ولما كربت عشان تكيسها ضربها الأمير كف ، وحكالها : وين جاي يمه .

حكتلو :
يقطع وجهك ما أزنخك ، مش شايفني بدي أكيس البابوج .
حكالها : وحدة مثلك كيف بدها تكون فلكة الكمر هديك .
كالتلو : هسا بفرجيك وأحط على عينك ولما اجت تكيسها ، ما طلعت كد اجرها ، لأنها كانت ورمانه من كثر الشغل .
ويا حرام ما حدا صدكها ، والجنت المشحبرة دارت في الشوارع ، والأمير اتزوج غيرها .
وحكى : لوينتا بدي أظل أدور عليها الله لا يردها هي الخسرانة .

***

قالت إيستر هل يستطيع نعيم أن يحب الإسرائيليين . . . أو أن يصبح نداً لهم .
تداعى جسده فوقها . . . لم يكن إدوارد يعرف كم من الوقت عانق آمال في بيروت ، بعد أن خرجت من السجن ، كم من الوقت داعب شعرها ذلك المساء . . . كم قبلها في عتمة غرفة الفندق ، خفقات قلبه تهدأ عندما تمر ذراعها على جسده وهي تنتبه إلى ثقل جسده ، يمسك بها وينظر إلى النافذة . قالت له :
- سأذهب!
جذبها ناحيته مسنداً رأسه الى صدرها .
كان إدوارد هناك ، حيث يرتفع المحسوم بجدرانه الإسمنتية إلى أعلى . . خوذ الشومير والجنود ترتفع وعلى أكتافهم عوزياتهم المدهونة . . وفي المواجهة أدوات الرصد والمراقبة . . والأوامر بالتوقف ، أو المنع من المرور ، أو العودة من حيث أتيت .
قالت أم محمد : « كالوا لنا مروا . . . » .
قال أبو سعيد : « كالوا متمروش . .» .

- نمر أو لا نمر . . . تلك حكايتنا قال الرجل لزوجته .

الجندي يصرخ على الناس ويسخر من طابورهم الطويل .

- ابتهجو قال الجندي سنوزع عليكم الحلوى وكؤوس الشاي وسنجعل مخاسيمكم أكثر إنسانية .

أفرايم سيدوم يصرخ :

يا أطفال صيدا وصور . . إني أتّهمكم . .ألعنكم لأنكم مخربون . .

أفرايم سيدوم يصرخ بصوته الأجش : ستنامون محطمي العظام في الحقول والطرقات . . . لا تسألوا لماذا . . . فإنه العقاب . . . والآن حان عقابُكُم . . . كل النساء في فلسطين . . . كل الأمهات . . . كل الحوامل . . . كل المسنين وكل الأرامل . . .

- ها نحن قادمون لنعاقبكم . . لنقتصّ منكم . .

***

قال يائيل :

- تعالي عندي الليلة يا عزيزتي إيستر . . . تعالي عندي الليلة . . . ليس هنالك من شيء غير واضح .

- كل شيء غير واضح . قالت إيستر وهي تضع يدها على كتف يائيل .

على رصيف البحر ، تحت صرخات النوارس البيض التي تحوِّم في الهواء ، تحت صرخات النوارس وهي تتلاشى مع مد البحر في يافا ، وقف يائيل مضطرباً أول الأمر ، كان خجلا قليلاً ومحرجاً .

وقف أمامها وهو يرتدي ملابسه الكاكية ، ومن خلف كتفيها ينظر إلى بريق شاطئ بعيد وهو يتلاشى في المدى الممتد . . . سحب زرقاء غير متوقّعة تغور ، نساء يتجمعن قرب رصيف البحر في شارع باروخ ، ممرات مشجرة ممحوة في الضباب ، خط أصفر عميق يلتقي مع لون رماديٍّ داكن ،

شجر معمر عند رصيف الميناء يهتز بفعل نسائم بحرية ، باردة ومنعشة .

كما لو كانت تقرأ قصيدة لبياليك ، قالت له إيستر :

- هذه أغصان متأخّرة لم تيبس بعد . . . انتقِ منها ، قبِّلها واجدل الإكليل .

ارتعش من البرد ، تمتم بكلمات غير مفهومة أول الأمر ، ثم ارتبك أمامها وهو يمسك يدها . . . لم تعرف سر تلبكه . . . وضعفه . . . لم تعرف سر شروده الدائم . . . وغربته . . .

- أنتِ تعرف هذا المكان . . . تعرفه جيداً . . . أنت مؤمن به جداً . . . أنت تعرفه جيداً . . . هذا عملك يائيل في الآثار . . . أنت تعشق هذا المكان أليس كذلك .

لم يجبها .

نظرت إيستر إلى الغصون التي لم تيبس بعد ، إلى الأرجوان على حوافّ الغصون المنزوعة القشرة ، إلى ما بقي من حياة خضراء فيها وهي تستذكر عبر كلام يائيل الغامض جداً ، والعاطفي كثيراً ، الوجه الخريفيّ لجدتها . . . التفت إلى جهة الشمال أولاً ثم صوب نظراته في وجهها تماماً :

- ربما لن نلتقي مرة أخرى . .أتعرفين؟

قال ذلك ووضع منديله الأبيض على أنفه . . . منديله الصغير الذي وضعه في جيبه ضوعت منه رائحة برتقال خفيفة . مد بصره إلى البحر الساجي على الضفة وهو يسمع صوتها خفيضاً متقطعاً وحزيناً . . .

- ستعود . . . أعرف بأنك ستعود . . .

شيء غامض يدور حولهما ، شيء غامض يحوم حول جسديهما الضعيفين ، وأصوات عديدة يتداخل بعضها مع بعض . همسٌ يكاد يسمعه بين الآونة والأخرى من بين صوت أحذيتهما التي تطق على

رصيف الإسفلت ، همس يستعيده من ذاكرته ، يوم التقاها أول مرة ، وسألها :

- هل هاجرتم كلكم . . . هل جئتم هنا بعد الحرب . . . ؟

- أي حرب . . . حروبنا كثيرة . قالت إيستر .

- هنالك شيء قديم يمكننا أن نتحدث عنه فيما بعد . .قال لها . . .

وواصل كلامه دون انقطاع :

- نعومكن بيرة من فضلك . . . نعومكن قطعتين من الثلج . . . هل تعرف بأنه عاد إلى أورشليم بعد تسرحه من الجيش . . . نعومكن بسرعة من فضلك . . . يقال بأنه عمل دليلاً سياحياً في أورشليم . . . أتت إيستر وعملت معه . . . طبعاً . . . طبعاً . . . صاحبة الشركة السياحية قريبته . . . إنه لا يعمل عملاً متعباً . . . فهو يقود السياح الأجانب في الآثار . . . صحيح هو يكسب قليلاً . . ولكنه يكفيه . . . يسكن في شارع فردينون ١٢ . . هل تعرفه . . . هل تعرف مكتبة ليو موديل جيلو . . . قريب منها . . . بينما أمه تسكن في شارع كارل نطر ١ ، بجانب مدرسة رنه كسين . . .

- الشونزل . . . أنا أفضل الشونزل وأنت ماذا تفضلين . . .

- نعومكن من فضلك بيرة باردة . . .

- هذه حارة ألم أقل لك باردة . . .

- أورشليم حارة في الصيف . . .

- أنا أفضل الشولنيت والهلاشا . . .

***

سار إدوارد في الطريق إلى ميدان أورشليم . . . كان الشارع شاسعاً ، غامضاً ، متراكماً ، مشوّشاً . . . جاءه صوت مثل صوت نهارٍ قصي . . . أصوات متداخلة . . . تنكمش وتنتشرُ في أذنيه . . . صورة تنتشر في بؤبؤي عينيه المضطربتين . .

- هاجر سيعزلونها عن الينبوع . . . ربما سيحصدونها من الغصن . . . ربما يوصدونها مثل باب .

- امرأة حامل ماتت عند المحسوم . . .

- هاجر لا تعرف شيئاً عن اللحظات الآتية ، ربما لن تراها بعد الآن . . . وهي تعبر وادياً . . . ربما لن تسمع حكايات المراعي الخضراء ، لن تفيض صرارها بصدى المدن البعيدة .

- هل تعرفين أن لحم النوق ليس مسموحًا به ، كما يمنع أكل اللحم واللبن معًا . . . قال السائح لصديقته .

- هل تذكرين الاضطرابات التي أحدثها اليهود يوم افتتح ماك دونالدز لأول مرة؟ كانوا يعترضون على ما يسمى McBurger و لكن هل عرفت لماذا؟ لأن المأكول يحتوي على لحم وجبن . . . أي لحم ولبن .

- هل تجولت بعد الهجوم؟

- لقد مشينا في الشارع ، وكان الحطام في كل مكان ، الحافلة ١٩ . . . هل تعرف . . . حطامها ما تبقى من الهجوم . . وهناك أشلاء يغسلها رجال الإطفاء بخراطيمهم . . . بقع الدم على الأرض . . .

- الحياة تستمر ، هذا ما نرده على الهجمات الإرهابية . . . قال الصحفي في التلفزيون .

- لكننا مرتعبون . . . متى تنتهي مخاوفنا ، متى تنتهي حروبنا . . .

- ايستر ايستر منذ نصف قرن نحن في إسرائيل وكل يوم يقول ستنتهي مخاوفنا . . . نحن نعيش في كابوس ، هذه ليست إسرائيل هذه كابوس . . .

- دافيد شاحر هناك . . . شاحر هناك وقد جعل بطله متمرداً على تراثنا الديني التقليدي . . . لقد جعله ينغمس فى عالم الفن . . . الفن بديل عن الدين . . .

- هل الفن بديل عن الدين . . . لو تعرفين . . . وأنت مثل أبطاله تدخنين يوم السبت . . . أنت مثلهم لم تتعلمي القيم التقليدية اليهودية وتنتمين إلى بيئة جديدة .

- هل تنتمي أنت للقيم الجديدة . . . ؟ قالت إيستر .

الخشونة المتناسقة للأرض تتسرب تحت أقدام الفلسطينيين في أورشليم . . . أفواههم تتلذذ بالراحة المتجددة للكلام . . . والأقدام الحافية ترفرف في العتمة ، تداعبهم في صباحات أورشليم أوهى النسمات ، ووجوههم تلبس ورق الربيع الخالد ، ومع كل كلمة يكتشف يائيل وإيستر أفكارهما . . . تنكشف السماء مع خفقة الجناح المأخوذ بالفجر ، الأيدي تخفق بالوداع مع كل نسمة فجر .

***

عينا إيستر زحفتا مرة أخرى إلى صفحة الجريدة . . . ارتعدت من الخوف ، ونفضت يدها كمن لسعتها أفعى ، هزت رأسها ، وذهبت بعيداً في ذكرياتها . . . ذكريات أيامها الأولى في تل أبيب مع يائيل . . . ذكريات الحب والحرب . . . ذهبت في ذاكرتها ، وهي تقرأ الجريدة : خذ ما تحب في إسرائيل . . . خذ ما تريد في عيد حتسوريت . . . تابعت : ولادات ، موت ، زواج ، دوائر محكمة ، طيور في حديقة الحيوانات التوراتية ، عاموس عوز ، سفاح ميا شاريم ، مكالمة هاتفية من العميل السري هانيبال بيرسلي ، مقابلة مع د . شوها-المحلل النفسي .

- هل نجحت إسرائيل مائة بالمائة . .؟

- اصبر وانظر يا صديقي . . . نجحت إسرائيل ألا تعتقد بهذا . . . أنا شديدة الإعجاب بشارون . . . وبنعومكن . . . وبكتاب إبراهيم بن يهوشواع . . . وبالكوشر . . . شديدة الإعجاب بالدبابة الإسرائيلية ، شديدة الإعجاب بالكعكة كوغل . . . بالبيرة . . . بالعوزي . . .

أنا مـدينة بكل هذا لك أنت . . . مـدينة لما أنت عليـه بذاتك . . . كنت أخبـرتك هذا من قـبل أليس كـذلك ، وكـنت قـدرتك حق قـدرك ، صحيح الجنرالات مشوشون إلى حد بعيد بسبب التصريحات العربيـة ، ولكننا بحاجة إلى الثقة الجديدة التي سيمنحـها لنا هذا التحدي . . . ستظهر علامات عديدة في الصحيفة ، وستظهر ملكة الجمال الإسرائيلية ببشرتها الصدفية المتوردة وشعرها الذهبي الشاحب باعتبارها الجميلة التي لم تفقد الإطلالة الشهوانية لجسدها وعينيها الخضراوين . . . وسيرى الغرب كم نحن أمة عظيمة وقادرة على الحياة . . . نحن أمة وليس مثل هؤلاء الغوغاء المحيطين بنا . . . وحتى العرب يمكنهم الحياة معنا بصورة أفضل مما لو عاشوا تحت ضغط حكوماتهم المووووبس . . . .

هذه ذكرى الكارثة . . . هذه ذكرى المحرقة التي صادق عليها الكنيس في شهر آب من العام ١٩٥٣ .

هذا هو الصرح العظيم للأبطال الخالدين . . . هل تراه؟

لكن أين قتلى دير ياسين وبحر البقر وقانا . . . أين القتلى العرب؟

***

كـان إدوارد يسـير في القسم الغربي من القـدس . . . بجـوار جبل هرتسل . . . كـان هناك وهو ينظر الصـرح العـالي في تخليـد ضـحـايا الكارثة . . .

جميع السياح دخلوا قاعة الذكرى التي تحوي «النور الأبدي» لإقامة المراسم بشكل دائم على شرف الزوار الذين يدخلون المكان ليعربوا عن تقديرهم لذكرى اليهود الذين سقطوا .

جميع السياح ينظرون «برج البطولة» . . . برج مقاتلي الحرية الذين قاوموا البطش .

جميع السياح يدخلون المعبد . . . ويجلسون على كراسي المكتبة

ويتجولون في المتحف .

ولا أحد يسأل عن قتلى دير ياسين ، عن الأم المبقورة ، عن الفلاح المذبوح ، عن الفتاة المغتصبة ، عن الشباب القتلى قرب الشجرة ، لا أحد يسأل في إسرائيل ، لا أحد يسأل في إسرائيل . . .

***

كان إدوارد يسمع الحديث ذاته وهو يجلس على الأريكة في الفندق :

ملابس كثيرة ، جلود مدبوغة جيداً ، أحذية من أنواع مختلفة ، معلبات كثيرة ، قنابل يدوية ، قطَع مكائن ، قنبلة ذرية في إيلات . . . قال الصحفي .

كل شيء حتى الفاكهة ، حتى برتقال يافا . . . حتى برتقال الغور . . . حتى بيارات الزيتون نحن صنعناها بأيدينا . . . صنعناها بأيدينا ، واشتغلنا عليها ، قالت المذيعة .

لقد استنزفتْنا الحرب هل تفهمون . . . لقد استنزفتنا الحروب الكثيرة . . . نحن بلد مسالم نعيش وسط أعدائنا ، يريدون حرق حقولنا . . . الحرب زادت في الأجور . . .

قالت إيستر : لماذا خنتني مع الأميركية بينما كنت أنا أجهض في المستشفى؟

- بسبب الحرب إيستر . . . بسبب الحرب . .

- كيف . . . كيف . . . كيف؟

هل تعرفين أن حرب ١٩٦٧ أطلقت الحُمّى الحبيسةَ في صدور الناس وجعلتهم يضحكون ويتضاجعون في الفنادق .

هل تعرفين أن حرب ١٩٧٣ جعلت الفتيات يظهرن مؤخراتهن في الكابريهات ويعرين صدورهن؟

هل تعرفين أن الانتفاضة جعلت الناس مستعدين استعداداً دائما

للموت والجنون .

- هل تحس بنفسك حيّـاً؟ هل يخرج العمال من المصانع مساءً وبعد أن يطووا أكمامَ قمصانهم إلى أعلى ويشعرون بأنهم أصبحوا تعساء على نحو أفضل .

هل كان آحاد هعام في العام ١٨٩١ يفكر بأن العرب رجال صحراء ، أناس جهلة ، لا يرون ولا يفهمون ما يجري حولهم .

***

وقف إدوارد أمام مكتبة ليو موديل جيلو في شارع فردينون ١٢ . وتساءل :

هل أنت بوبري ، وحين تعود إلى منزلك ستذهب إلى المطبخ تشرب النبيذ الأحمر بالكأس المقور ، تتناول الكتاب وتقرأ فيلسوفك المفضل؟

ركب الباص ١٥ ومر من باب الخليل ، انعطف الباص من ميدان سفرا ، مر من أمام فندق الملك داوود ، تجاوز الباص مبنى إيمكا ، وضع إدوارد رأسه على حافة النافذة ونظر أشعة الشمس وهي تنعكس على زجاج فندق لاروم .

مر من محطة القطار القديمة ، تناول يائيل الميكرفون وقال للسياح . . .

- سنمر من منتزه هاز وبعد ذلك سنمر من عند كبريس ، أنتم ترون الآن مجمع الكنيون أكبر المحال التجارية في القدس . . . وهناك حديقة الحيوان ، وهذا الفندق هل تعرفونه . . إنه فندق هوليلاند ، ومن ثم سندخل نحو جبل هرتسل ، ونمر من ياد فاشيم ، ومن جسر روفين ، ومن متحف العلوم . . .

كان يائيل يشير للسياح بفرح للأماكن التي يصلون إليها ، عيناه تلمعان من الفرح ، وإيستر تشم وهي من مقعدها رائحة كريهة ، شارع بشع ، مدينة تتسم بالفوضى والهشاشة ، كما لو أنها أوت سلسلة من

الأعـداء الذين أرادوا ، كل بدوره ، بعث النفـور في كل مكان ، إعـلانات على الجدران ، إعلانات مطبوعة بورود عديدة ، صور لشخصيات عديدة ، خيول صورتها مطويات المجلات ألصقت على الجدران ، إعلانات ، بوسترات بالأسود والأبيض ، صورة لرئيس الوزراء بالحجم الطبيعي يظهر مقطباً أعلى المكتب الخشبي الأبيض المرصع بمصورات صغيـرة ، عبارات تشتمل على الكثير من الأشياء العذبة أو التي زالت عذوبتها بفعل حساسية مبتذلة وزائفة ، صور أطفال ، حيوانات ، حاجيات تافهة من النايلون تتدلى أمام نافذة ، تحذير من المخدرات . . . من الإيدز . . ومن الإرهابيين . . .

نعومكن . . . بيرة من فضلك . .

أن تكوني بنجوريونية ، يعني أن تذهبي إلى البار القريب من منزلك وتصبين لنفسك كأس الويسكي وتشربين نخب المقتولين على حاجز قرب أورشليم . . . أن تكوني وايزمنية هي أن تري الفلسطينيين يقتلون فتقولين لمحدثك انظر إنهم يحبون العنف ولغة الصراع .

مرت الحافلة من متحف إسرائيل ، وإدوارد يضع رأسه على حافة النافذة وهو يرقب المباني التي تمر أمام ناظريه :

متحف بلاد الكتاب ، كنيست إسرائيل ، محكمة العدل العليا ، المحطة المركزية .

– هل وصلنا شموئيل هنفي؟ قالت إيستر .

– نعم . قال يائيل وهو يشير للسياح ، إلى كفعات هتحموشيت ، إلى فندق الهيات ، إلى هر هتسوفيم .

– انظروا . . . قال . . . هذا مستشفى هداسا .

– انظروا . . . قال . . . هذا مستشفى اوغوستا فكتوريا . . . نحن نداوي به الفلسطينيين أيضاً . . . الفلسطينيون الذين نصوب عليهم في المظاهرات .

مـر السـيـاح من بـاب الأسـبـاط ، من حـائط المبكى ، مـروا من باب المغاربة ، صعدوا جبل صهيون ، وقفوا أمام باب الخليل . . . واستراحوا قليلاً في ظل السياج العالي .

قالت إيستر لإدوارد وهي تحك جبينها بأظفرها :

– هل تعرف هذا المكان . . . ؟

– نعومكن بيرة من فضلك .

– أنا أفضل أكلة الشويبس والشونزيل ، هل تعرف أني فوجئت حين رأيتك . . .

الفلسطيني الجبان الذي يصفه يزهار خلت وجهه من الدماء إلى حد اليرقان والصفرة . . . قالت له ، وعوز يصف العربي الذي كان يراقب فتاة إسرائيلية فغمز بعينه المراقبة لها ، وكان وجهه شاحباً ، تنتشر في خديه الشقوق . . . خلال مراهقتي ، كنت أهتم كثيراً بالممثلة المعبودة لذلك الزمان . وعندما كنت في الحمام كنت أتذكرها هل تفهمينني . . . نعومكن . . . نعومكن كم الساعة يغلق البار أبوابه . . . لا . .لا صاحبتي هي التي جاء لي بالمجلة الأجنبية . . . صورة الغلاف حقيقية . . . وقلت لها اعترفي . . . اعترفي . . . فهمت في الحال هذا الأمر من كلامها كانت بلا مقدمات . . . وكنت أعرف أنها كانت جميلة جداً ، مع أن الأمر لم يخطر ببالها يوماً . . . نعومكن . . . نعومكن . . . فرسخ واحد للأمام . . . فرسخ واحد للوراء ويصبح الخيالة الستمئة في وادي الموت دون أن يبدي أي أحد منهم اعتراضاً واحداً . . . هل فهمت . . .

***

– ثروة بين يديه . . . قال الناقد عن عاموس عوز .

«إستعارات توراتية ، شعر ، تراجيديات ، كوميديا ، فشل ، نجاح ، زيجات حزينة . . . ثروة تحت أقدام أسود الحركة الصهيونية» ، قال المذيع

في راديو إسرائيل .

هذا ديفيد بن غوريون ، هذا هو . . . هذا ديفيد بن غوريون . . . هذا بن غوريون . . هذا الذي جعل عاموس عوز يفزع منه . . . هذا يوسف عجنون . . . هذا ساول تشيرنيخوفسكي ، وهناك أيضاً . . . جيران . . . أصدقاء عائلة ، مودّة ومرح . . .

هكذا أمضى طفولته في أورشليم في الأربعينات ، واجترح حكاية ملحمية عن أسلافه القادمين من أوديسا ومن روفنو في أوكرانيا القرن التاسع عشر ، هكذا تذوق من الناس معاداتهم للساميّة ، فأوصلت العواطف الصهيونية والده إلى فلسطين . . . أوائل الثلاثينات .

هناك عاش . . . في العراء ، في ضاحية شوارعها غير معبدة ، تسكنها الطبقة المتوسطة من اليهود ، وهو يشعر بإحباط والده الذي أخفق في إنجاز امتياز أكاديمي ، أو عمه المؤرخ يوسف كلاوسنر أو أمه التي انتحرت بسبب الكآبة . . . أو هروبه من الشقة الخانقة الكئيبة المحشورة ، في كيوبتز هولدا . . . أو ابتهاجه بحرب التحرير وبتقسيم فلسطين . . . أو خوفه من العنف . . . أو معاناته من الحرمان . . .

- لقد عاش في إسرائيل ، عاش في حرب الاستقلال والحصار لمدّة أشهر في القدس . قال عنه الناقد في الراديو .

كان يصف القدس وهي مملوءة باليهود ، ولم يذكر العرب مطلقاً وكأنهم لا وجود لهم ، مجموعة من المهاجرين يسكنون حياً صغيراً ، يريد من خلاله أن يقول إن القدس دوما مشغولة باليهود . . . فمن أين جاءنا العرب؟ قالها ناقد آخر .

وقف . . . وهو يغني أغاني هافا ناغيلا ببراعة ، قربه شخص يعزف على الأركديون ويغني في الفضاء الخالي ، ومثل مالك الحزين مر قرب كنيسة بيضاء ، تحمم تحت أشعة ممتدة متداخلة بعضها مع بعض ، تحت

سماء زرقاء ، غنى شعراً لبياليك عن بحيرة جميلة بلا شواطئ ، أو جبل . . . أوه ، هذا ما يحبه اليهودي ، شمس ذهبية على منحدراته ، شلالات تهبط مياهها إلى الوادي . . . هذا ما تحبه تشايا غلوسكا التي كانت تتنقل في الجبهة ، تتنقل من مكان إلى مكان وهي تعزف في فرقة لتسلية الجنود ، هذه نباتات سرخس . . . طبعاً طبعاً . . . وز أيضاً . . وريش أبيض بالتأكيد . . . شخصيات في الجيش تعرفه . . . تعرفه وتتحدث معه . . . تاجر السلاح يعرفه . . . جنرالات أيضاً . . . حتى وإن كان بزاليل منشاروف يكرهه ، ولكنه يعرف بعض الكلمات التي تجعله محبوباً ، وهو تواق للقاء الناس دائماً ، صرخة تبدأ من اليسار وأخرى تبدأ من اليمين ، دواليب تطرق باستمرار ، مجاميع شاحنات عسكرية تتلاحق ، ساعة جدار تؤكد بحزم وباثنتي عشرة ضربة أنه منتصف النهار ، يد تعزل اللاجئين ، وأخرى تحمل موازين نحاسية ، يقترب منها الأطفال ، خيمة جنود توراتيين تشبه القبة ، قطع نقود في الجيوب ، دخان يمتد كسحابة طويلة من المداخن ، نباح . . . صراخ . . . وضجيج . . .

وقف وهو يغني . . . في ليلته الأخيرة . . .

هجرة قسرية عاشها اللاجئون -كتب إدوارد سعيد في دفتره - فقد طلبت القوات العربية منهم مغادرة البلدة مؤقتاً كي يتسنّى لها طرد اليهود - كما قالوا لهم - وأنزلوهم وادي الليمون بثيابهم اللي عليهم ، ولم يحملوا أي شيء ، باستثناء رغيف الخبز . . . وبقوا ثلاثة أيام بعدها صار اليهود يلقون عليهم قنابل مضيئة تنير الوادي كله ، فغادروا باتجاه القرى المجاورة . . . وفي إحدى القرى حملوهم بسيارات البقر إلى لبنان ، وفي لبنان أيضاً ركبوا عربات قطار البقر إلى سورية . . .

تستذكر أم موفق ما حملته من فلسطين لدى خروجها قائلة : «كنت أرتدي برجلي صندل عرسي ، وتقطّع قبل وصولنا إلى لبنان . . . أما زوجي

فحمل معه علبة الحلاقة وطقماً واحداً وحذاء . . . وبقيت حافية أدوس الشوك . . . إلى أن وصلنا حلب ، وهناك أعطونا أحذية» . .

عن رغبتها في العودة إلى فلسطين ، وما بقي من الأمل في العودة تقول أم موفق : «نذرت نذراً إذا رجعت فلسطين ، سأمشي لها حافية . .» . . وانهارت بالبكاء .

***

إدوارد هناك . . . بين الفنانين والموسيقيين والرسامين والنحاتين والشعراء . . .

شيء ما يظهر من بعيد . . . شيء في أرض مخربة تماماً ، وجوه أكلتها التجاعيد ، وفنانون يتخبطون ما بين عالم الفن وعالم المجتمع ، بين البوهيمية والارستقراطية ، بين التقاليد والانحراف . فنانون مرهفون يتحدثون عن طريقة أخرى في الفن ، يتحدثون عن إيماءات الفن اليهودي بأسلوب متوهج ورائع ، مذيعة في التلفزيون تقدم زنابق التوليب على أنها زهور يهودية قديمة ، زهور أخرى على الطاولة فقدت سحرها . . . جمال سيزول . . . لا شيء له نكهة الحياة ، وآخرون يتجمعون حول إدوارد سعيد ويسألونه :

ما هو وجه الاختلاف بيننا وبينكم؟

كان إدوارد يتطلع إلى رجال آخرين ، إلى رجال يحيون أحلامهم الخاصة بعيداً عن حديقة الحيوانات التوراتية ، أحلامهم علامة البداية ، علامة توحي لهم بالسبيل التي ينبغي لهم أن يتجهوا نحوها . . .

عالم افتتنوا به ، عالم أغراهم بالعيش فيه ، واستهواهم كثيراً ، وإيستر تريد اللحاق بهم ، في عالمهم . . . تريد أن تسير خفيفة في الربيع النامي المزدهر ، أن تستمع إلى صوت يافا ياركوني ، أن تسير على عشب بهيج على الأرض . . . تريد أن تستخدم حكمتها وصداقاتها ، ولا تخبر أحداً

بالأمر . . . تريد أن تعيش . . . تريد أن تعيش ولا تقاوم المتعة الهائلة في الإغراء والمغازلة ، أية إثارة يمكن أن تحصل عليها . . . في عالم سلام كما كان يريده أبوها الذي مات في الحرب وأمها التي ماتت بعده . . .

***

– جليد أبيض في أورشليم هذا العام . . قال يائيل .

تسير إيستر في المنحدر الأبيض . . . شمس جميلة وساطعة هذا الصيف وهي تقاوم موجة شاهقة في ميناء إشدود ، رغبة تحسها وهي تتسلق جبل الكرمل ، وهي تتطلع إلى القمة العالية ، إلى المرتفعات ، أو إلى المنحدرات ، شيء يمكنه أن يحمي حكمتها ، شيء يمكنه أن يحمي حياتها من طغيان الألم ، وهي تلعب بالسلسلة على عنقها ، صورة إسرائيل على السلسلة . . . الخارطة ذاتها . قال لها الفلسطيني الذي جلس أمامها على مقعد خشبي .

– الصورة ذاتها التي تحملينها أنا أحملها . . . الخارطة ذاتها أنظري . . . وأخرج من تحت قميصه الخارطة ذاتها المصنوعة من الذهب . . . أنت تسمينها إسرائيل وأنا أسميها فلسطين .

– ماذا تعلمنا هنا . . . قالت ليائيل .

– هل تريدين الاستسلام لكلام العرب . . . صرخ بوجهها .

– كان يمكن أن نلتقي في مكان آخر ونتزوج .

– إلى أي حياة تريدين أنت أن تأخذيني إليها .

هل يمكنك أن تعتبر حديقة الحيوان التوراتية سفينة نوح العصرية :

اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك وزوجات بنيك معك ، وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد من الطيور والبهائم وكل الدواب التي تدب على الأرض أخرجها معك ، ولتتوالد في الأرض وتثمر وتتكاثر . . .

- . . .

جلس عاموس عوز وحيداً في الأستوديو ، كان يحدق كثيراً بالصور الموجودة على الحائط ، تخطى في الحجرة الجديدة بعد أن هرب من أهله ، سار في الطريق الواسع المغمور بالضوء ، كان يتحرك بثقة ومزاج شفاف ، كان يحاول أن يسترجع الجمال الذي يعتقد أن الأمة اليهودية قد فقدته في عالمها القديم ، الأمة التي أصبحت تقيم هنا بعيداً عن أوربا ، الأمة التي تعيش في هذا المكان السحري والأرض الفاتنة الخرافية ، حينما تكون الحياة حقيقة لا خارجة فقط من التوراة القديم .

كان ذلك اليوم نحيلاً ، متوترا قليلاً ، عيناه حالمتان محتشدتان بالرؤى ، كان قلقاً بعد انتحار أمه ، منسحراً وهو ينظر إلى الأشياء المحيطة به ، حاداً في الحديث مع الأصدقاء ، ماكراً مع الأعداء ، وإسرائيل مسرح للناجين من المحرقة . . . مسرح يصرخ فوقه مالك الحزين . . . مسرح يطير في فضائه طائر الألم . . . صرخات غضب ، صرخات حقد ، عنف قديم . . . يتجسد بقسوة أمامه ، الحياة يمكن أن تتفجر جراء الإرهاب والموت . . .

هذه إسرائيل أم طقوس عبادة الدم؟

لقد فقدنا سحر العالم الإنساني أليس كذلك؟

هل يمكن أن نجعل من الإيمان والنشوة الروحية تشيعان بين الناس كالعدوى .

هل هذه هي إسرائيل التي حلم بها أدورنو . . . هل هذه هي إسرائيل التي تشبه ألمانيا . . وهي تحرق وتخرب؟

- يمكن لإسرائيل أن تكون نقطة استقطاب للحياة التي توقظ الناس جميعاً . . . قال المفكر في التلفزيون وهو يمسح فمه بمنديل أبيض .

كانت إيستر تريد أن تطلق صرخات ألم لتحرض الناس على التوهج وبلوغ النشوة من جديد . . كانت تريد الناس أن يذهبوا لتهديم الحواجز ،

كانت تبحث عن جسد قادر على تجسيد حالات النشوة والانفعالات الحادة . . . كانت تبحث عن أمة بلا غايات عدوانية . . .

تدفق عوز بالحديث وهو يتساءل : هل ضيعنا وجوهنا؟ هل فقدنا قوة الإحساس والمشاعر ، هل ننجح لو بثثنا الروح من جديد في أحاسيسنا؟

- إسرائيليا تخلت عنه إسرائيل ونبذته . . . شخص ما قال وهو يمر من المقهى .

إسرائيلي بوجه ناحل ، وجه يرتاد المقاهي ، ولكنه لا يستمتع ولا يضحك ، مدمن يجوب الطرقات في أورشليم ، لا يحاور أحداً ، لكنه خائف من الإرهاب والتفجير ، عيناه ذابلتان من الإرهاق ، سوداوان من الألم ، كائن مجنون ، خائف رائع ، عاشق غريب . . .

ها هو الجنرال يراهم بعينيه ، ويراقب طيرانهم بمصيدته ، ها هو غائص في الأعشاب حتى حزامه ، ينتظر انتفاضتهم مثل فراشة ، فيركض خلفهم بشبكته ليصطادهم .

كان نعومكن يتحدث في أول لقاء له مع إدوارد ، وكانت إيستر تدخن السيجارة تلو السيجارة ، كان يتحدث عن حكم الإعدام الذي صدر بحقه ، كيهودي في دولة نازية :

« كنت واقفاً في الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي كان سينفذ بعد خمس دقائق . كلنا في قمصان الموت موزعين على خمس وجبات ، كل وجبة تتكون من عشرة محكومين . كنت في الوجبة الثالثة ، فأوثقونا إلى أعمدة حديدية في الساحة المبلطة ، كانوا يوثقونهم على الأعمدة ويضعون الأكياس في رؤوسهم ثم يطلقون الرصاص عليهم ، وكانت قدماي تخران من الخوف ، ما كانت قدماي قادرتين على حملي .

قلت لنفسي لا أريد أن أموت . . . لا أريد أن أموت . . . لدي رغبة شديدة في الحياة . . . تذكرت حياتي القصيرة . . . سنوات عمري التي

هدرتها بسخاء . . . وأسأت استخدامها ، كنت أريد الحياة من جديد . . . وبعد أن أوصلونا إلى العمود كانت جثث القتلى الذين أعدموهم قبلنا مكومة بعضها على بعض ، والمكان الذي وقفت عليه سابحاً بالدم . . . وكنا نسمع أصوات مدافعٍ تقترب وأصبح سجانونا أكثر اضطراباً ورعباً منا . . . فجأة سمعنا صوتاً يناديهم :

- اتركوهم . . . اهربوا . . . جنود الحلفاء اقتربوا كثيراً منا . .

كدنا نسقط من الفرح . . . على الرغم من أننا كنا ندوس رفاقنا الذين أعدموهم بأقدامنا . . . كنا فرحين جداً . . . وحين دخل الحلفاء حلوا وثاقنا . . . ووجدونا نصف ميتين ، ما أشد فرحتي بحياة وهبت إلي من جديد . . . وها أنا هنا في إسرائيل لا أريد أن أموت مثل هذه الميتة . . . لو كنت محلي سيد إدوارد ألا تفكر التفكير ذاته . . . ؟

كانت إيستر تستمع لنعومكن فيقشعر بدنها من حديثه . ومندهشة من صراحته .

رجل كان محكوماً بالإعدام . . . يهودي تبدو عليه مظاهر الانطوائية القاتمة ، شخص غريب يتحدث عن تفاصيل موته وحياته بصدق وإخلاص مع فلسطيني يراه للمرة الأولى .

لم تبدد حيرة إيستر تناقض اليهودي مطلقاً ، غير أن إدوارد قال له ، أنا لا أتنكر لذلك . . . ولكن هل على الفلسطيني أن يدفع الثمن؟

قالت إيستر لإدوارد :

كانت انطباعات اليوم الأول مرهقة للغاية . عدت إلى منزلي فى ساعة متأخرة من الليل وأنا في أقصى درجات الإعياء .

توقفت قليلاً وهي تشرب العصير . . . ثم قالت له :

أحببت يائيل لأني لأول مرة فى حياتي أرى إنسانا ذكياً طيب القلب إلى هذا الحد ، لكنه تعيش بالقدر نفسه ، وكان الجميع أشاحوا بوجوههم

عنه . فتألمت وشعرت بالإشفاق عليه .

كان إدوارد وإيستر يتحدث بعضهما مع بعض . . . بينما كان نعومكن يشعر بوحدة قاتلة . . . فزوجته توفيت بحادث غامض في تل أبيب ، وشقيقه الأكبر قتل في حرب الأيام الستة ، وكان هو يشغل نفسه بتحضير مشروع لرسومات ضخمة على واجهات بناية في شارع هانتكاه ، في ضاحية هيوبيل .

كانوا يسيرون مع السياح في شارع جديد في أورشليم . . . حوانيت عادية ، حوانيت للخردوات التي يجمعونها من المنازل ، مستودع فحم للمواقد الكثيرة ، مخابز متناثرة يعمل بها العرب والفلاشا ، وهنالك أيضاً حانة صغيرة ، حانة أشبه بحانات لندن الفيكتورية ، يملكها نعومكن .

- نعومكن . . . العجوز الهزيل ، بشعره الأبيض ، وجلده المتهدل ، هذا الماهر في صب البيرة في الأقداح . . . قال يائيل لإيستر .

قالت إيستر لإدوارد :

كان هائلاً في استخدام اللغة العبرية فهو يعرف فقط أن يكيل كل الشتائم بها ، أما لغة الحب فكانت نسبة له الألمانية .

دخل إدوارد الحانة مع إيستر وعدد من السياح . . . وجلسوا في الزاوية بينما كانت الحانة تعج بالأشخاص :

رجل الهاغانا الذي تقاعد من الجيش ، بطل الاستقلال ، بائع الخضرة ، صاحب مكتب السياحة الذي كان يتعامل مع الموساد . مجموعة من العجائز يلعبون الورق قريباً من الباب ، والجميع ينادي نعومكن ليصب لهم الشراب .

وهنالك العديد من القصص :

- نعم . . . كنا قبل العام ١٩٤٨ نجمع نقودا كثيرة ، كنا نريد أن نحقق سعادتنا ، ولكن لا سعادة في إسرائيل ، إسرائيل يعني الحرب . . . والطعام

الشحيح ، والماء الثمين .

- نعم والدي كان هناك ووالدك أيضاً . .

- بعد عام كان يمكن لوالدك أن يطرد العرب من ديارهم ، كان يمكنه أن يطردهم ويحرق الرز أمام عيونهم ، أن يدلق الماء على الأرض ، كان يمكنه أن يقتل أو يخوزق من يشاء .

- نعومكن واحد ويسكي واثنان بيرة من فضلك . . .

- كيف يعيش الإسرائيلي ؟

- هل تريدني أن أقرأ لك فقرات من الصحيفة .

- هل تعرف بوخنفالد؟

- نعم يقولون إنه تزوج في الكيوبتس ، وعذب أحد الفلسطينيين في المزرعة ، واغتصب امرأة في المكان ذاته ، وبنى بيته بيديه .

- نعومكن بيرة من فضلك . .

- يقولون إن عشيقته توفيت .

- نعم ألا تعرف ذلك؟

- أعرفه جيدا . . . يقولون إنه قرأ كتبا كثيرة ، وتوكأ على ثروة من الديون ، وظهيرة يوم حرب ، ارتدى بذلة كاكية وخوذة ، وذهب ليحارب هناك .

- إنها عاهرة . . . سمعت أنها عاهرة . .

- نعومكن فودكا مع الليمون من فضلك . .

- سمعت عن ذلك الضابط الشاب الذي وجد نفسه في المستوطنات . . .

- يقولون إنه سافر كثيراً ، رحل إلى أماكن عديدة وغش في القمار ، وعاش في المواخير ، وخاف وضرب وعمل كل شيء تقريباً ، وناقش وحاور وتكاسل ونام ، ثم أكل لحم الخنزير في الكوشر .

- هل أنت متعجب من ذلك؟

- أعرف أناسا يمضغون اللحم طيلة حياتهم ، حتى يوم الشبات لا يحترمون الكوشر . .

- أعرفه جرح في حرب الأيام الستة . . . ثم أصبح ضعيفاً ، مترهلاً ، ومريضاً ، ووضعوا الحقنة في مؤخرته ، فمات .

- نعومكن . . . بيرة من فضلك . .

***

كان يائيل يجلس أحياناً إلى طاولة في حانة نعومكن ، يجلس قرب رجل وردي اللون ، بصدر عريض هائل ، وقد وخط الشيب شاربيه المشذبين ، يطلب البيرة ويدك غليونه في المنفضة وهو يتأمل الجالسين بعينين لامعتين ، كان أحدهم قد سكر تقريباً وهو يرفع كأسه عالياً ويخفضه على الطاولة ، كان يسأل من بعيد نعومكن عن صحته فيجيبه بكلمات قليلة ، كان ينادي ابنة موشيه . . . الركاحية التي ترتدي فستانا مورداً مربعات . . . فيربت على مؤخرتها دون أن يغير من وجهه المرح ، بينما يغير موشيه من سحنته ويتضرج بالحمرة .

- شيء غريب . . . قال موشيه . . . ولكن أكثر الأمور غرابة وهو ما يحصل في الكيوبتس ، كيوبتسك أنت بعد انقضاء الحرب ببضع سنوات .

- هل جلبت المبلغ الكافي من المال . . . قال يائيل .

- أتبقى حياً في إسرائيل؟ قالت الفتاة .

- هل ستستخدم إسرائيل القنبلة الذرية وتجعل الأرض المحيطة بها خراء . . . قال رجل في الزاوية .

- من يملك إمكانية حقيقية وملموسة بالفعل لبلوغ السعادة ، لقد انقلبت فجأة خارطة إسرائيل إلى أوراق عديمة الفائدة ، لقد أوشكت على الهلاك ، ولم يتغير فيها أي شيء حتى الآن . . . قال شخص من حزب العمل .

- هكذا كنا في الثمانية وأربعين ، كان كل شيء نادرا تقريباً . . . قال آخر .

- ولكنه النصر وحرب الاستقلال نسبة لنا وهي النكبة نسبة للعرب . . . قال .

- يوم واحد له حكايتان مختلفتان ، له سردان مختلفان- قال غرو سمان في التلفزيون-إسرائيل لها سردها الخاص بها والفلسطينيون لهم سردهم الخاص بهم .

- المشترون نادرون نسبياً ، الناس لا يقتنون إلا سقط متاع ، يهود يبخلون بكل شيء ، ويشكون من فقر دائم . عليكم أن تتجنبوا الإفراط في أي شيء ، عليكم الادخار لأنها حرب دائمة .

- يائيل . . . خرجنا من الغيتو الصغير في أوربا وجئنا هنا إلى الغيتو الكبير . . . صرخت إيستر .

- نعم لم يتغير شيء تقريباً . . . قال غروسمان على شاشة التلفزيون .

- نحن نتحاشى أن نقول أي شيء ، أليس كذلك غير مسموح سوى الكلام عن نادي الهواة ، وعن الحشرات السامة ، وعن الفراشات التوراتية التي لا يمكن اصطيادها ، وعن الكوشر ، وعن شخص يثور في المستوطنة الجديدة . . .

***

حفيد تروتسكي . . . الروسي القديم ابن الثوري القديم يتحدث بلا مبالاة تقريباً ، يتحدث عن تخمة الرحلات البعيدة ، عن الإحساس العظيم وهو يحمل مصيدته ويخرج بها إلى البرية في صباح يوم جديد على المستوطنة ، يوم جديد في المستوطنة وقد فاحت من حانوتها رائحة لوز كابية ، صناديق جديدة ينحني شخص فوقها ويحملها في الشاحنة الكبيرة ، طاولة بيع خشبية أمام المحل ، شخص يقف هناك وهو يضع

الغليون بين شفتيه ويصرخ ، عصافير الدوري تصدر زقزقة جميلة ، ضابط في جيش الدفاع يجلس عند المخسوم ويستسلم لأفكاره ، وهو ينظر إلى الصفوف المتراصة من العرب المتجمعين هناك كي يذهبوا إلى تل أبيب ، وجوه صغيرة متشابهة تماماً ، يصمت أحياناً وهو يدق الزجاج بإبهامه مشيراً إلى شخص يحمل هويته ويتقدم نحوه ، بائع يلهث بألم وهو يحمل غليونه بين أسنانه ، وينظر صوب الضوء الذي ينعكس على الطاولة ، وحفيد تروتسكي يمسك الفراشة بين يديه . . . يديرها نحوه ، ويغرس أظفاره تحت أطراف الغطاء المحكم فيخلخله ويخلعه بدفعه خفيفة ورشيقة .

– نعم ، إنها أنثى . قال حفيد تروتسكي وهو ينحني فوق الصندوق المفتوح .

تحشرج صوته وهو يتناول بإصبعه رأس الدبوس الأسود الذي صلب عليه كائناً مخملياً دقيقاً ، ثم يطيل النظر إلى الجناحين والى الجسم ، يقلب جسد الفراشة وينظر إلى بطنها ، وبعد أن يلفظ مع الدخان اسمها بالعبرية يعيد غرس الفراشة بالدبوس من جديد .

كانت وجوه الجمهور عديمة الاكتراث ، عدم اكتراث لا يخطئ . . . عدم اكتراث جراح ضليع .

***

فكروا جيداً يوم الاثنين حتى يرد كل واحد منكم على رسائله ، قبل أن تتجمع الشرطة وتمنعكم من التقرب من مكان الانفجار . . . إنه مكان الهجوم .

قال يائيل :

حدث هذا على زاوية بلفور وشوارع آزا ، بجانب مكتبي . . . حدث هذا المساء ، كنت تمشّيت إلى ريشوف أزا ، وكان الانفجار قريباً جداً على زاوية آرلزروف ، قريباً من صحيفة يومية ، إنها تفجيرات في المقهى لحظة

الازدحام ، تفجير مقهى هيليل ، اشتريت شوكولاتة ، كان المقهى في الزاوية ، وأنا على مبعدة ١٠ ياردات .

قال أحدهم :

أوقفوا الإطار المشوّه للحافلة بينما خدمات الطوارئ لا تعمل بشكل صحيح .

نقّالات أسرعت ، قتلى يرفعون إلى الإسعافات ، صرخت بصوت حاد خائف ومرتجف :

. . . احملوهم . . . احملوهم .

- أقسام الطوارئ في شعاري تسيديك ، في بكور حلمي امتلأت . . . قال أحدهم .

- حياتنا تغيرت . . . حياتنا تغيرت . . . قال آخر .

هاتفك بدأ يدقّ ، أردت أن أطمئن عليك . . . أردت أن أخبرك بأني بخير ، كنا محظوظين ١١ شخصاً قتلوا ، أكثر من ٥٠ جرحوا ، كل ما قيل هو إشاعات . .كل الأرقام غير صحيحة . . . هل سمعتيني . . . هل سمعتيني . . .

- هذه هي إسرائيل . . . أنتم طردتم العرب من أرضهم ، وتنكرتم لحقوقهم . . . وأوصلتموهم إلى اليأس . . . ماذا تنتظرون؟ قال غروسمان في التلفزيون .

***

كانت إيستر جالسة في الصالة ، ترتدي تنورتها الصوف وقميصها المورد وتقرأ الجريدة . . . انتبهت إلى التلفزيون ، نظرت بعينين مفتوحتين على اتساعهما . .مندهشة :

كان جسم الفلسطيني هشاً جداً ، وقد أخذ الضابط بتحطيم كتفيه بطابوقة ، لقد أمكن تكسير أكتافه بسهولة ، لم يكن قد صدم بعد ، أو على

الأقل كان بالإمكان أن ينزلق، مسكه وأخذ يدق على أكتافه بصخرة . . . وكانت كاميرا التلفزيون تصوره . . .

- نعم كان يمكن تحطيم أكتاف الفلسطيني أمام الكاميرا .

- كان يمكن ذلك ببساطة .

يمكن أن يشكه حفيد تروتسكي الذي يقطن في مستوطنة بدبوس كما لو كان يشك فراشة، أمر بسيط للغاية، الفراشة التي قد تكون الوحيدة من نوعها، تناولها حفيد تروتسكي بإصبعه وشكها بدبوس، كانت أجزاؤها متناغمة، دعكة بريئة واحدة يمكنها أن تهرسها، دعكة بريئة . . . تجعل الضابط ذاته عند المخسوم وهو يمسك الفلسطيني ويشد وثاقه خلفه، يجلسه على صخرة صغيرة . . . والكاميرا والصحفيون يصورون، ثم ينهال عليه أول الأمر بخوذته الحديدية ويحطم كتفيه، ثم يمسك بحجارة كبيرة ويضرب به على عظمي ترقوتيه ويحطمهما، كان يمكن لهذا الجسد أن يتحطم . .

« آلة بريئة . . » قال حفيد تروتسكي .

كان مأخوذاً بالمنظر وهو يجلس في المستوطنة التي أصابها صاروخ، مس بطرف يده بطن الفراشة، فارتجفت، علبة مفتوحة أمامه، غشاء حريري مفروش على طاولة من خشب، شمس في الأعلى وطاقية سوداء على رأسه، إصبع يندفع شيئاً فشيئاً نحو بطن الفراشة، وهي ترتجف، ولكنه يمكنه أن يوقفها في أي وقت يشاء . . .

بعد قليل كان حفيد تروتسكي يتخطى سعيداً في شوارع المستوطنة، يتناول قبعته من على الطاولة الخشبية التي شك عليها الفراشة، غمغم مدة طويلة وهو يتفحص الخضرة، والمزرعة، ومستعمرة النحل، والأرض التي طرد منها أهلها، كان ينظر نحوها بود، ويختبر معرفته الضخمة في مجال الفراشات، معرفة هائلة، تبحث لها عن مخرج، يجب أن يعرف

الإسرائيليون أن شك الفراشة على قماش من حرير لا يعني قتلها . . .

***

طريق لا يغيظه . . . امرأة تبحث لها عن مخرج ، لم يكن يتصور أحد منا بلاده :

- هذا وطننا نحن ووطن الفراشة ، لا وطن لهم هنا .

- لا شيء يربطنا هنا إلا بطرائدنا ، العرب والفراشات التي نضعها على قماش من حرير في المستوطنة .

كان يمكن أن يرى أشياء أخرى ، رغبة تربطه بطريدته ، لغة طبيعية تنمو من اليديش ، ذاكرة تحتفظ بورقة زيتون تنمو في أعماق الأرض . . . طير توراتي يصدر صفيراً خاصاً . . . رجل متخصص بالفلسطينيين في سجون الناصرة ، هل يدرك قيمة الطريدة هنا . . . الحيوانات عديدة ، ولكن من منا كون وعياً خاصاً بجغرافية إسرائيل .

- هذا الدليل مفصل للغاية ، دليل مفصل للحيوانات التوراتية . قال .

لا وجود لبيوت القمار ولا للملاهي ، شيء يمكن أن نجده في مؤلفات أخرى ، في موسوعات عديدة للحشرات ، يمكن أن نجده في المجلات ، كان يمكن لحفيد تروتسكي أن يقرأ كمية منه كبيرة .

- ذاكرة ممتازة عند هذا العربي . . . قال بن غوريون .

كان ينظر العربي وهو يتحدث عن الأرض ، عن الشجر ، عن الزيتون ، عن الفراشات ، عن عمر كل شجرة ، أماكن شهيرة ، أماكن عالية ، أناس متنوعون ، سكان أصليون ، أماكن شهيرة بحيواناتها ، يمكننا أن نعددها بوضوح . . .

***

هل زار هيرتزل أو آحاد بن هاعام هذا المكان في القرن التاسع عشر؟

هل سافر شخصياً إلى هذا المكان؟

في ساعة متأخرة جاء إلى فندق داوود ، في ساعة متأخرة دخل الصالة . . . وقد أفزع عامل الفندق بهدير صوته ، بوقع قدميه ، بسرعته وقد اندفع مثل عصفور توراتي طار عبر النافذة المفتوحة قادماً من الليل السخي الأسود ومضى يدور بعنف واصطدم بالسقف . لقد زار شوارعها ووجد العرب في كل مكان ففكر بطردهم ، زار ضواحي أورشليم ، والسواقي الصغيرة ، والحارة المزهرة التي تشق طرقها عبر السفوح الدنيا من جبال تغطيها أشجار الكستناء والغار ، غادر شمالاً حتى وصل إلى يافا ، ورأى الصيادين العرب هناك ، زار أرض التوراة كلها تقريباً ، وحلم بدولة إسرائيل .

رأى أنواعاً غريبة من الحيوانات ، فحلم بجزيرة صغيرة يطلق عليها حديقة الحيوانات التوراتية ، حلم بالأرض السمراء من النيل إلى الفرات ، ولتكن القاعدة من أورشليم ، سيكون هنالك منحدر للسكك الحديدية التي ستندفع نحو الشرق ، ستكون هناك غابات زيتون وأرز وصنوبر ، ستكون هناك أنهار ومستنقعات ، سيكون هنالك مكان للطحالب ولشجيرات السرو والعفص والصفصاف ، ستكون أشجار النخيل غنية بالمراعي والأعشاب القديمة اللزجة الملتفة . . . ستكون هنالك المستعمرات المشيدة جدرانها من أحجار يهودا والسامرة ، سيكون هناك نمل أحمر ، وخفاش سمين ينطلق في الليل ، وجمال ، وجبال شبه شفافة حمراء ، وعيون تسبح فيها النساء اليهوديات ، وطرق جبلية تمر بمحاذاة صخرة شديدة الانحدار ، طرق جديدة ، وحواجز ، وهوة تتألق مياهها القوية بالزبد . سيكون لدينا رجال ونساء يسيرون في الطرق المبلطة بالحصباء .

وسنطرد العرب سنطردهم وننساهم هناك كما أنهم سينسون أنهم عاشوا هنا . . . سيعودن إلى الأرض التي جاءوا منها . . . سيعودون . . . لا

بد أن يعودوا . . .

***

في بيروت كان القصف على أشده ، تتساقط القنابل بقوة في الساحة التي تفصل الشارع الذي يقع فيه المقهى عن الشارع الآخر ، ترتطم رشقات الرشاشات بالجدران الصلبة المتقابلة ، أصوات الانفجارات تتصاعد من كل مكان ، رجال يتحصنون خلف المتاريس ، نساء عائدات من السوق يهرولن نحو عمارة قريبة ، قناص يجلس على سطح إحدى العمارات ويطلق الرصاص ، وكان الظلام يزحف شيئاً فشيئاً ، يزحف على أصوات الإسعافات القادمة من كل مكان ، على أصوات الشعارات القادمة من خلف المواضع والحواجز المنصوبة في الشوارع ، من أنين الجرحى ، من همهمات المضمدين ، من حركة الناس الهامدة في الملاجئ ، من غربة النساء في المخيمات ، أشياء مختلطة متنوعة غريبة بعض الشيء ألفها إدوارد سعيد شيئاً فشيئاً . . . ألفها من جلسته ذلك اليوم مع إقبال أحمد وراشد حسين في إحدى المقاهي .

«لم تكن اللفافة التي أحرقت شقة راشد حسين إسرائيلية الصنع ، بل كانت من نوع مارلبورو»

قال إدوارد سعيد وهو يحدق في الطريق .

كان بخار الويسكي يفوح من فم راشد حسين وهو نائم ، حجرة صغيرة قذرة بعض الشيء ، طاولة للكتابة عليها أوراق وقلم وش الحبر على طرفه ، أعقاب سجائر في المنفضة وعلى الأرض ، أوراق جرائد ، خبز قديم ، قشور بيض ، علب كونسروة في كل مكان ، وقناني ويسكي فارغة وكأس مملوءة إلى النصف ، وراشد حسين يضع رأسه على الوسادة ، وطرف سيجارته المشتعل يقبل البطانية الصوف فتتوهج حمراء أول الأمر ، من ثم يتصاعد منها الدخان ، دخان يتصاعد ، ونار تقبل السرير فتتوهج

الشراشف ، والستائر والكاربت ، دخان يتصاعد وراشد حسين يسعل بفرح ، ويذوب في غيمة بيضاء دخانية تأخذه بعيداً . . بعيداً عن الأرض التي كرهها ، هذه الأرض . .كتلة الطين المتجمد ، هذا الكوكب الجيفة .

***

كافتيريا قريبة من شارع الحمرا ، وآمال تنتظره هناك .

جلسا طويلاً يداً بيد ، ضوء أبيض يربط بينهما وتجاور مقعدين جلديين حتى كاد وركاهما أن يتلامسا ، كانا يتظاهران باللا أبالية ، وعدم الاكتراث أول الأمر ، غير أنهما كان ينظران إلى قوس قزح كبير يمر من فوق رأسيهما ، حزمة ضوئية ملونة تنبثق من كوة في جدار خلفي كخط رفيع من دخان أبيض أول الأمر ثم تتحلل إلى ألوان الطيف ، نادل يشبه شابلن تقدم منهما ، وقد طارت قبعته المثقوبة عن رأسه من الفرح ، مشهد الحب جعل المدينة تتوقف كلها :

الرصاص تحول إلى حلوى ، الدم الذي يلف خاصرة القتيل تحول إلى ماء . البكاء تحول إلى ضحك . مدينة توقفت كلها عن الحركة إزاء طيور تحلق على السطوح . سيارة تضرب الكابح على الإسفلت ويترجل سائقها من السيارة وينظر إلى الكافتيريا .

اللاجئون يعودون إلى أرضهم ، إلى الشجرة المسقية ، إلى الزيتون والبرتقال ، اللاجئون يعودون إلى مراكب الصيد في البحر ، إلى البيوت المنحوتة في الأرض ، ورجال داوود يرمون الأسلحة ويستقبلون الساكنين القدماء ويصبحون هم الضيوف . . .

***

نظرا عبر الزجاجة إلى الشارع ، إلى الدخان الذي يتصاعد من عهد نوح مثل دخان سماور ، موسيقى تعبر المكان ، موسيقى هادئة بأنغام

مختلفة ، موسيقى أشبه ببتيتيك بيتهوفن يعزفها تيغرمان ، صوت بيانو يرتفع ويتصاعد من أعماق صالة نظيفة الأرضية مليئة برائحة الشاندي ودخان السكائر .

كان إدوارد ينظر نحوها ، ينظر بعينيها الذابلتين ، بوجهها الجميل ، وبملابسها الفلسطينية التقليدية ، وقد وضعت الطرحة على رأسها .

قهقهة عالية جذلة وتصفيق عاصف . مال نحوها وهمس :

- لنذهب إلى مكان آخر .

هزت رأسها بالإيجاب ونهضت قبله ، دون أن تعرف أين يقع هذا المكان الآخر .

توقف إدوارد أمام الباب ليدفع الحساب إلى النادل الذي يرتدي قبعة مثقوبة تشبه قبعة شابلن ، وقد عادت الحركة مرة أخرى إلى الشارع ، صوت الرصاص ، أزيز القاذفات ، الصراع ، العراك ، الزعيق ، الظلام الدامس ، صوت الإسعافات الذي يجأر في الفضاء .

أين يذهبان؟ . . . إلى القدس . . . إلى القاهرة؟ إلى نيويورك ، إلى ظهور الشوير . . . إلى أين؟

جلسا في مكان ما ، جلسا في اللامكان ، جلسا خارج المكان .

- كل مكان هو منفى ، كل مكان هو لا مكان . قال إدوارد .

صوت قادم من بعيد . . . صوت يهونتان غيفن يصرخ بقصيدته عن صبرا وشاتيلا :

هناك جمهور غفير . . يجلس أمام الشاشة الصغيرة . . رأينا الأسرى الفلسطينيين في طريقهم إلى المعتقل . . صرخ الجمهور . . صرخت أنا أيضاً . . اقتلوهم . . احصدوهم . . اذبحوهم . .نريد أن نرى الدماء في صبرا وشاتيلا . .

***

مكان شبه معتم ، وكانت حبات المطر تتساقط على الزجاج أمامهما ، بعضها يسيل إلى الأسفل ، وبعضها يستقر مثل ماسات مختلفة الألوان صغيرة تعكس ضياء مصابيح السيارات التي تمرق مسرعة ثم تختفي ، تعكس أضواء أعمدة الكهرباء في الشارع ، نيونات الإعلانات المضيئة التي تومض في الأعالي المظلمة ، طيف ينبعث من قطرات المطر مثل شرارات مرة حمراء قانية ومرة بلون الخشب ، ثنى سعيد كم جلابيتها المطرزة ، وطبع قبلة طويلة على رسغها ، مدت يدها بحنان عذب إلى شعره ومسدته بأصابعها ، رفع رأسه بحنان نحوها فالتقت عيناه بعينيها . نظر إليها بحزن شديد .

نظرت إليه بعينين ينبعث منهما وميض غريب ، وميض تظلله أهداب سود طويلة ، مالت نحوه بوجهها الذي بدا عليه الحب والحزن ، وطبعت قبلة طويلة على يده بشفتيها المكتنزتين اللتين لهما مذاق الحلوى .

***

في مقهى قريب جلسا ، شرب إدوارد النبيذ الأحمر وشربت آمال القهوة ، شعر كلاهما بشيء من النشوة ، لم يكن مخيم صبرا وشاتيلا بعيداً عنهما ، ولكن الصورة التي تحملها الصحف ذلك اليوم مروعة ، وكان إدوارد سعيد يقف منذهلاً أمام صورة متجمدة ، صورة بالأسود والأبيض مسجونة في حدود بيض تشبه الإطار .

دخّنا كثيراً ذلك اليوم والصحيفة موضوعة على الطاولة ، امتلأت المنفضة بأعقاب السجائر .

- هل كنت تدخن من قبل؟ . .

- لآ . . .

أثناء الحديث رنا إلى وجهها الملتهب ، قالت له وهي تنزع بطرفي إصبعها فتات التبغ العالق بطرف لسانها :

- هل تعرفه . .؟

صوت نعمي شيمر ورائحة الجنود تفوح من كلماتها :

على أجنحة الفضة الفوارس يمتطون الغيوم ، الأقوياء الطيبون كالشرر على ارتفاع عالٍ يطيرون . . . وغداً سنبحر في سفن من ساحل إيلات حتى ساحل العاج .

***

صورة القدس ارتسمت من جديد . . . وكان جد الضحية يجلس في صورة التقطها المصور الأرمني يساي غرابيديان وهو أول من افتتح مدرسة لتعليم التصوير الشمسي في مدينة القدس .

قالت الصحفية أمام كامرا التلفزيون :

- أمضى يساي غرابيديان شبابه في استنبول ، ثم توجه إلى القدس وصور الناس هناك في كاتدرائية سانت جيمس للأرمن .

الصورة ذاتها التي نشرها دليل باديكر عن فلسطين العام ١٨٧٦ ، الصورة التي أشار إليها الرحالة الفرنسي جول هوش ، حيث وقف يساي غرابيديان هناك ، في استديو البطريركية الأرمنية ، ووقف إلى جانبه غرابيد وكيفورك كريكوريان واللبناني خليل رعد ، صور الحاج خليل جد الضحية في بورتريه وقع عليه كريكوريان بالعبارة التالية : (مصور شمس ، القدس ، الكنيسة الأرمنية) .

***

وقف الحاج خليل يرتدي جلباباً من الألوان الفاتحة ، ورمى على كتفه عباءة قاتمة ، وغطاهما بقفطان طويل يصل إلى القدمين ، وانتعل حذاء فاتح اللون ، وبيده مسبحة البركة .

كانت القدس أوانذاك كما رآها شاتوبريان أول مرة : حاراتها ومنازلها الوطيئة وعقودها الملتوية.. . ربما كان الحاج خليل هناك يرقب وهو نائم

مركب شاتوبريان في البحر . . . مركبه وهو يتقدم ليهبط في يافا ثم يترجل ليركب الحمير متهادياً في الطرقات الوعرة حتى يصل القدس :

أرض مقدسة . . . جوها في غاية الجمال ، هواء عذب وشمس ساطعة . حيث أمضى شاتوبريان الليل على ظهر مركب ، وهو ينازع راهبين يونانيين ضخمين على مكان صغير يقع في المؤخرة .

صوت الحجيج وهو يصدح :

« يا سيدي إنه الكرمل ! الكرمل !» .

ريح قوية في الليل ، وهو ينظر الجبل المقدس ، وشعاع الشمس بدأت تبزغ من المكان ذاته .

أين القدس؟

رهبة ووقار وحجيج صامتون ، يمسكون المسابح ، ينتظرون انبلاج الأرض المقدسة .

***

قالت آمال لإدوارد سعيد :

- ماذا عنك أنت؟

صمت برهة ثم أجاب :

- لا شيء أنا لم أعش كلاجئ مثلكم . . ماذا عنك أنت؟

صمتت برهة كما لو كانت تتذكر قصة مؤلمة :

- ولكن أنت كيف افترقت عن زوجتك الأولى؟

لم يكن مستعداً للحديث عن أي شيء ، ضحك وقال لها :

- أنا جئت لأستمع فقط . . .

- تحب أن تستمع . . لشيء . . .

- لا أدري . . .

- هل أقرأ لك شيئاً . . .

- مثل ماذا؟

- . . .

في أورشليم ناولت إيستر يائيل الصحيفة وقالت له اقرأ :

- ماذا ؟

- اقرأ هذه القصيدة . . . قصيدة آكور عن جيش الدفاع في لبنان .

تناول يائيل الصحيفة وقرأ بصوت حاد وراجف :

لو كنت قائداً لمنطقة بيروت المحاصرة والمختنقة لصرخت في وجه كل أولئك الذين يطالبون بإعادة المياه ، ويصرخون ويتألمون ويطلبون إعادة الدواء والطعام إلى المدينة المحاصرة . .

لو كنت قائداً لجيشنا العظيم لزرعت الموت والدمار في كل المزارع والشوارع ، في كل المساجد والكنائس .

***

- ولكن - سأل سعيد- ما هي أخبار أحمد؟

- أحمد؟ قالت آمال .

- وميخائيل؟ .

صمتت قليلاً ثم قالت :

علاقة حب أقامها ميخائيل مع ليلى اليهودية المصرية ، وأحمد يعيش الآن في أميركا لكنه لم يترك الفلسطينيين ، وهو على علاقة بمنظمة التحرير .

***

سياق سردي للماضي يتدفق ذلك اليوم عبر ذاكرة إدوارد سعيد ، غموض يوضحه حاضر حواري ، يؤول ويطور ويزيل عوائق فهم كثيرة ، ويطرح دلالات أخرى تشكل تحدياً حقيقياً للأفكار التي يطرحها عليه مصير ميخائيل ، ومصير ليلى ومصير أحمد وأسلافه هو أيضاً ، ويقع مفهوم

الهوية في مركز هذا التحدي .

***

عندما قُدّمت لهما ورقة الحساب لم يتفحصاها ، دفع الحساب وخرجا وهي تتأبط ذراعه ، أخذا يسيران في الشارع تحت المصابيح المضاءة وكان الضباب يهبط بعد المطر البيروتي الكثيف شيئاً فشيئاً .

كانت آمال ترتدي الجلابية الفلسطينية وقد وضعت الطرحة على رأسها ، ووضعت جاكتة سوداء على أكتافها ، بينما كان إدوارد يرتدي معطفاً صوفياً وبذلة سبورت ، تخيل نفسه بطريقة أخرى ، تخيل نفسه بالملابس العربية كما كانت صورته بالزي الفلسطيني مع شقيقته روزي ، والتي التقطها في القدس في العام ١٩٤١ ، العقال والكوفية ، والدشداشة المخططة المحزومة ، والعباءة على الأكتاف وعلى مقربة منهما جرة الماء .

قالت إيستر لإدوارد في الباص الذي تجول بهما في أورشليم :

- كان يمكن مثلا أن تكون فلاحا تعيش هناك على الأرض ذاتها التي عاش عليها جدك حين زار شاتوبريان القدس نهاية القرن الثامن عشر .

عاش جد إدوارد تحت الضيافة البابوية ربما في ذلك الوقت . . . عاش في المكان الذي بشر فيه أول الحواريين بالإنجيل .

- كان يمكنك أن تكون فلاحاً مثل جدك .

فلاح يحتفظ بالصليب الذي نصب على هذه البقاع بعينها ، وأن يعيش في الجنة وهو يتساءل هل بالإمكان معرفة ما عساها أن تكون هذه الجنة ، إن لم تكن الحياة في مزرعة على الأرض المقدسة ، حتى لو تعرض للإهانة وإلى التهديد بضربات العصي وإلى السلاسل وإلى الموت ، كما تعرض أجداده على أيدي العثمانيين .

***

قال لآمال لنذهب إلى منزلي نجلس ونتحدث ، وافقت بسرعة ، أشار

إدوارد بيده فتوقفت سيارة تاكسي بالقرب منهما .

حملهما التاكسي إلى أحد أزقة بيروت ، لم يكن إدوارد يقطن في فندق هيلتون كما يفعل عند زيارته للقاهرة ، إنما في نزل صغير قرب شارع الحمرا .

زقاق منعزل ونزل صغير حيث كان مصباح الشارع الغازي يلقي بضوئه على خيوط المطر وهي تتساقط على برميل قمامة من الصفيح موضوع قرب الباب فيحدث صوتاً معدنياً قوياً .

دخلا إلى الصالة . أشعل إدوارد المصباح . جلسا على الأريكة .

كان إدوارد قد خلع معطفه وأخذ يبحث في حقيبته عن اسطوانة موسيقى ، بينما ذهبت آمال إلى الحمام .

جلس على الأريكة ليستمع إلى موسيقى البيانو المتصالبة التي تصدح في الحجرة ، وصوت شخة آمال تأتيه بمونوتون واحد من الحمام .

- لا يا عزيزي . . . عليك أن لا تشرب أكثر من هذا . قالت له بصوت صادق وحميمي جداً .

- كأس واحدة فقط من النبيذ الأبيض . . . قال بشكل بتار وأخذ يصب لنفسه كأساً .

أطفأت الضوء وبدأت بخلع ملابسها ، انذهل وهو ينظر في الظلام إلى جسد أبيض مضيء ، إلى جسد لدن يتقرب منه . شيء واحد يتحرك هناك . شيء واحد يتحرك في الظلمة ذلك اليوم ، صوت مسموع وجميل ينداح في الظلام ويخرج من الشباك . لا شيء في هذا المكان إلا صوت التاكسي الهابطة في المنعطف ، صوت التاكسي الصاعدة نحو الشارع ، والأصوات الأخرى التي تغني منذ أن قال البلماخ : نحن قادمون . . . نحن قادمون وسوف نفتح أبواب أورشليم جميعها .

منذ أن طار الجنود الستمئة على خيولهم في قصيدة تنيسون .

منذ أن غنى إدوارد أغنية كان يغنيها اللاجئون :

تاكسي تاكسي

خذني معك

إذا لم تنقذهم الأونورا فإن نصفهم سيموتون .

تاكسي . . . تاكسي . . .

تاكسي . . . تاكسي

اطلب الشوربة اليهودية فهي لذيذة جداً . . . . هذه كأسك وهذه كأسي . . . انتباه . . . انتباه . . . لطلب وجبات مختلفة متضمّنة في المنيو . . . صلصة تاباسكو أوصيناك أليس كذلك . . . ليمون . . . ماء بارد . الوجبة الرئيسية ، استقرت على وينر شونتزل . . . صحن آخر من شونتزل . . . كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون .

- إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا والسيدات الآسفات والزلزال . . .

***

لم تكن آمال صغيرة حين وافقت على المجيء مع إدوارد إلى منزله .

خلعت ملابسها .

أخذ يغني معها :

تاكسي . . . تاكسي . . . .

هل أنت من القدس . . .

هل أنت من يافا ، هل أنت من حيفا

تاكسي تاكسي

تاكسي تاكسي

كانت القدس قديمة جداً عندما رآها دافيد شاحر وروى طفولته هناك . . . روى طفولته في فترة الانتداب البريطاني في فلسطين . . .

أنت هناك ويهوشواع يكتب قصصاً غير آبه بك ، غير آبه بليلك ونجومك ، بسحرك وعجزك ، بصمتك وغربتك . أيتها المدينة التي ما كنت يوما لأحد . قالها وهو يقبض على صدرها بحنان بيديه ويشم رائحة تصعد من فرجها تشبه رائحة تخمر تفاح . رائحة تصعد شبيهة برائحة الأرض المرشوشة قرب منزل آنطي ميليا في القدس .

قادها بصمت إلى غرفة النوم . أضاء مصباح الحجرة . كان السرير واسعاً ومرتباً ، وكان الدفء المنبعث من الموقد في الصالة يملأ المكان ، بينما كان المطر ينقر السقف بسرعة ، أما هي فقد شرعت حالاً بخلع فستانها الطويل عبر رأسها .

خرج من الغرفة ، وشرب كأسين من الخمر المر المثلج واحدة إثر أخرى .

لم يستطع أن يتمالك نفسه فدخل الغرفة ثانية . كانت غرفة الحمام المضاءة تنعكس بسطوع على المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط المقابل في غرفة النوم . وكانت هي تقف وظهرها نحوه ، عارية تماماً ، بيضاء ، منحنية فوق المغسلة تغسل وجهها .

- هل ستبقى هناك وتراقبني . . .

قالت هذا وألقت على جسدها ثوب الاستحمام دون أن تغطي نهديها الممتلئين ، أو بطنها أو فخذيها البيضاوين المشدودتين ، ثم اقتربت منه واحتضنته ، واحتضنها هو كذلك ، احتضن كل جسدها الرطب مقبّلاً نهديها المبتلتين اللتين تفوح منهما رائحة الصابون الشذية ، ونظر في عينيها طويلاً ، ثم قبلها من شفتيها اللتين أزالت عنهما الحمرة .

***

عندما عادت إيستر من المقبرة مرتدية ثياب الحداد كان النهار ربيعياً لطيفاً ، وكانت بعض الغيوم تسبح في مكان ما في سماء أورشليم .

كل الناس تتحدث عن نعومكن الذي كان قريباً من الانفجار .

زوجته عادت إلى منزلها . . . دون أن تحدث إيستر عن حياتها التي انتهت .

وفي نزل قريب أخذت ترتب الشقة . وعندما وصلت إلى الأريكة وجدت قميصه الأبيض مرمياً هناك ، تناولته بهدوء شديد ، قربته من وجهها ، غمرت أنفها فيه وضغطته ، ثم جلست على الأريكة وأخذ جسدها يرتجف من البكاء . . . نظرت صورته معلقة على الحائط ، طوله الفارع ، شعره المصفوف ، صدره العريض الشبيه بصدر رياضي ، وكانت مظاهر الصحة بادية على خديه .

إلى جانبه ديفيد بقبّعته السوداء القذرة ، والصدرية الزرقاء .

***

لم يكن يسألها . . . غير أنه وجد متعة ما معها ، كان يعرف أن الطريقة الوحيدة التي تصل روحها بروحه هي أن يطوقها بذراعيه ، وحين لامست ذراعه عنقها ازدادت عاطفته في داخله ، وعرف أن الدقائق التي يمضيها معها هي أعظم الدقائق . . . وربما ستشارف على نهايتها . . . لأنها تعمل في المنظمة . . وفي أية مهمة ربما ستموت . . . ربما تؤسر . . . أو تقتل . . . فسألها :

- هل تقومين بعمليات . . .

- قمت بعملية أو عمليتين . . .

- يمكن أن تموتي أليس كذلك؟

- نعم .

لم تكن اللحظات تستمر إلى ما لا نهاية ، ولكنه معها ، ها هي جاءت من بيروت لتزوره ، وقد أصبح كل شيء مشوشاً فجأة ، كان يقبلها وعيناه مفتوحتان تراقبان ارتعاشة وجهها ، ثم غاب إدراكه تماماً ، دخل في

كون أبيض مثل دخان وشعر بارتعاشة تسري في جسده ، وهو يطوقها بذراعيه ويشدها إلى صدره ، لقد شعر بالحمى تسير في كل أوصاله ، تضاعفت لذته وهو يشعر بأنها سترحل عنه يوماً ما ، تضاعفت عاطفته وهو يعتقد بأنها ستتخلى عنه وتذهب لتندمج في التراب .

***

طفل من الأشكناز . . . هرب إلى أورشليم مباشرة ، قبل الحرب العالمية الثانية . . . طفل من الأشكناز اسمه عاموس كلاونسر . . . طفل عاش في عائلة علمية . . . كان خال أبيه يوسف حصل على كرسي التأريخ اليهودي في الجامعة العبرية ، في القدس ، وقد كتب رائعته حول السيد المسيح في الناصرة . كان أبوه يقرأ بستّ عشرة لغة ، كتب شعراً كثيراً ، وكانت عنده مكتبة هائلة ، بينما كانت أمّه تتحدث خمس لغات ، كانت تحكي له قصصاً كثيرة . . . أشكناز نعم . . . لكنه كان طفلاً انفرادياً ، طفلاً انفرادياً دائماً . .

سيرته الذاتية ملفقة؟

من قال هذا؟

هل عاش فعلا في القدس . . . هذا ما قالوه عن إدوارد سعيد؟ هل عاش سعيد فعلاً في القدس . . . هل كان يعرف عاموس عوز أو إبراهيم بن يهوشوا؟

سيرة ذاتية لاخطّية متقنة لعاموس وعائلته :

مهاجرون إلى القدس في الثلاثينات ، كانت القدس حين وصلوها تحت الحكم البريطاني ، وقد ناضلوا كي يخلقوا وطناً جديداً . . . وقد جادلوا بشكل شرس حول اتّجاه البلاد ، والمكانة التي يجب أن تأخذها والزعماء الذين يجب أن يقودوها . تأريخ مدينة القدس يندمج مع سجلات المؤلف الخاصة ، مع ذكرياته حول حياته العائلية المبكّرة ، إنه يخلق صورة

واسعة عن المجتمع الذي كبر وعاش فيه وأنجز كتاباته عنه .

***

– ها هي الحرب اندلعت وعلي أن أذهب الليلة هناك . . .

– . . . .

كانت النوارس تنوح في سماء يافا ، وفي البحر تغور البوارج من بعيد ، وتدير مدافعها إلى الأعلى . . .

– ماذا ستفعلين هنا . . . هل ستبقين في يافا . . . أنا سأذهب إلى الحرب . . . لست سعيداً لأنني ذاهب إلى الحرب ولكني فرحان لأني إذا رجعت حياً . . . سأعود إلى أورشليم . . . وأنت ستأتين معي أيضاً . . . لتعملي في شركة السياحة التي أعمل بها . . . قال يائيل .

صمتت إيستر دون أن تعرف ماذا تقول . .غير أنه أصر على سؤالها :

– هل ستبقين هنا . . . ؟

– لا أعرف .

– يجب أن تقرري .

– صدقني لا أعرف . . . أريد أن أذهب معك . . . ولكني لا أحتمل الحياة هنا وأنت تذهب إلى الحرب . .

– . . .

– لا أحب أورشليم . . . لا أحبها ولكنك حين تعود . . . لا بد أنك تعود–واغرورقت عيناها بالدموع – سأذهب معك إلى أورشليم .

أراد أن يحول كلامه من الحرب إلى أورشليم :

– أنا لا أستغرب ذلك ولكنك ستتعودين . . .

– ولماذا أعود . . .

– من أجلي . . . ضحكت وقالت له :

– ولماذا لا تبقى في تل أبيب من أجلي؟

- . . .

بكت . . . لأنه ذاهب إلى الحرب . . . شعرت بألم يعتصر قلبها . . . ومع ذلك أرادت مثله أن تتحدث عن ما بعد الحرب ، كلاهما أراد تخطي مرحلة الحرب الغامضة والسوداء وغير المفهومة لكليهما ، كان كلاهما يتحدث عن شيء آخر في نفسه ، ويستعيد في ذاكرته جملة أخرى (هل سننعم بالسلام يوماً) . . .

- نعم حين نجعل الآخرين ينعمون بالسلام أولا ، نحن الذين نشن الحروب على غيرنا ، نحن الذين نقاتلهم ونقتلهم ولهم الحق في الدفاع عن أنفسهم . . .

- غير أن كلاً منا يتواطأ مع الآخر لتحويل الحديث وجهة أخرى . . .

- أحب أن أبقى هنا . . . أحب الحياة في يافا . . . أحب الحياة في تل أبيب .

قالت إيستر دون أن تنظر في وجهه . . . غير أنها نظرت في وجهه أخيراً . . . وضعت يدها في يده وسارت معه .

كان يائيل يفكر بالسهر في بار فريدون . . . والتسكع في شارع روشفيلد . . . والمسير في ساحة مغرابي . . . أو شارع يهودا . . . كان يحب الحياة قريباً من سوزان دلال أو ارتشبال شراينكن . . . كان يخشى أن يموت ولا يرى هذه الأماكن مرة أخرى . . .

وقف وهو يفكر ويتساءل :

كيف يمكن للمرء أن يحتمل الذهاب إلى الحرب ليموت من أجل أن يحيا جيل آخر في المستقبل وينعم بالسلام . . . جيل لا نعرفه . . . لا نعرف ملامحه . . . ولا كنهه . . . من هؤلاء الذين سيحيون في المستقبل دون أن نعرف من هم؟

حياتي هذه . . . إن خبرتها . . . هل أجد غيرها؟

. . . لقد شعر بسقوط كل ما حشي رأسه به تلك اللحظة من وقائع التاريخ ، كان مؤمنا بإسرائيل في السلم ، أما حين اندلعت الحرب ووجب عليه الذهاب للقتال . . . سقطت كل تلك الأغاني والكلمات من رأسه ، شعر بصرخة إيستر يوما في وجهه :

لا تقل لي يافا التي اسمها في التوراة يابو أو التي احتلها سنحاريب أو التي احتلها الليبني ما شأني والتاريخ . .أنا أتحدث عن القوارب الملونة . . أقول لك ساحة ملشاي إسرائيل لا تقل لي اغتيل فيها رابين . .لا يهمني . . ما يهمني منها أن صديقي قبلني هنا من خمسة أعوام هل تفهمني . . . ؟

لم يكن يريد أن يفهمها ذلك الوقت ، كان عاجزاً بالأحرى عن فهمها فيحرف الحديث وجهة أخرى :

- هل كان والدك . . . في الهاجانا قبل أن يصبح في جيش الدفاع . . .

في تلك اللحظة أرادت أن توقفه عند حده .

وقفت أمامه مباشرة . . . وقالت له قبلني .

كانت ترتدي ذلك اليوم معطفاً رمادياً من الصوف يتسع عند وركيها ، غير أنها لم تكن أنيقة جداً . . . وجهها جميل على الرغم من سحنتها الشاحبة ووجناتها الصقيلة . لم تكن تنظر إلى أحد ، وهو أمامها يواجهها بابتسامة جميلة ، ابتسامة في العينين . ابتسامة لا تلحظ أبداً ، إنما تظهر وسرعان ما تختفي مثل فتاة تظهر في المدينة فجأة ثم سرعان ما تتلاشى في عطفة الشارع . . . كان أطول منها قليلاً ، ويكبرها قليلاً غير أنها كانت أكثر جرأة منه ، أكثر اندفاعاً وطيشاً ، أكثر فتنة . . . وهذا ما جعلها تأسره ، أسرته وهو يقبلها تحت عمود المطر . . . بينما كانت عصافير يافا تزقزق أعلى رأسيهما في الشجر .

نظر إليها وقلبه يخفق :

شعرها يطوق وجهها الأبيض بلونه الذهبي ، شعر منسدل يأسره . . . شم فيه رائحة تلك الغرابة وذلك الغياب . . . هل يعرف أي شيء عنها سوى أن عائلتها قادمة من بولونيا ، وأنها تعمل في جيش الدفاع . . .

- نحن نعيش في إسرائيل فيجب أن نؤمن بإسرائيل . . .

قاطعته إيستر . . .

- كف عن هذا الكلام . . . أريدك أن تسألني عني لا تسألني عن إسرائيل .

وحين غضبت صرخت بوجهه :

اسألني أجبك عن نفسي . . . لا تسألني عن التاريخ . . . لا تسألني عن الماضي . . . أريد أن أعيش الآن . . . ما همني وإسرائيل . . ما همني وأمي وأبي . . . عملك في السياحة أثر عليك . . اسرائيل كلها آثار . . إسرائيل كلها من الماضي . . أنا أتحدث عن نفسي . . .

انتبه قليلاً لنبرة الغضب في كلامها . . بعد ذلك دارى ارتباكه وسألها عن نفسها مثلما أرادت :

- هل تعيشين وحدك . . .

- لا أعيش مع جدتي . . . أبي مات في الحرب . . . وأمي ماتت من بعده وليس لي أحد في العالم سوى جدتي . . .

قال لها متهكماً :

ألم أقل لك إننا في إسرائيل لا نتحدث عن أنفسنا دون أن نتحدث عن التاريخ . . . حين تقولين لي إن أهلك ماتوا في الحرب . . . أنت تتحدثين عن أهلك . . ولكن أهلك أكلهم التاريخ . .

صمت قليلاً ثم قال لها :

وأنا أيضاً . . . ليس لي أحد سوى أمي . . . فوالدي هو الآخر مات في

الحرب . . . ولد قبل الحرب في أسرة بولونية . . . شمال بولندا . . . أبوه كان عاملاً في السكك الحديدية ، ثم عمل في التجارة ، والدته كانت تعمل في مدرسة للأطفال . تنحدر من أسرة إسبانية هاجرت بعد محاكم التفتيش إلى أيرلندة ، ثم انتقلت من أيرلندة إلى شمال إنجلترا بمقاطعة تشيشير . . . ثم ارتحل والداي إلى المغرب ، وجدا عملاً في تجارة الأقمشة في مدينة أغادير ، ثم فرا هاربين من جيوش روميل عام ١٩٣٦ إلى مصر ، فلما انتهت الحرب ، أمر عبد الناصر بتجميد حركة اليهود في مصر ، فهربا من مصر إلى إسرائيل ، عملا أول الأمر في «ها خانياه أساس ها إرتزيسل» ، ثم ولدت أنا في منطقة بيرشيبا في صحراء نجف وقد حدث ذلك في كيبوتس اسمه هاخليت .

***

شهر مارس ، في آخره . . . محطة الباصات في تل أبيب مزدحمة . انتصف الليل قبل قليل وهبت ريح هوجاء ، بدت للمنهكين من قلة النوم وعناء السفر ، أبرد وأشد مما هي عليه .

في الأعلى ، كانت النجوم تظهر بصمت بين غيوم خفيفة . ومن بعيد كانت الأضواء الصفر والحمر تتناوب في حركة مستمرة بين الأرصفة ، يرافقها صفير حاد تطلقه صفارات ناظر المحطة . . . كان يائيل وإيستر يسيران ببطء شديد على مقربة من فندق دان ، ثم تحركا صوب شارع باروخ ، كانا يسيران بصمت تقريباً . . . سارا قرب الفنادق الضخمة على طول الشاطئ ، توقفا عند جادة بن غوريون ، ساحة أتاريم ، ثم شارع كيكار نمير حيث المقاهي والتيراسات على البحر .

في المساء كانت القافلة العسكرية تنطلق بسرعة شديدة نحو جبهة الحرب شمال إسرائيل ، وهناك مسافرون إلى أورشليم متعبون يجلسون قرب حقائبهم عند الرصيف . . . وقف يائيل قبالة إيستر مباشرة ، ابتسم

لها ابتسامة خفيفة ، فتخلت عن هدوئها . . . تعلقت به ، تمسكت به بقوة ، واستسلمت لقبلة طويلة منه . . . وحين أخذ الباص يتحرك ، تركها وصعد وهو يلوح لها . . . اتخذ مكانه ، وضع رأسه على زجاج النافذة وهو ينظر إلى تلويحتها البطيئة . . .

***

في الطريق إلى شقتها في تقاطع ديزنكوف وضعت رأسها على حافة نافذة السيارة ، وأخذت تنظر إلى الحدائق التي أصبحت أكثر عتمة في الليل ، رأت عشاقا يسيرون ببطء في الظلام ، رأت دسائس عمياء تصعد وتهبط ، وبارات تل أبيب لا ينقصها الدفء ولا النبيذ ، لكن في يدها شيء لم يبصر قطّ أيّ ربيع بعد . . . غصون ذابلة في قلبها ، وحقول حالكة في جسدها ، وهي تريد لهذا الحب أن يزدهر في قلب يائيل ، تريد أن تراه مثلما ترى الأثقال المدلاّة للثمار وهي تشعّ في روض - البرتقال في يافا . . . لم تنس إيستر وجهه لحظة وداعها ، لم تنس لحظة الحزن والخوف في عينيه ، لم تنس رعشة يده ، وحبه للحياة ، لم تنس ألمه والفراغ الذي وضعته الحرب به ، غير أنها لم تكن واثقة من أنه سيعود أم لا ، فماذا تصنع؟ هي أكثر حزنا هذه الليلة ، هل تعود وحدها إلى بولفار روشفيلد ، ثم تكمل سهرتها في البار . . .

في اليوم التالي لم تذهب إلى بولفار روشفيلد ، ولم تذهب إلى شارع أحاد ولا إلى أي مكان آخر . . . انتظرت حتى المساء وهي تنصت للأخبار . . . كانت مشلولة تماما ، أمضت ليلها ونهارها وهي تدخن وتستمع لأخبار الحرب . . . رفعت سماعة الهاتف :

- آلو . . . آلو . . .

- هنا شركة أورشليم للسياحة . . .

- نعم . . نعم . . من على الهاتف؟

- . . . أغلقت الخط وانخرطت بالبكاء .

***

مدينة مقدسة . . . قال إدوارد للسياح الذين يحملون الحقائب على ظهورهم ويطوفون قرب الأسوار الحجرية . . . وكانت إيستر تسير خلفه .

قال : هذه أورشليم يا سادة أقدم المدن التاريخية في العالم بل أقدم مدن الأرض . . . أورشليم القدس هدمت وأعيد بناؤها أكثر من ١٨ مرة في التاريخ . . . مدينة يزيد عمرها على ٤٥ قرنا . . .

شاتوبريان مر من هنا حين جاء في القرن ١٩ . . . مر من الموقع ذاته . . . وهو يردد أسماءها العديدة في نفسه . . . يبوس كان اسمها . . . أورشليم صار فيما بعد ، ثم إيليا كابتولينا بعد ذلك ، وهي إيليا ، وبيت المقدس ، والقدس أيضاً .

- إنه الحي اليهودي . .قال يائيل .

صباح يلتمع فوق نبات القرّاص ، وإدوارد يقف إلى جوار الطريق متكئاً إلى صفصافة . ضوء غامر ينسكبُ فوقَ سقف بيته في أورشليم ، وكان يسمع من بين الضوضاء تغريد العندليب ، يشم رائحة دفء أمام موقد في الشتاء ، وأشجار السرو قرب البيت تمتد مثل شموع النذر في الكنيسة ، شيء ما وراء النهر يتراءى له ، وهو ينظر إلى شومير متعب يحمل العوزي على كتفه . . . ويصيح بالعبرية على مجموعة من الشبان . . . هذه الكاردو ، هذه السوق الرومانية القديمة وهي تندفع باتجاه الشمال . . . من هناك كنيس هحورفا . . . من هنا المنزل المحروق . .

- شو بتعرف عن الثورة اليهودية الكبرى ضد الرومان . . .

- لا لا هناك حي هيرودياني . . وهناك حائط المبكى . . .

حتى جوشيا . جوشيا بعمر ثمانية أعوام أصبح ملكاً . . . جوشيا عمر منزل الله . حطّم كلّ المذابح المقدمة للآلهة الخاطئة . سن قوانين الله ،

وحين أدرك أنّ الأمة كانت مذنبة ومستحقّة لعقاب الله . . . ندم وصلّى .

هذا هو جـدار الهـيكل المدمـر-قـال يائيل- وهؤلاء الذين يرتدون الطاقـيـات الســود الصـغـيـرة على الرؤوس وينودون بهـا أمـام الحـائط هم المؤمنون . هؤلاء المؤمنون الذين تترنح رؤوسهم في الهواء فتتساقط عليهم من شقوق الحجارة التاريخية الضخمة ملايين قصاصات الورق ، قصاصات كـتبت عليهـا التضرعـات والصلوات والابتهالات . . . شـاتوبريان مـر من هنا . . . قال يائيل للسياح الفرنسيين وهو يعدل جاكتته على كتفه . . .

شاتوبريان مر من هنا بعد أن كان كل شيء صامتاً وأخرس . . .

شـاتوبريان مر . . . شـاتوبريان مر من هنا والصرخـة الأخيرة للرب هي الصوت الذي رددته أصداء كنعان ، وقمم أباريم ، وآشور أيضاً . . .

سياح أوربيون منذ القرن التاسع عشر تنتشر حول معسكراتهم قوافل الجمال ، وهم في الخيام يسمعون صهيل الجياد ، يتدفأون أمام النار ، حتى يدخل وميض الصباح من قماشة السرادق المشطبة ، يحملون سروجهم بأيديهم بينما يلجم العبيد جيادهم ، ويهزون الوتد الذي يستخدم كعامود ، فتنزل قماشات السرادق وتهوي على الأرض ، يلمونها ويدخلون أسواق أورشليم .

- الرجاء ، الرجاء مراعاة قدسية المكان باللباس والتصرف . قال رجل يرتدي لبـاسـاً أسـود ، يقف عند زاوية مظللة من الحـائط ، قـربه منضـدة وضـعـت عليـهـا كـتب الأدعـيـة . . . فـأعـاد يائيل جـملتـه على السـيـاح الفرنسيين ، وهو يعدل جاكتته على كتفه ويمشط شعره بأصابعه النحيفة :

«شاتوبريان مر من هنا» .

كان إدوارد سعيد يقف في المكان ذاته ويراقب المشهد ، طريق طويل من الحجر في سبيله لاجتيازه . جسر خشبي قديم . . . جسر تاريخي ملقى أمام مقهى شبه معتم . كنيس كبير مر بها دوقات الأرخبيل قبل قرنين تقريباً .

- ها هم سلاطين آسيا . . . ها هم المسلمون قادمون . . . ها هم العرب قادمون من ضفة المتوسط .

- إلى أين أنتم ذاهبون؟ سألهم أحد الأحبار .

كان الفقراء المغاربة يحملون صرارهم ويذهبون بها إلى مكة . . وفي العودة يتوقفون في القدس . . . ويمكثون هناك .

هل هناك من يعرف عن هؤلاء الفقراء وعن مصيرهم القادم؟ سأل إدوارد وهو يتكىء على الحائط .

في الصرار شيء من الرمل ، ومجداف من الخشب . . . في التاريخ جزر سقطت ، وأرض خضعت ، وهلال يطارد الصليب في هروبه إلى كورفو . . . جيوش مسلمة . . . صليبيون . . . وحجاج أورشليم يتدفقون إلى الرمس من جنوة والبندقية .

قال يائيل لإدوارد :

منزلنا هناك . وأشار بيده إلى الشارع الذي يقود إلى شارع فردينون ١٢ .

منزل صغير يقع بالقرب من مكتبة ليو موديل ، في جيلو ، قرب مدرسة جيلو الشاملة .

بينما كانت إيستر لاهية وهي تتملى ببصرها طبيعة حزينة كشاهد لم يزل تحت صدمة المشهد الذي مر به ، حروب دامية بين الغيوم تنبئ أطفال فلسطين بفواجع جسيمة . . . وفي يوم وصوله ، شاهد شاتوبريان اليهود وهم يتجمعون في وادي يهوشعفاط بعد أن باع الحاكم لهم رخصة الدخول وإقامة احتفالات بعيد الأضرحة . . . أسرى جاثمون في صمت على الأحجار الرمسية ، ساعة موعودة قد أزفت ، وهناك أجيال تهرع إلى حافات قدرون وكلامهم لا يخرج من وسط الغيوم . . . سياح يسيرون في فضاء ضيق وعر مغطى بالطين ، مسافة تفصل منازل شبه مهدمة ، وأطفال

فلسطينيون تغطيهم الأسمال يتعلمون لدى عجوز ضرير حكاية هذه المدينة . . .

كان إدوارد ينظر إلى ضوء الصباح ، ومن قفص في حديقة الحيوانات التوارتية يبكي مالك الحزين بصوت عالٍ . يبكي العصفور الصَّفّارُ في مكانٍ ما ، أما الشومير فلا رغبةَ له بالبكاء .

***

لم يسأل أحد هل انتهت الحرب . .لأن الحرب في إسرائيل لن تنتهي . قال غروسمان من محطة التلفزيون .

سألت إيستر :

- هل عاد حياً؟

في الفجر ، هبطت من شقتها وهي تلف على جسدها النحيف معطفها الفرو ، عيناها لم تريا النوم ، وفي فمها سيجارتها التي تنفث دخانها بعصبية واضحة ، توقفت عند عمود الكهرباء وهي تلف معطفها على جسدها الذي أخذ يرتعش من البرد ، أشرت بيدها ، توقف التاكسي . . . صعدت :

- إلى شارع كوفمان من فضلك .

هبطت عند بوابة العمارة رقم ١٠ ، صعدت السلم راكضة ، وقبل أن تطرق الباب ، أشعلت سيجارة أخرى ، وبعد أن فتحت لها هيلا الباب ، ارتمت على كتفها باكية .

ماذا حدث إيستر . . . أنا أعرفك . . من عشر سنوات . . . لم تكوني هكذا . . . ربما لأنك لم تنامي معه . . . إنه خجول صحيح . . . ولكنك ستحلين عقدته . . . حتى وإن أثرت عليه الحرب . . . حتى وإن يتذكر القتلى فيشعر بالخوار . . . حتى وإن . . . ستحلين عقدته . . وسترينه مثل الآخرين . . كل يوم مع واحدة جديدة . . الرجال هنا هكذا . . . أيستر . . .

مـاذا حل بك . . . صـدقـيني . . . سـتـملينه ويملك . . . نامي مـعـه وجربي . . . المسألة بسيطة مثل خلع حذاء . . .

في الصباح حملت حقائبها ولحقت به إلى أورشليم . . . صعدت الباص وهبطت في مركز مدينة أورشليم ، هبطت في تقاطع شارع الملك جورج وشارع يافا ، بدلا من استدارة إلى اليسار نحو السوق أو حانة ماميلا ، استمرت بالمسير بخط مستقيم ، فرأت مدينة مختلفة :

بدلا من بنطلونات الجينز والملابس الخليعة والشعر المصبوغ والبطون المكشوفة والأوشام على المؤخرات أو الأكتاف التي كانت تراها في تل أبيب ، رأت البذلات السود والقبعات . . . كل شيء يحيل إلى اللون الأسود ، الرجال باللحى السود ، البذلات سود ، القبعات سود والأحذية سود . . . استمرت في المسير على طول شارع شتراوس ، طبيعة الدكاكين تغيّرت . الأحياء تغيرت ، حتى وصلت ساحة سبت ، ثم تحوّلت إلى شارع مالشي يسرائيل ، ثم شارع ميا شاريم ، لم تكن هنالك موسيقى ولا مطاعم مفتوحة في الصباح . . .

قالت سيدة لأخرى أنا لا أستطيع تخيّل الحانوكة بدون فطائر بطاطة مقلّية ، لاتكاس في لغة الإيدش وليفوفت في العبري ، نأكل اللاتكاس في الحانوكة لتذكيرنا بالزيت ، الذي احترق بشكل أعجوبي ثمانية أيام عندما نقى المكابيون وأهدوها ثانية للمعبد المقدّس في أورشليم . . .

***

وقف يائيل قبالة الحديقة الجانبية للمنزل المؤجر في أورشليم ، ينفث دخان سيجارته في الهواء ويسمع صوتا خفيضاً من النافذة ، صوت أغنية زيروبافل جيلاد تتحدث عن البلماخ الذين ، على الرغم من العاصفة التي تشتد إلا أن رؤوسهم لا تنحني أبداً ، فهم مستعدّون لطاعة كلّ الأوامر ، وسينتصر البلماخ فقد أقسموا على ذلك . . . المذيع في الراديو يتحدث

عن الجنس الكوشر في إسرائيل . . . الرابي شموئيل بوتياش مدير مجتمع لشايم في جامعة أكسفورد هو ضيفه هذا اليوم ، إنه مؤلف كتاب الجنس الكوشر : وصفة للعاطفة والألفة والدليل اليهودي إلى الزنا ، موضوعه اليوم هو الزواج والجنس في اليهودية .

شكرا لكم رابي لحضورك اليوم معنا . . . تعيد مونيكا لوينسكي إلى عقولنا الفكرة الشائعة القديمة للمرأة بأنها غول جنسي ، بينما تحذّر كلّ النصوص اليهودية القديمة الرجال من الغاويات اللواتي يحاولن سرقة براءة الرجال ونقاوتهم . أنت تسخر من تلك الفكرة الشائعة ، وتجادل بأنّ الرجال هم اللصوص ، والنساء يكرهن الجنس . . .

- أؤكّد بأنّ السبب الرئيس في هذا الأمر هو أنّ تجربة الجنس عند المرأة اليهودية تجربة متكاملة تتكون من الجسم والعقل والروح ، وحين تطلب منها أن تفصلها فإنها تتحول إلى كيان أجوف ، فالرجال يرون المعانقة الآن ، والمسير أشياء رومانسية وليست أفعالا من الحب ، وهم يريدون من الجنس المسعى الحيوي والفسلجي . . .

- ماذا يجب أن تعمل المرأة اليهودية عندما تشعر بأن زوجها لا يهتمّ بها جنسياً ويتخيّل أثناء الممارسة معها نساء أخريات؟ . . .

- يفقد الرجال الاهتمام فقط في زوجاتهم عندما يقتنعون بأنّ زوجاتهم يكرّسن لهم أجسادهن ، على الزوجة التي تشعر بأنّ زوجها يفقد الاهتمام بها يجب أن تنسحب بعض الشّيء وتريه استقلالها الأنثوي ، وعلى الأزواج أن يغووهن بدلاً من أن يغووا الغريبات . . . فالمرأة التي تعتقد أنّ زوجها لم يركّز عليها أثناء الجنس يجب أن لا تذعن لممارسة الجنس معه . بكلمة أخرى ، يجب أن تبقى الزوجة خارج قبضة زوجها لكي يغار عليها قليلاً . فالغيرة ، بالرغم من أنها خطرة في المجتمع اليهودي ، ولكنها عاطفة مفيدة وضرورية في الزواج عندما تستعمل بصورة صحيحة .

اطلب الشوربة اليهودية فهي لذيذة جداً . . . .هذه كأسك وهذه كأسي . . . انتباه . . . انتباه . . . لطلب وجبات مختلفة متضمّنة في المنيو . . . صلصة تاباسكو أوصيناك أليس كذلك . . . ليمون . . . ماء بارد . الوجبة الرئيسية ، استقرت على وينر شونتزل . . . صحن آخر من شونتزل . . . كرمبس هشّ مع كثير من عصير الليمون .

– إنه السبت . . . الكوشر . . . والجنس . . . والشولنيت والهلاشا والسيدات الآسفات والزلزال . . .

***

الأرض بيضاء وخضراء معشبة ، كان إدوارد ينظر الفضاء العجيب الذي يواجهه ، أرض فلسطين عالم بلا حدود ، أرض تتسع بشكل كبير ، لا يمكن للمنظار أن يختزلها في بقعة واحدة ، شيء ما وراء الأفق ، شيء ما وراء امتداد أشجار الزيتون وبيارات البرتقال وعرائش الكروم .

جلس قبالة فلاحة عجوز ، نظر إلى الخارج . أشجار زيتون ضخمة ، منازل تختفي خلف السياج العالي . . . خلف السور الذي قطع المدينة إلى أوصال منعزلة . . . تلقي الشمس أشعتها على أعالي الشجر وترسم الظل على الأرض أسفلها ، الأكاليل خضراء . . . تويجاتها حمراء . . . أرض لها لون ذهبي مميز . . . رائحة مطر نفاذة . . . سار الباص مندفعاً في الطريق الملتوي ، دارت عجلاته بسرعة وبإيقاع واحد ، بينما يدفع الأكزوز دخانه بصورة مستمرة ، مرتفعات عالية . . . سماء جميلة ، مزارع واسعة ، فلاح من القرى القريبة جاء على حماره ، دروب ترابية تمتد حتى تصل بيارات البرتقال التي جرفتها جرافات إسرائيلية . . . سماء نهارية بلا سحب ، انتقل الباص إلى الطريق الذي يشق المرتفع ويرتفع ثم يهبط إلى الجهة الثانية من أورشليم ، مر الفلاح على حماره من أمام أشجار الزيتون ، الزعتر يجف قرب منازل القرية ، وعند الظل يجلس إدوارد مع العجوز ينظر ضوء

الشمس وهو ينعكس على ترعة الماء القريبة ، تنظره المرأة بعينيها الضعيفتين . . . بفمها الملموم . . . جبهتها عريضة ، وجنتاها بارزتان ، تنتظر الفلاح أن يصعد المرتفع بحماره ، ترقب العصافير وهي تقترب من الحقل ، تنظر بوجهها الشاحب ، بملامحها الغامضة ، العينان لا تميزان شيئا . . .

***

اللاجئة تتذكر ليلة خطبتها لما بدأت الهجمات اليهودية عليهم ، اللاجئة تتذكر ليلة زفافها حينما كانت تشعل البابور بسبب عدم وجود الكهرباء ، تتذكر قبل وصول زوجها إليها ، قبل وصوله في الليلة تلك بالذات ، سمعت دويّ انفجار قريب جداً ، ومن أثر الانفجار ودويّه ارتفع لهيب البابور مسافة بلغت ثلاث أذرع إلى الأعلى ، وزغردت النساء على الرغم من الخوف حينها ، ظناً منهن أن الشباب الفلسطينيين قد نسفوا الحي اليهودي ، لكن وبعد دقائق علموا أن اليهود فجّروا برميلاً من المتفجرات في أحد أحياء المدينة . .

كان أفراد قوات الهاغانا يأتون من مختلف المناطق التي احتلوها في فلسطين ، وكان معظمهم شباناً وشابات . . . يحملون على ظهورهم عصياً يعلقون بها صرراً كبيرة ، و يدّعون أنهم سائحون ، ويجوبون الشوارع والحارات طيلة اليوم ، ومجرد أن تطلق صافرة كانوا ينامون أينما وصل بهم السير ، ولما تطلق الصافرة ثانية يستيقظون ، ويكملون المسير حتى يصلوا الحي اليهودي ويدخلوا بيوته ، كانوا يدخلون بالآلاف إلى ذلك الحي ، إلى أن نقلوا جيشهم وتمركزوا في الحي اليهودي وجهّزوا أنفسهم . . لقد كانوا ينوون غش الفلسطينيين وقتلهم . . . ولا أحد من الأخيرين يعلم ما يجري . . .

وفي اليوم التالي طوّقوهم في حيهم ، أخذوا يصطادونهم ويقنصونهم من خلال الطاقات والشبابيك في أعالي بيوتهم . . . دون أن يتمكّن أحد

من رؤيتهم ، ولدى مغادرة الفلسطينيين البلدة كانت أم موفق في اليوم العشرين مما يسمى شهر العسل . . . .

***

عوليس في أورشليم . . . قال إدوارد .

كان يمكنه أن يلعب هذه اللعبة ، إدوارد هو عوليس . . . أورشليم هي دبلن . . . يائيل هو ستيفن ديدالوس . . . إيستر هي ميللي بلوم .

آخ يا ميللي بلوم أنت حبيبتي
أنت مرآتي من الليل إلى الصباح

طاسة الرغوة . . . المرآة وشفرة الحلاقة المتصالبتان . . . الثوب الأسود بدلاً من الأصفر غير محزّم ، تحمّل بلطف هواء الصباح المعتدل .

حمل الطاسة عالياً ورتّل : إعلان أنتربو ألترا داي .

وقف ، نظر أسفل الدرجات المتعرّجة المظلمة وصاح بصوت خشن :

اصعد ، كنش . . . اصعد ، أنت يسوعي خائف!

بجدية تقدّم وصعد ليواجههم جميعاً . . . حاول أن يخطو . . . حاول ذلك . . . ثم بارك الأمريكان كولوني ثلاث مرات ، بارك الأرض المحيطة ومطعم روندفو وحديقة الحيوانات التوراتية وجبال الصحوة . أحنى رأسه نحوه وصنع إشارة سريعة في الهواء ، كانت ثمة غرغرة في حنجرته وهو يهزّ رأسه .

- هل أنت ديدالوس . قال .

إدوارد سعيد مثل عوليس دبلن استاء وذراعاه متّكئتان على محجر السلم . . . نعسان وهو ينظر بشكل بارد الاهتزاز الخفيف في الهواء . . . بارك فرسه في طوله ، وشعر بدوخة خفيفة ، ووجهه مثل بلوط شاحب . نظر مولغان لحظة تحت المرآة وبعد ذلك غطّى الطاسة بشكل ذكي .

- عد إلى الثكنات! قال .

أضاف بنغمة واعظ :

– اصمتوا قليلاً وأغمضوا عيونكم عن القتل والتشريد . . . أغمضوا أعينكم اصمتوا جميعاً . . . خطيئة إيستر الأصلية ، ثمنها الجسم والروح والدمّ . . . الموسيقى البطيئة ، رجاء . أغمضوا عيونكم ، يا رجال . لحظة واحدة . . . مشكلة صغيرة حول الدم . . . الصمت ، . . . انظروا إلى اليمين إلى الشمال فوق وتحت . . . اصفروا صفرة بطيئة لمدة طويلة من النداء ، ثمّ توقّفوا لفترة قصيرة . . .

أسنانها بيضاء مستوية . . . تتألّق هنا وهناك بنقاط ذهبية . . . صافرتان شديدتان قويتان أجابتا خلال الهدوء . شكراً ، شاب كبير السن ، بكى بسرعة . ذلك يعمل بشكل رائع . أطفأ التيار ، أليس كذلك؟

خرج خلسة ونظر إلى الشارع ، كل شيء في فلسطين قد تغير ، لكنه موجود خلف الغلالة الشفافة للمدينة الجديدة ، رائحة الأرض وما تحويه من ذكريات ، الأشجار ، الحجارة القديمة ، الوجوه العربية التي يكره الإسرائيليون رؤيتها ولكنها باقية رغماً عنهم ، كل شيء . . . يظهر من خلال مرقبه :

اجتماع حول مشكلة الجدار العازل . . . الطلقات التي أصابت الصحفيين ، المجموعة التي ضلت طريقها ووصلت الحرم .

العرب كيف نبيدهم ولا نسمع بهم . . . هل يمكن أن يختفوا من الأرض هكذا بلمح البصر .

وجهه متجهم . ابتسامة لطيفة انكسرت بشكل هادئ على شفاهه .

فلسطين باقية . . . قالها بشكل مرح .

اسمك سخيف ، لغة قديمة! أشار إصبعه بدعابة إلى صديق وذهب إلى الحاجز ، ضحك الشومير مع نفسه . إدوارد صعّد السلم ، وصل نصف الطريق ولم يتعب ، وما زال هناك شخص يراقبه وهو يرمي حجراً على

الجدار العازل الذي يسور الفلسطينيين .

اليهودي يعيش في غيتو . . . الغيتو في نفسه . . . ولذلك بنى الجدار العازل ، إنه يريد أن يعيش في غيتو أبدي . . . لا يريد الآخرين مطلقاً . . . إنه يكره كل شيء . . . قالت إيستر .

ما زال يسند مرآته على الحاجز ، غطّ الفرشاة في الطاسة ورغوة الخدود والرقبة . صوت يائيل المرح استمرّ . . . اسمي سخيف أيضاً . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

تراءت له صورة المنزل هناك قبل هجوم الجنود ، قبل أن يحفظ قصيدة لورد تنيسون عن ظهر قلب ، قبل هجوم الهاغانا من طرف السوق ، قبل هجرة السكان الأصليين . . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . صوت إدوارد يصدح بقصيدة تنيسون . . . يصدح من بعيد :

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . .

صوته المتهدج الصغير يمجد الخيالة الستمئة ، صوته يصدح بينما تختفي أحياء المدينة تحت نقع تراب الخيالة ، والجنود القادمين من الشمال .

- مجدوا هجومهم . . . بينما يجد المركب مسافة قصيرة في الماء ويصل الشاطئ ، يجري الهارب مرة أخرى من المؤخرة إلى المقدمة . . . خطوة واحدة ثم يندفع نحو الماء فيتأرجح قليلاً . . . صعد وسار إلى داخله وبدأ بترتيب المجاذيف . . . خاض الهارب في الماء حتى ركبتيه وصاح بقوة :

- انتظرني . . . انتظرني هناك . . . هذه أورشليم . . . سنقرب قرابيننا هناك . . . سنجعلها من البقر . . .

- أنا قادم أيضاً . . . أنا قادم أيضاً . .

- مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجوم الخيالة القادمين ، مجدوا هجوم الجنود الستمئة . . .

***

بعيداً عن القدس ، بعيداً عن لغته الأم التي لم تتهيأ له تماماً ولم يفقدها مطلقاً ، في صباح ما استيقظ في مسكنه بشارع من شوارع نيويورك ، كانت الحجرة خالية ، كان الشارع خالياً ولم يكن مندهشاً من هذا الصمت الذي كان يلوح له في الحديقة المجاورة ، يعرف أن قلب المدينة يدق في جسد المدينة ، حينما كانت أورشليم بأقل من عشرين ألف ساكن ، يكفي أن ينظر لسيارة بستديكر خضراء ليدرك مسرح الحوادث ، ليعرف التاريخ ، يكفي أن ينظر إلى التمثال الأبيض لجنود تنيسون الستمئة ، يكفي أن ينظر الى الجنود الستمئة ليدرك التاريخ ، يكفي أن ينظر إلى جدران عكا الشبيهة بمنارة منتصبة ، لحوائط كنيسة قديمة ، لزواريب مظلمة ، لأبراج دائرية ، وغرف حرس ليدرك التاريخ .

- هذا هو التاريخ . . . قال لهم .

مدينة تشيدها عصور وعصور ، يسكنها أناس ولا يسكنها أحد . مدينة لا تتوسطها حاضرة ، ولا هي منسية ، مدينة لا هي منتصرة ولا مستسلمة لمصيرها . مدينة لا تغطيها الأعشاب البرية والأدغال ، ولا تصبح معرضا لماركس آند سبنسر .

هل فكر بها هرتزل هكذا . . . هل فكر بها آحاد هاعام هكذا . . . هل فكر بها دزرائيلي هكذا . . . هل فكر بها عاموس عوز هكذا . . . هل فكر بها ديفيد شاحور هكذا . . . هل فكر بها غروسمان هكذا . . . هل فكر بها يائيل هكذا؟

مستودع للتجار ، ساحة للمؤمنين ، بيت للآلهة ، مكان تعلق النساء

فيه كالسوناتهن ، ساحة يتواعد العشاق فيها ، فنادق يرتاح السياح في حجرها ، ساحات غارقة في الضباب يقتل الشومير بعض الفلسطينيين على حواجزها ، نوافذ . . . صالونات عالية تكشف عن مشهد جديد . . . مشهد رئيس الوزراء في منزل عتيق . . . على رأسه ثريا منطفئة .

***

حين عادا إلى الشقة بعناية فائقة فتحت آمال بيديها الرقيقتين أزرار قميصها ، وعرضت له نهدين أبيضين منتفضين ودافئين . . . مسهما مساً رقيقاً بيده . . . كانا مثل حمامتين مقدمتين للآلهة .

هل أحببتهما ؟

بلى .

نظرت إليه بعينين ينبعث منهما وميض غريب ، أهدابها السوداء الطويلة تركت ظلاً على خدها . مالت نحوه بوجهها الذي بدا عليه الحزن ، دون أن تذكر له شيئاً . . . وحين مد شفتيه نحوها تنشقها . . . تنشق رائحة الأرض القديمة التي خلفها وراءه وقد أحرقه الظمأ إليها ولم يقع من ريه إلا على سراب . . . تنشق رائحة فلسطين التي تركها صبياً دون أن يعود إليها وفي قلبه أسى صامت ومذيب ، وها هي اليوم بين يديه يتنشقها كما كان يتنشقها وهو طفل :

حديقة ثرية بروائح قطافها ، أرض مرشوشة وقد غرد الصيف على وجهها . بلدة رطبة مسح النهار على عيون أولادها الصغار . شارع مظلل مسح الله عن شفتيه نداوة الليل ، أنثى عارية في مطلق النهار . . .

لقد تنشقها إدوارد ذلك اليوم . . . تنشق لحمها الحي ، تنشق طراوتها . . . تنشق أورشليم وقد تسلت بأقدامها عصافير المطر . . . تنشق ذراعيها المنغمرتين طوالَ النّهار بالشمس . . .

ها هو إدوارد يتنشق رائحة الجسد الشبق والخصب والحي . . . شوق

مثل غضارة الموج يرتمي على ساحل ممدود بلا كفين ، شوق لا يتحقق أبداً ، وعاطفة تندفع في قلبه مثل اندفاع الماء في البئر ، وبعد كل هذا العمر يرتد قلبه محسوراً عن الطريق ، شيء لا يبدأ ولا ينتهي أبداً ، أمل لا يذهب ولا يعود ، رحلة لا تهدأ مطلقاً ، ولا تصل خط النهاية تماماً ، وفي تلك الساعة من النهار الهابط ينظر في الخط الممتد على جسدها مثل نقطة بيضاء على سماء رمادية ، مثل موج طفيف يترك غشاء فضّيّاً رقيقاً لا يجفّ ولا يتجدد ، لا يهدأ ولا يذوب . . . من بعيد ، ومن مكان ما ، من حي قديم ، من أرض لم تعد تحوي شجراً . . . كان إدوارد يسمع صوتاً بعيداً . . . صوتاً لا يرق ولا يعود .

– إدوارد هنا في أورشليم . . . لكن أورشليم غائبة عنه .

غائبة عنه وهو يجلس في فندق كي يطالع روحها البيضاء وجسارتها القرمزية ، جالس هناك وهو ينظر من شباك نافذته إلى مرتفعاتها ، جالس هناك يفكر كيف يجعل من تاريخ اسمها شيئاً سيكتبه بعد أن يموت . . . ينظر لها ولا يعرف كيف يبتسم ، يحبها ولا يخون تناقضه ، يكرهها ويشفق عليها ويراها ذابلة . . . طوال تاريخها وهي لها ملامح رهينة أو أسير .

سار إدوارد بغموض تام . . . تحت قدميه أرض رطبة . . . . أطال التحديق عبر الظلمة المبهمة في شجيرة مزهرة ، نظر إلى امرأة تظهر من مكان مجهول ، إلى نحلة تبعث طنيناً خفيضاً ثم تتنقل من مكان إلى مكان ، إلى تويج طري في الظل وهالة شفافة من الضوء ، نظر إلى الهضاب العالية ، إلى وديان القدس البعيدة ، نظر الصخور التي لفحتها الشمس ، إلى الأحجار الضخمة والأحراج ، تحسس الحافة الصغيرة عبر الطريق اللولبي . . . ثم انطلق في خان الزيت ، وهو يحمل بشارة أخرى . . . يحمل نوره الأبيض في الشرايين ، وهو يهتف للبائعات المحنيات على قصاع

الخضرة المرشوشة :

سلالكن مليئات هذا اليوم بالزيت والجبنة .

هل تردن مني برتقالاً أصفر . . . زيتوناً قديماً . . . تفاحاً أحمر . . . أنا الميت سآتي وأعطي كل لاجئة ياسمينة ، وأعطي المرأة التي طردوها من منزلها قطة ، وسأقول للعميان في الساحة ما أجملها القدس هذه الليلة . . .

- ٣ -

تخطيطات وأفكار ويوميات

انسكلوبيدية للكتابة

مخطط ، كاتلوغ سياحي للمدينة :

مخطط أو كاتلوغ أورشليم السياحي بين يدي . . . البلدة القديمة وما يحيطها . . . مواقع العمارات ، الفنادق ، المرافق ، أسماء المحلات ، الشوارع المؤدية إلى الضواحي ، وفي نهاية الكاتلوغ مجموعة من الصور السياحية الحديثة الملونة ، وعلى مقربة مني كانت الخارطة : الخطوط ، الإشارات ، الترقيم ، الدلائل ، وأشياء أخرى . نظرت إلى عمق الخارطة ، يصعب تحديد المسافات ، يصعب تخيل الأسماء ، استعنت بالصور ، ثم أسقطتها على المواقع المعينة في الخارطة ، كل صورة من الصور الموجودة بين يدي حاولت أن أضعها في الموقع الصحيح من المدينة ، وشيئاً فشيئاً شعرت وكأني أعيش فيها . . . لمستها وتنشقت رائحة أزقتها وأسواقها . . .

لكنها تتغير ، حقبة وراء حقبة ، عالم وراء عالم ، دون أن يتمكن العالم الجديد من أن يمحو العالم القديم مطلقاً ، دون أن تتمكن المرحلة التاريخية الجديدة من أن تنهي المرحلة التاريخية القديمة وتقضي عليها ، المدينة هي الطرس ، فكرة كتب عنها جيرار جينيت ، ووصف بها النص ، فالنص هو تراكم نصوص ، هو عبارة عن كتابات على طرس ، كتابات قديمة تخبو وتظهر كتابة جديدة عليه ، لكن الكتابة الجديدة لا تخفي الكتابة القديمة مطلقاً ، وهكذا فالنص هو مجموعة نصوص ، هو طرس

لكتابات بين ظهور وامحاء ، لم لا تكون المدينة أيضا طرساً ، لم لا تكون هي أيضاً كتابات بين ظهور وامحاء ، هكذا كنت أرى القدس ، هي مجموعة من أحداث تاريخية ، وحياة ، وبناء ، وعوالم يتراكم بعضها على بعض؟

القدس هي عالم شفاف يتراءى خلفه عالم آخر ، يظهر عالم محلوم وينطبق على عالم موجود ، مدينة . . . عالم مصنوع من أفكار وتخيلات وأوهام ، إنه عالم لا يعدو أن يكون متصوراً عقلياً في الذهن ، حيث تتم العودة الدائمة فيه إلى المتاهة ، أما الحياة فهي لغز كبير ، وموضوعها الرئيس هو الزمن ، ومع أن الزمن هو الآخر خرافة من خرافات الواقعي ، إلا أنه يخترق بسرعة خاطفة من قبل النهاية ، وعندما تقترب النهاية ، لا تبقى أية صورة في الذاكرة ، بل ثمة كلمات فقط ، فلا غريب إذن أن يخلط الزمن بين الكلمات التي كانت تمثل لي رموز مصير رافقني طوال قرون عديدة .

***

كانت كلماتي حقيقية ذلك اليوم ؛ فللمرة الأولى التي أشعر لا بالمدينة حسب إنما حتى بنبض حجارتها . . . أنظر في صورها وأحلم بالتجول فيها . . . بل أنا أتجول فيها ، أمشي في شوارعها ، أدخل بازاراتها ، أزور محلاتها ، وأتوقف عند أرصفتها . . . إنها ساحرة لا بالصور الملونة التي تكشف عن حاراتها العربية الرطبة . . . إنما بشيء خفي يسري في داخلي دون أن أعرف ما هو . . . أقرأ صورة المكان . . . خان الزيت مثلا . . . السوق ، باب العامود . . . ومن ثم أسجل ملاحظاتي عنها ، وكل هذا يجعلني أتنقل من مرحلة تاريخية إلى أخرى ، أما أكثر ما شدني ذلك اليوم هو مذكرات جوزيف دو برانغي الذي التقط صوراً لها في العام ١٨٤٤ في إطار جولته في بلدان حوض البحر المتوسط . . . وقد قال لي خبير التصوير

الفوتوغرافي بأن صوره من أندر وأقدم اللقطات للمدينة . وبعد ذلك أخذت أبحث بين الوثائق عن رحلة البريطاني الكسندر كيث الذي التقط ما يقارب الثلاثين صورة بأسلوب داغيروتيب ، وكان هدفه ، كما يقول ، دراسة الصلة بين ما ورد في الكتاب المقدس وجغرافية الأراضي المقدسة . . . وقد أرسلت لي زينب نصري كتابه «براهين على حقيقة الدين المسيحي» الذي طبع للمرة السادسة في لندن العام ١٨٤٨ ، وتضمن ثماني عشرة صورة ، وكنت سألتها أيضا عن صور كلود بوس ويلهاوس الذي التقط للقدس بعض الصور في العام ١٨٤٩ ، وذكرت لي زينب نصري أن صور ويلهاوس احترقت في حريق شب في العام ١٨٧٩ في لندن ، ولم يبق منها سوى نسخة واحدة تحتفظ بها الجمعية الملكية للتصوير في مدينة باث البريطانية ، أما الصور التي سأعتمدها في الكتابة فهي صور جيمس غراهام أول مصور مقيم في القدس ، فقد شغل منصب سكرتير جمعية بريطانية كانت تهدف إلى تنصير اليهود المقيمين في فلسطين ، وافتتح غراهام استديو في القدس في مطلع الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي ، والتقط العديد من الصور في كل من فلسطين وسورية . وفرحت جداً بهذه المعلومات حتى قلت لصديقي يمكن لهذا الرجل الذي رآه راشد حسين أن يحتوي على ثقافة مذهلة ، وسعة علم خارقة . لأني لم أكن أعتمد على الصور الحديثة حسب ، إنما كنت أجد ما يصلها مع الصور القديمة ، وقد سحرتني صورة العجوز التي التقطها ويلهاوس :

كان يمكن أن يكون هذا الرجل أعمى . . . خجولاً . . . ولكنه حكيم جداً .

أحياناً كنت أصل إلى صور للعرب بعد إعلان دولة إسرائيل ، وكنت أحاول أن أصل من خلال الكتابة إلى خط وهمي بين الصورة الحديثة والصور القديمة حتى من خلال الملابس ، وها هي صورة والي القدس أمامي

وأنا أقرأ ملابسه :

جلباب من الألوان الفاتحة والزاهية ومنها البرتقالي والأصفر وغيرهما ويعلوها حياصة (عباءة) دائماً ما تكون من اللون الأخضر بدرجاته القاتمة، ويغطيهما قفطان أزرق طويل يصل إلى القدمين في حين كان ينتعل حذاء أخضر اللون، ويمسك مسبحة في يده من اللون الأخضر، ولعله لون البركة والخير حيث يمكن من خلاله استجلاب محبة الرعية، كما كان أغلب الولاة يلتزمون بالإمساك بعصا خفيفة في اليد اليمنى.

***

كنت أقرأ اليوم وثائق عديدة من الولايات المتحدة، من روسيا، من مصر، من الهند، من بابل، من بغداد، من الصين. قصص كثيرة قادمة من الأدب الواقعي، من الأدب الفنطازي، من البوذية، من شعر الرعاة الأرجنتينيين، من الحب، من الذاكرة، من التاريخ، من التوراة، من ألف ليلة وليلة. لقد كتبوا عن أورشليم قصصاً وحكايات وأنواعاً أدبية ذات طابع خيالي وفنطازي ولاواقعي وميتافيزيقي. يمكن أن تكون أورشليم مثل بابل . . . أسطورة خيالية فنطازية، ليست مدينة، إنما لعبة مرايا متقابلة . . يمكن أن تكون يوتوبيا . . . مدينة وهمية . . . كتاب ألغاز مدهشة، كتاب أسفار خيالية، يمكن أن تكون وهماً ومصنوعة من متاهات ذاكرة عجيبة. كيف يمكنني الكتابة عنها؟ سأقضي كل حياتي أكتب عنها مقطعات سردية ساحرة. شيء لا يمكن تصنيفه . . . وحده الله يمكنه الكتابة عنها . . . أورشليم لم تكن سوى حديقة نباتات مختلفة، الله وحده يتقن تصنيفها وتبويبها ومعرفة مصادرها. من يريد أن يكتب عنها عليه أن يلم بثقافة عجيبة، وولع خاص بالموسوعات والكتب المتخصصة، وباللغات الكثيرة والمتنوعة، والأسماء المدهشة.

***

آمال اللاجئة

تأكدت العلاقة نسبة لي بين آمال اللاجئة الفلسطينية المقدسية التي طردت هي وأهلها للقاهرة وإدوارد سعيد ، قصص كثيرة وحكايات مدهشة عن البطلة ، وأنا أواصل البحث عن حياتها ونضالها . أواصل البحث في متاهات ، وأنصاف أسرار ، ونتف حكايات من هنا وهناك ، وفي كل مرة يتراءى لي عبر الليل ذلك الوجه ، وكأنه ينبثق من جوف كلمة . كلمة قديمة تقود كل أعمال البشر ، تقود الحياة على الأرض . من شدة معاناتها لم يعد لنظرتها الآن ذالك الحقد ، بل هناك حكمة كبيرة ، وجه رأى التاريخ كله من بدايته إلى نهايته ، وعبرت ببصرها سواد الليل لترى ما سيحدث في الجهة الأخرى من العالم ، لترى القرى العربية وهي تلتهب ، مزارع الفلسطينيين المخربة ، الأطفال الميتين برصاص الجنود اليهود ، الأفق العربي الذي تغطيه الأدخنة السود ، أصبح بصرها يخترق الليل البارد ، ويرى كل شيء يذوي . أن ترى فلسطين وقد قطنتها وجوه أخرى ، ومر سكانها من هناك ورحلوا كأنما شيء شبيه بالريح ، أو أشبه بالعاصفة ، أشبه بأوراق الأشجار التي مرت في شقوق الأرض ، واختفت بكدر في صمت الآبار العميقة .

***

صوت أمها الباكي ما زال في الظلمة ، صوت يبكي أيام الحرب دون أن يتوقف ، العبور الكبير من قرية إلى قرية ، الماء غير متاح لهم ، الطعام غير متاح أيضا ، دم يتدفق من آبار القرى البعيدة ، جيوش تتقدم ، أرض أورشليم باردة ، مليشيات قادمة من الشمال وجوهها صلبة كالحجارة ، عيونهم غائرة ، بشرتهم ساخنة كالنهار ، آخر سدنة لصهيون ، ناجون من حروب أوربا ، يقولون إن معركتهم لم تنته بعد ، وجاءوا ليقاتلوا الفلاحين هنا .

***

بن غوريون يشن المعركة ، الرجل الأكثر صمتاً في العالم ، يقول إنه حارس أرض السهوب ، اليهودي المطلع على الغيب ، والساهر على الهيكل ، وعلى الآبار ، والأشجار ، يريد اليوم أن يرصد الفلسطينيين العزل ليقتلهم .

***

سأراه . . . لا بد أن أراه من خلال إدوارد سعيد ، حين يعود هو الزمن ، الزمن موجود لكنه غير متعاقب ، والأحداث موجودة ولكنها ليست سببية ، والإطار لازم لسرد الوقائع الحكائية ، أما إدوارد سعيد فهو موجود وحاضر أبداً ، لكي يناور ويقترح ويغير ويؤول ويختفي ويؤمن ويضحك ويبكي . إنه بورخس الذي حلت في روحه روح هوميروس أيضاً .

***

مادرحوب بن يهودا . . مادرحوب بن يهودا . . . صوت يملأ آذاني هذا اليوم منذ الصباح وأنا أقرأ الإعلانات السياحية لبلدية أورشليم . . . شيء يملأ آذاني . . . لقد حرمني النوم . . . لقد جعلني أتجول هناك ، أتجول في الأحياء العربية وعلى مقربة منهم يصعد الصوت : مادرحوب بن يهودا . . . مادرحوب بن يهودا . . .

يمكن لإدوارد سعيد أن يتجول هناك ، يمكنه أن يرى ما أرى . . . هنا لا يستطيع أن ينام ولا أن يغيب عن الوعي ، سيكون ذهنه وهو يتجول في أورشليم مركز اليقظة ، هل هذه أورشليم التي نعرفها؟

كل شيء غيروه فيها ، كل شيء غيروه في هذه المدينة ، وهكذا لن يصبح هذا الجزء من العالم بعد ذلك مركز اهتمام الآلهة . هل كان فيما مضى كذلك؟

شيء أصبح بيد البشر ، تقرأ في الصحيفة :

جريمة جديدة في شارع كارل نطر . تجديف في يوم الشابات . تكالب

السياسيين على المال . سيطرة الحاخامات على القصور . فلسطينيون جائعون ومهانون ، كانوا سكان البلاد الأصليين ، هل يمكننا أن نرحلهم ، هل تؤمن بالترانسفير؟

عمارات إسمنتية ، هرج ، انحطاط ، سياسة كذابين ومرابين ، أحدهم يكذب ، آخر يسرق ، حياة رأسمالية دميمة ، هل هذه مدينة الله ، حنث وتجديف . قال أحد المتدينين القادمين من أفريقيا .

شر يتكرر كل يوم ، عقاب الله لا يحل بهم أبداً .

***

في رحلة بنجامين دو تول ، أي في عصر ملوك أورشليم الفرنسيين ، كان للمدينة ثلاثة أماكن مسورة ، وثلاثة أبواب يسميها بنجامين :

باب سومنوس آبرحي Somnus Abrahae

وباب داود ، وباب صهيون ، وباب يوشافاط . أما فيما يتعلق ، بالأماكن المسورة الثلاثة ، فإن أسماءها لا تتطابق أبداً مع ما نعرفه عن الأمكنة في أورشليم أوان احتلالها من قبل صلاح الدين . فقد عثر بنجامين على العديد من اليهود المقيمين في حي برج داود ، وكان لهم الامتياز المطلق في ممارسة صباغة البياضات والأصواف مقابل دفع مبلغ من المال إلى الملك كل عام . وبإمكان القراء الراغبين بعقد مقارنة بين أورشليم الحديثة وأورشليم القديمة ، الرجوع إلى دانفيل وإلى مقالته حول أورشليم القديمة ، وإلى رولاند ، وإلى الأب لامي وكتاب De Sancta Civitate et Templo

***

لقد عادت الحيوانات إلى الحديقة التي أسسها إهرون شولوف في العام ١٩٤٠ في شارع هراب كوك ، وطرد العرب من المدينة ، لم يعد أحد يحلم بالقرود والغزلان والطيور والأسود . .

حلم ، حدوث أشياء مستحيلة ، حدوث أشياء غير ممكنة خارج

السور، فيتحول كل شيء إلى مزيج من ذاكرة قوية ونسيان فعال . . . هذه المدينة العتيقة . . . احتمالات . . . توهمات . . . متاهات كثيرة، وغالباً ما تكمن المفاجأة فيما يحدث لاحقاً، أما الوضوح فهو كلي اللبس والإبهام، والمتاهة هي التي تقودنا بشكل جذاب إلى متاهة أخرى، وكل ما نتصوره عن العالم يتهدم ويتشوش، فهو يدفعنا على الدوام إلى تهديم معرفتنا المطمئنة والثابتة عن العالم .

***

عالم إدوارد سعيد حين يعود إلى أورشليم، عالم فسيح دون شك، صور مشوشة، صور متداخلة ومتراكبة، حيث نعجز مهما فعلنا عن التفريق بين ما هو حقيقي عن ما هو متخيل، كما نعجز عن إدراك-وسط هذا الكون المتداخل- الإحساس الواقعي بالزمن .

***

كنت أقرأ بحوثهم في التاريخ وهي تركز على مفاهيم من مثل «النقاء العرقي» و«التوحيد اللغوي» و«المجاميع النقية»، وتنفي ظلال التاريخ التي تحدث تحتها على الدوام اختلاط الأعراق وتداخل الهويات، وتحولات الجماعة، وكنت أتساءل هل يائيل هو من جنس إيستر؟

جماعات تخييلية « Imagined Community » دون شك، إنها أطر متوهمة ومصنوعة ومفبركة في لحظة تاريخية معينة، كما أنها تخضع للتحولات والتغيرات التاريخية بشكل مستمر، فهي في واقع الأمر مفتريات روائية Fiction ، وهي سرد Naration ، فكل أمة وهي تفقد جذورها في الزمان تعمد إلى استعادة أفقها المفقود، ولا يمكن لها استعادته إلا من خلال السرد والخيال، فتنتج ميكانيزماتها التأويلية هوية تنشد نحو ماض غائب ومفقود غير أنه مسرود ومصدق من قبل الجماعة، وعلينا أن ندرك بصورة ثابتة أن هذا السرد بموضع بصورة اعتباطية من خلال عملية

تأويلية ، وعملية قراءة وإساءة قراءة لسرديات الآخرين وقصصهم ، وهي محاولة لاستعادة أفق الماضي والتاريخ من خلال الخيال . . . وهكذا كنت أرى تاريخ إسرائيل داخل هذه الرواية .

***

سول بيلو . . .

بحثت عن كتابه هذا اليوم كثيراً . . .

قيل لي إنه كتب رحلة إلى إسرائيل .

بدأ روايته «مغامرات أوغي سميث» ، بجملة «أنا أميركي . مولود في شيكاغو» ، وقد قارنها هؤلاء بالجملة الشهيرة التي استهل بها ملفيل روايته العظيمة موبي ديك : «أدعى إسماعيل» ، والتي تعد من أشهر الجمل الاستهلالية في الأدب العالمي . كان علي أن أبدأ روايتي بجملة لإدوارد سعيد :

أنا إدوارد سعيد . . . فلسطيني مولود في القدس .

***

الحكايات الفلسطينية التي أجمعها هي تصورات لا نمطية على الدوام ، الشخصيات التي أصل إليها هي مزيج من صفات وأفعال وتصورات وأفكار .

أما القدس فهي مدينة غريبة حقاً ، أحداثها صعبة وقاسية ، أما حياتها فهي واضحة وبسيطة ومدركة ، ولكنها تندغم مع أحداث أخرى ، وتندمج مع قصص وحكايات أخرى حتى ندخل في متاهات .

المتاهات هي صفة المدينة ، كلما أتوغل قليلاً في الأحداث ، حتى أحصل على مزيج من أفكار ولغات واعتقادات ، أو أحصل على ألغاز وأحجيات ، ثم أقترب شيئاً فشيئاً من نكهات عصور عديدة وغريبة وسحيقة .

الماضي الأشد بروزاً يظهر لي من خلال فعل تذكر إدوارد سعيد ، غير أني أشعر أيضا بأني أدخل إلى متاهات جديدة ، وأقبية جديدة ، حتى أفقد أصل الحكاية ، ومن خلال صوت إدوارد سعيد أتنقل من منطقة غامضة إلى أخرى ، حيث يتم فيها التأمل ، والتوقف ، والعودة على أحداث أخرى ، أو تكرار أحداث ماضية .

كان علي التعامل هنا مع أقدم مدينة تاريخية في العالم ، بل هي من أقدم مدن الأرض ، المدينة التي هدمت وأعيد بناؤها أكثر من ١٨ مرة في التاريخ ، المدينة التي يزيد عمرها على ٤٥ قرناً ، المدينة التي تتنازعها جميع الديانات السماوية .

بدأت بتتبع تطورها منذ أن شيدت نواتها الأولى على تلال الظهور (الطور أو تل أوفل) ، المطلة على بلدة سلوان ، إلى الجنوب الشرقي من المسجد الأقصى ، لكن هذه النواة تغيرت بطبيعة الأمر مع الزمن ، وحلت محلها نواة رئيسية تقوم على تلال أخرى ، مثل مرتفع بيت الزيتون (بزيتا) ، في الشمال الشرقي للمدينة بين باب الساهرة وباب حطة ، ومرتفع ساحة الحرم مدريا في الشرق ، ومرتفع صهيون في الجنوب الغربي ، وهي المرتفعات التي تقع داخل السور فيما يُعرف اليوم بالقدس القديمة .

ولكن من أين أختار اسمها وهي لها أسماء كثيرة : يبوس ، أورشليم ، إيليا كابتولينا ، ايليا ، بيت المقدس ، القدس . سأختار أورشليم . . . الاسم الفينيقي القديم . . .

***

سار إدوارد سعيد لمدة ساعة على أرض غير مستوية ، ووصل إلى عدد من الأكواخ الواقعة على ربوة محصبة ، وبعد أن اجتاز أحد نتوءات السهل ، وبعد مسافة من المسير ، وصل إلى عدد من التعرجات الأولى من (جبال جودي) ، ثم انعطف عبر واد وعر حول تل معزول وقاحل ، ومن

على قمة هذه الربوة تبين قرية مهدمة وأحجاراً مبعثرة لمقبرة مهجورة ، وكانت هذه القرية تحمل اسم (لاطرون) du Latrron وهي موطن المجرم الذي تاب على الصليب ، والتي جعلت من المسيح يقوم بفعل الاسترحام الأخير ، وبعد ثلاثة أميال دخل الجبال ، كان يسلك مجرى لسيل جف ، وكان القمر الذي تضاءل إلى النصف بالكاد يضيء خطواته داخل هذه الأعماق ، وكان يسمع من حوله الخنازير البرية وهي تصدر صراخاً وحشياً إلى حد غريب ، وأدرك عند رؤيته للحزن البادي على هذه الأطراف ، كيف أرادت (ابنة يفتاح)Jephte البكاء على جبل جودي ، ولماذا كان الرسل يذهبون للنواح فوق المرتفعات ، وعند الصباح وجد نفسه وسط دهليز من الجبال ذات أشكال مخروطية يتشابه بعضها مع بعض ، ومتصلة الواحدة بالأخرى عند القاعدة ، وكانت الطبقة الصخرية التي تشكل قاع هذه الجبال تثقب الأرض ، فكانت أشرطتها أو منحدراتها المتوازية مصفوفة مثل مدرجات مسرح روماني .

***

في الثامن من شهر آب ١٨٥٠ ، وصلت القدس بعثة فرنسية تضم المصور ماكسيم دو كامب يرافقه الكاتب غوستاف فلوبير ، والتقط المصور اثنتي عشرة صورة لمدينة القدس ، وقد نشرت الصور في كتاب خاص في باريس سنة ١٨٥٢ ، وقد حصلت على الكتاب والصور أيضاً .

***

قصة إيستر ويائيل هي ذاكرة تستعاد من خلال الروايات الإسرائيلية ، من خلال عمليات مرممة بوساطة القصص والحكايات والأساطير والفانطازيا ، وهي قادمة من ماض متخيّل ، أو متوهم على نحو مرمم ، أو من مكان لا يمكن تأكيده على الإطلاق ، وهي مصنوعة من عمليات متداخلة بشكل عصي على التفكك ، ولكن لا يمكن التأكد من حقيقتها تماماً ،

وكل من هذه الشخصيات كان يستعين بالتاريخ ، ولكنهم يدركون شيئاً فشيئاً أن التاريخ ليس عملية قديمة ومن الماضي حسب ، إنما لا وجود له على الإطلاق ، شيء لم يعد موجوداً على الأقل ، فكيف يتم استعادته؟

وهذا ما أدركته إيستر فتمردت .

***

- أورشليم . . . قلت لهم .

هي الميتافيزيقيا . . . حيث الواقعي يتهدم والخيالي يدوم .

***

اليوم ترجمت النص التالي من الألمانية :

كان هناك في مدينة القدس شخص مغربي يرسل بين كتفيه ذؤابة تصل إلى منتصف الجسد ، يستبدل الذؤابة أحياناً بالطيلسان ، ويلبس فوقه عباءة متسعة الأكمام مفتوحة فوق الكتفين . .

يعتقد الناس أنه من نسل النبي .

***

لأن إسرائيل نشأت من أسطورة أدبية . . . من فكرة رومانتيكية . . . نشأت من رواية . . . وبالتالي يجب إعادة كتابتها عن طريق الأدب أيضا . . . يجب تكذيبها عن طريق الرواية . . . الرواية هي أفضل حرب . . . طالما كل الحروب قد خسرت وفشلت لماذا لا نجرب الرواية . . . إدوارد سعيد كان أخطر حرب على إسرائيل ، أخطر من كل الحروب الفاشلة التي خضناها . . .

إن أفضل ما أفعله هو إعادة سرد الأساطير لتكذيبها . . . لتدميرها . . . لكشف خداعها . . . لكشف زيفها . . .

***

كيف أكتب روايتي عن إدوارد سعيد ويائيل وإيستر . . .

شخصيات خيالية . . . شخصيات واقعية تذوب وتتلاشى وتختفي ، وهكذا تصبح أورشليم أهم بكثير من صانعها .

الجاذبية الطاغية ، الحنين إلى حياة سابقة ، إنها مجموع الحيوات التي اندمجت في الزمن ، وحلت أرواح متعددة فيها ، أزمان نسيناها على مر العصور .

أورشليم الغارقة بالغموض والإبهام ، غير أن النص هو الذي يفكها ، النص الذي يؤول لمرات عديدة ، وبمدلولات جمالية وفكرية ، النص الذي يحمل هذه الكونية المدهشة ، من السابق ، من الحياة الماضية ، من اللحظات التي مرت ورشحت ، من الأفكار القديمة ، من النصوص ، إنه الزمن القديم ، إنه الله الذي يواجه الفظاعات بالخيال الذي يمنحنا . . . فيصبح التاريخ عبارة عن انتقالات دورية تعيد نفسها .

***

كنت أقرأ عن دخول نابليون إلى مصر ، وفي تلك الفترة شهدت فلسطين تدفق مئات الرسامين وعلماء الآثار والعلوم الإنسانية والمصورين ، إضافة إلى العسكريين والسياسيين الذي تخفى بعضهم تحت ستار «البعثات العلمية» ، وقد شجع هذا الجو قيام المؤسسات الاستشراقية في المعاهد والجامعات الأوروبية ثم الأمريكية .

ولم يقتصر التنافس الغربي على الحقول «العلمية والدينية» فحسب بل تحول تدريجياً إلى احتلال عسكري ، فقد احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس ١٨٨١ ، والمغرب ١٩٠٧ ، ناهيك بنزولهم العسكري في لبنان سنة ١٨٦٠ ، أما البريطانيون فقد احتلوا بدورهم قبرص سنة ١٨٣٠ ، ومصر ١٨٨٢ ومن ثم عدن وساحل حضرموت ثم شيدوا قناة السويس سنة ١٨٦٩ .

***

كتبت لي زينب نصري اليوم :

إن أبرز المصورين البريطانيين على الإطلاق في تلك الفترة هو فرنسيس فريث الذي قام بثلاث رحلات إلى مصر وسورية خلال الأعوام (١٨٥٩-١٨٦٠) وأصدر مجموعة من الكتب المصورة عن رحلاته هذه لاقت رواجاً كبيراً لدى الجمهور الفيكتوري في بريطانيا .

تضمنت كتب فريث المصورة شرحاً مفصلاً للأماكن التي زارها ، وكان النص الذي كتبه مشبعاً بالروح الاستعلائية الشوفينية أسوة بالنصوص التي كتبها قبله الرسام دايفيد روبرتس ، والواقع أن النظرة البريطانية الرسمية كانت مشابهة لنظرة فريث ، وقد عبر عنها بوضوح السياسيون البريطانيون أمثال ملنر وكيرزن .

***

انتقالات وتحولات وتغيرات شديدة في حكايات هذه المدينة وقصصها المتعددة والمتنوعة ، الزمن هو جزء منها وليس هو محركها ، وتعاقبها خادع وغريب ولا سببي بالمرة ، أما الموت فهو جزء من الحياة ذاتها ، أما الحياة فإنها تتضمن الموت في كل لحظة ، إنه ديالكتيك ميتافيزيقي يكرر نفسه بشكل أبدي ، يكرر نفسه في الحاضر كما أنه قادم من ديمومة وقائع الماضي وحضوره الفعال .

***

سأل المكتبي الذي يرتدي نظارات سوداء : «ماذا تبحث؟» .

أجاب هلادك : « أبحث عن الإله» .

قال المكتبي :

«الإله موجود في حرف موجود على صفحة من صفحات إحدى الأربعمائة ألف من مجلدات كليمونتين . آبائي وآباء آبائي بحثوا عن هذا الحرف ؛ وأنا أصبت بالعمى من كثرة بحثي عنه» .

من المعجزة السرية

(from 'The Secret Miracle')

***

نساء فلسطينيات في الصور التي التقطها الغربيون ، إنهن موضوعات جنسية تقريباً ، شيء يصل بصورة مباشرة إلى الإثارة ، امرأة تحمل الإبريق وصدرها مكشوف وعار ، ومكتوب عنها امرأة من حيفا ، أو امرأة من القدس ، عيونهم تنتهك مداخل البيوت ، وكانوا يسترقون النظر بطبيعة الأمر إلى النساء المستلقيات على المصاطب أو المستحمّات على ضفاف الأنهار ، كما كانوا يتهمون الثقافة هناك بأنها منحطّة ومتفسّخة . كما نجد لدى هؤلاء الكتّاب شعوراً بالعداء تجاه البيوت المغلقة والمدن المغلقة والنساء المحجَّبات اللواتي كنَّ يصددنهم ، ذلك أنّ النساء خلف النوافذ الحديدية والعيون خلف الحجاب لم تكن ، بالطبع ، عاجزة عن الرؤية .

***

اليوم قرأت مذكرات الأسقف البرت إسحق ، والأسقف جورج بردجيز ، وكانا قد التقطا صوراً عديدة للقدس ويافا ومدن الساحل ، وكذلك المصور بيتر بيرغهايم الذين شملت جولاته فلسطين ودمشق وبعلبك .

***

علي الكتابة عن قناة السويس .

بدأت جولات فريث مع بدء مشروع حفر قناة السويس الذي دفع البريطانيين إلى الإسراع في تركيز اهتمامهم على القاهرة بدلاً من استنبول .

القدس تدخل مرحلة تغيير جذرية .

***

كتب ماسنيون بأن ملكية الحائط الغربي تعود إلى المسلمين ، ولهم وحدهم يعود الملك الذي يشكل مع النطاق أو المكان المسور كلاً لا ينقسم ، إذ إن هناك السور هو ملك وقف . ويعود إلى المسلمين كذلك الطريق الذي يحف بالجدار والمدينة المسماة (حي المغاربة) الذي يقع قبالة الحائط المذكور . إن هذا الطريق هو في الواقع ملك وقف ، أقيم طبقاً إلى قواعد القانون الإسلامي ، لهدف الخير والإحسان . إن إيداع اليهود لأدوات العبادة أو الحاجات الأخرى ، بموجب التسوية الحالية ، أو بموجب الاتفاقات التي حصلت بين الأطراف ، ليس له ولا يمكن أن يكون له قصد خلف حق ملكية لصالح اليهود على الحائط أو الطريق المحاذي له . ومن جانب المسلمين ، فإنه لن يكون بإمكانهم إقامة أو تشييد أو هدم أو استغلال أي من الأبنية المعتمدة على الوقف (سور أو صحن المكان المقدس أو مدينة المغاربة) القرية من الحائط ، عندما يكون القصد من هذه الأعمال تجاوز الطريق أو حرمان اليهود من الذهاب إلى الحائط للبكاء ، أو إعاقة زياراتهم الدورية ، وهو ما ينبغي تجنبه بكل الوسائل الممكنة .

***

قال لي :

إن يهودية سول بيلو جزء من هويته الأدبية وليس هويته الدينية فقط .

وكنت أقرأ في الموسوعة :

بيلو يهودي روسي ، نشأ متديناً ، تعلم العبرية قبل أن يهاجر والداه إلى شيكاغو في الولايات المتحدة وهو بعد في التاسعة ، تعلم اليديشية أيضاً ، وهي لغة يهود شرقي أوروبا وبقي يتقنها حتى وفاته ، ومن خلال معرفته بهذه اللغة البائدة ترجم أعمالاً لإسحق باشيفيز سنغر ، الكاتب الأميركي ذي الأصل البولندي الحائز على نوبل ، ومن بين أبرز الأعمال التي ترجمها بيلو لسينغر قصة «جيمبل الأحمق» ، التي حملت عنوان

أشهر مجموعة قصصية كتبها الأخير .

كنت أفكر ببيير لوتي وقد كتب هذا المقطع عن اليهود في زيارته للقدس في القرن التاسع عشر ، وهو يعبر عن عنصرية الغرب ولاساميتهم ، كان يقول ذلك في الوقت الذي عاش فيه اليهود في المنطقة العربية سالمين آمنين :

انتابني وأنا ألج مركز الشؤون اليهودية شعور بالذهول وعدم الارتياح ، أقرب ما يكون إلى الخوف ، فأنا لم أر في أي مكان آخر ما يشبه هذه المغالاة ، لا نموذج تجار الملابس والأسمال ، ولا بائعي جلود الأرانب الشيوخ لدينا ، ولم أر أنوفاً مدببة مثل هذه الأنوف الطويلة ، والشاحبة إلى هذا الحد ، ففي كل مرة كانت تصدمني المفاجأة والتقزز حين تستدير إحدى هذه الظهور الشائخة المحدبة تحت المخمل والفراء نصف استدارة ، فأرى زوجاً جديداً من العيون يصوب جانباً نحوي بشكل خاطف بين الخصلات المجعدة المتدلية ، ومن تحت زجاج النظارات ، حقا إن صلبهم للمسيح قد ترك أثراً لا يمحي ، ولعله ينبغي أن تأتي هنا وترى بعينك لتقتنع وبشكل قاطع ، بيد أن الشيء الذي لا جدال فيه هو أن هناك علامة خاصة مكتوبة على هذه الجباه ووصمة عار دمغت هذا العرق كله .

كانوا يرددون سوية ، وكانت ثمة أصوات ترتعش على وتيرة أجسادهم المترنحة السريعة ، وهم يقرأون مراثي إرميا ، جالسين مقابل المعبد لصق الحطام الأخير لرائعتهم الماضية .

***

هكذا كان يمكن للرواية أن تبدأ . . .

تبدأ بتكذيب حياة إدوارد سعيد ، ومن ثم تخلق له سيرة ذاتية جديدة ،ابتداء من لقاء في لندن بينه وبين الساحر ماريبو وهو أحد شخصيات قصائد إلويزيوس برترون ، والذي يحمل إدوارد سعيد على

مكنسته إلى القاهرة ، حيث يتعرف إدوارد سعيد على نفسه في روايات نجيب محفوظ ، بل يصبح نجيب محفوظ هو ذاته أحد شخصيات روايات حميده الأثيرة لديه ، أما اللاعب الأكبر في الأحداث فهو المكان ، من القاهرة الفاطمية إلى القاهرة عبد الناصر ، حيث تسير الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية على مشهد ساخر تقوم به شخصية خواكين بونوم ، التي تقفز من مسرحية تعرض على مسارح القاهرة إلى أحداث الرواية ، وبنهاية فصل القاهرة ينتقل إدوارد سعيد إلى بيروت حيث يشهد أهوال الحرب الأهلية في صبرا وشاتيلا على وقع رؤيا الجحيم في دانتي ، ويقوم الشاعر الفلسطيني راشد حسين مقام فرجيل ليريه بوابات الجحيم وطبقاته ، ومن ثم الانتقال إلى القدس عن طريق تكذيب روايات إليا شاحور وأحداث روايات عاموس عوز ، ومشاهد القدس كما تقدمها وكالات السياحة الغربية في المطاعم والفنادق والأماكن المقدسة ، وأخيرا ينتقل إدوارد سعيد إلى بغداد ويقيم مناظرة جديدة مع كنعان مكية وفؤاد عجمي على أهوال الحرب الأخيرة ، ويتم التنقل بين بغداد العباسية وبغداد اليوم مستعيدا صراع الحرب الأهلية في زمن الأمين والمأمون ، وفي النهاية يرحل إدوارد سعيد في رحلة ملحمية وأسطورية عبر الصحراء ، مثل مشهد الحج ترافقه قوافل من الزنوج والفلسطينيين والهنود الحمر والفقراء والمهمشين والمعذبين والموسيقيين والمنفيين والمشردين والمثقفين المطرودين من شعراء وكتاب ومفكرين من جميع أنحاء العالم ، حتى يتلاشى في مشهد إيروتيكي مع جسد آمال ، الفتاة اللاجئة الفلسطينية التي أحبها إدوارد سعيد أيام مراهقته في القاهرة .

وكان يمكن بالتأكيد أن أكتب هذا الفصل بالطريقة التالية المختصرة :

بإمكان أي غربي . . مهما كان فقيراً ، أو بائساً ، أو فاقداً للموهبة ، أو عظيماً ، أو دبلوماسياً ، أو حاجاً ، أو تاجراً ، أو جندياً ، بمجرد أن يقرأ كتاب

جون بودان خواطر السحرة المجنونة أن يتحول إلى ماريبو الساحر، الذي يضع عصا المكنسة الإنكليزية بين ساقيه ويطير محلقاً من لندن إلى القاهرة. .أي شخص في القرن الماضي، سواء أكان عاملاً في مصانع لندن، أو سكيراً في حانات باريس، أو شحاذاً في شوارع أمستردام، أو صاحب صولجان، أو شاعراً، أو كاتب إمبراطورية وراء البحار، أو عالماً، أو جنرالاً، بمجرد أن يدهن نفسه بزيت السمك، ويتمتم بضع كلمات حتى يتحول إلى محفل السحرة في القاهرة أو دمشق أو بغداد، عندها سيكون من السهل عليه أن يجلس هناك ليشرب مع الباشوات والفلاسفة والعاهرات والسحرة الشرقيين جعة الجنة، ويتناول حساء جن سليمان بساعد ميت موضوع في الطنجرة مثل ملعقة، ويستمع إلى الهدهد الذي يقف فوق المجامر الحمر ليخبر سليمان عن الشرق الذي تنبعث منه رائحة الأضرحة، وهناك على الدكة القدسية من منزل الساحر ماريبو في لندن يجلس سياح وحجاج وتجار وجنود ورحالة ودبلوماسيون غربيون ينصتون إلى نواح كمان مفكك، ينشج على ضوء شموع نحيفة مثل أصابع عذراء يهتز لهبها على الطاولة، وهناك إناء من الماء يضطرب ويرتجف، وكتاب طلاسم مفتوح على صفحة محبَرة بأرقام وحروف سحرية، ومن المدخنة التي اسودت نهايتها يصعد السحرة الأقزام بألوانهم المتوهجة على المكانس ويتجهون نحو القاهرة، ليعيشوا هناك التقليعة المرمنسة للباشوات العاشقين، أو لجون بل، أو لكريتشن العاطفي، ومغامراتهم البراقة الملونة مع قطاع الطرق والإنكشارية البشعة.

***

عقب اتفاق أوسلو مباشرة، في اليوم الثاني أو الثالث من توقيع عرفات عليه، دخل ماريبو الساحر الذي كان يطوف تلك الأيام في سماء نيويورك إلى شقة إدوارد سعيد، على الرغم من الضجة المنبعثة من ملاهي

منهاتن المضاءة والصاخبة ، على الرغم من صراخ موسيقى الهارد روك العالية ، على الرغم من صخب الطائرات التي تقلع وتحط في المطارات ، على الرغم من هدير التوربينات في معامل السيارات الضخمة ، على الرغم من صفارات سيارات الشرطة التي تلاحق المجرمين ، على الرغم من القتال الطاحن بين العصابات والحشاشين من زقاق إلى زقاق في حي هارلم ، على الرغم من حشد الناس الفظيعين من مقامرين بيض ، ومرتزقة يرتدون ملابس كاكية ، وقطاع طرق زنوج ، وباعة حشيشة ، وسوقة مسلحين قابعين في الزوايا المظلمة من عالم نيويورك الصاخب ، إلا أن ماريبو الساحر أصغى إلى صوت نواح بيانو حزين يحمل في نبرته بكاء ملايين من المشردين والمعذبين والمنفيين واللاجئين يتصاعد في آخرة الليل من منزل إدوارد سعيد .

هناك . . . هبط ماريبو بهدوء وتمهل شديدين . . توقف . . وضع مكنسته على كتفه ، ودخل خلسة من النافذة دون أن يحدث ضجة مطلقا ، كانت الصالة فخمة ، وكان أثاثها فاخرا ، وقد شكلت المكتبة معظمها ، أما الجهة الأخرى ، والتي ينبعث منها صوت البيانو ، فقد كانت مشغولة بآلات موسيقية ، وبعض التماثيل الصغيرة المتناثرة هنا وهناك ، ومن النافذة المفتوحة على مصراعيها على الليل الساجي ، فقد كان اللحن يتسلل من هناك متموجا مثل لحية بيضاء ممشطة .

في الواقع إن ما جذب ماريبو عند دخوله المنزل في تلك اللحظة هو مظهر إدوارد سعيد ، ذلك العازف الساحر بشحوبه وأناقته وقد حافظ على مظهر أرستقراطي خجول ذي طابع متوحش ، أما ملابسه فقد كانت في غاية الأناقة ، وقد انبعث منه عطر راق يتجول بخفة مع الألحان العذبة في فضاء الصالة .

جلس ماريبو هناك ، أخرج غليونه المصنوع من خشب الأبنوس والعاج

من جيبه ، وهو أثمن ما يملك ، وأخذ يعبئه بإبهامه العريض من علبة تبغ أصلية كانت تضوع منها رائحة تخمر لاذعة ، وقد كانت موضوعة قرب منفضة مرمرية على طاولة من الصاج الفاخر ، وما إن أشعل غليونه بقداحة أخرجها من جيبه ، وأخذ الدخان الأزرق يتصاعد ببطء في الفضاء ، حتى أنهى إدوارد سعيد عزف مقطوعة صغيرة لفاغنر جلبها له هذا الصباح صديقه قائد الأوركسترا اليهودي دانييل بارينباوم :

نهض من مكانه برشاقة وخفة كبيرتين ، وجلس على كرسي مصنوع من خشب الزان ومنجد بالجلد الأحمر الثمين ، وأخذ يقلب أمامه مجموعة من المجلدات الفرنسية والإنكليزية المذهبة كعوبها بأناقة فاخرة .

نهض ماريبو من مكانه ، بعد أن وضع مكنسته بهدوء على كرسي قريب من الزاوية المشغولة بتمثال نصفي لغرامشي ، وخطا خطوات قليلة وهو يعدل قبعته السوداء المثقوبة ، ويتحسس بأصابعه ياقة قميصه الأبيض العتيق ، والتي انفرشت وأصبحت عريضة مثل ورقة فجل ، أخرج مونوكوله القديم من جيب جاكتته ووضعه على عينه اليسرى ، وقدم عنقه ليتمكن من قراءة بعض عناوين الكتب التي كان يقلبها إدوارد سعيد ، والحق لم يتمكن من إدراك عناوينها كلها ، ومن ثم كانت متنوعة جداً ، ولكن ما لفت نظره في تلك اللحظة هو بعض العناوين التي تتحدث عن الشرق ، ولاسيما كتب الرحلات ، ومذكرات الأدباء والحجاج والدبلوماسيين الذين زاروا الشرق في القرنين الماضيين ، وهذا في واقع الأمر ما أثار فضوله ، لسببين ، أولاً : لأنه يعرف أن إدوارد سعيد غربي قادم من الشرق .

ثانياً : لأنه هو ذاته مخلوق غربي من أثر شرقي هو ألف ليلة وليلة ، فتساءل في نفسه :

« هل يمكن لهذه المؤلفات أن تفك غموض الشرق وإبهامه وعاداته وعقلياته . . » .

إنها مذكرات رحالة ، وأوراق جنود جاءوا إلى الشرق ، ويوميات حجاج اتبعوا مسار جوان في الحج إلى الأراضي المقدسة ، ورسائل تجار هولنديين كتبوا عن البحر المتوسط وعاداته ، وتقارير دبلوماسيين خدموا في ظل الإمبراطورية العثمانية ، ولكن الصورة التي تبرق بين عيني ماريبو في تلك اللحظة ، هي صورة الفارسي الذي تخيله مونتسيكيو ، وملابس صفية التي تخيلها كريون Créon ، وحياة السراي التي انغمس في حسيتها دوشامب ، وربما تمنى أن يصبح حاجي بابا كما وصفه مونتريون ، أو على الأقل أن يرقص رقصة على خان التي رقصها قبله مسترودولاتور ، رفع إدوارد سعيد رأسه بهدوء ، وفي اللحظة ذاتها تعرف على ماريبو ، ذلك لأنه قرأ كتاب جون بودان خواطر السحر المجنونة أكثر من مرة ، وكان يدرك أن هذا الرأس هو الآخر يعج بالصور الشرقية : غموض الأبراج العباسية ، رعب الكائنات الخرافية ، صور الأقزام والجنيات والأرواح الشريرة في ألف ليلة وليلة ، صور الجنود الأتراك والمغامرين العرب ، صور قطاع الطرق ، وصور المشانق والمنتحرين وصرخات التعذيب والرؤوس التي تتهاوى على المقصلة .

هل كان ماريبو مجنوناً . . . ضحك إدوارد سعيد . . فابتسم ماريبو الساحر ورأى أن إدوارد سعيد طالما جاء من هناك من الأرض الغرائبية ، فلا بد أنه يشبه أبطال الروايات الفنطازية وغرباء القصص الخارقة ، وأنه لا يمكن أن يكون إلا بطلاً عجائبياً ، وأن حظه قلما ينجو من السخرية ، وقد رأى أحدهما بالآخر أن كلاهما منفي ، وكلاهما بلا وطن ، وكلاهما يملك خيالاً ، وكلاهما منجذب للفن بقوة أيضاً ، وكلاهما كان يطمح إلى خيمياء تمزج الشرق بالغرب ، وتحتفي بالروح المتنوعة والمختلفة والمتعددة ، وقد كان إدوارد سعيد لاجئاً ولكنه لم يعان قط مصير أي لاجئ تعيس ، إنه فلسطيني في أميركا ، وأميركي في فلسطين ، ومسيحي بين المسلمين ،

وعربي بين الأميركيين ، وكان طفلاً أمريكياً باسم عربي واضح ، وكان يرتدي ملابس مدرسة بريطانية في مدرسة أمريكية ، وكان انجلوفونياً في مجتمع فرانكوفوني ، لقد كان ببساطة فلسطينياً وأمريكياً وعربياً ومسيحياً وهو عالم بأكمله ، وكان ماريبو القادم من بغداد ألف ليلة وليلة صنعه خيال إنكليزي من أم هندية وأب بغدادي ، ولكنه إنكليزي على نحو لا يضارع ، إذن هو غربي وشرقي وساحر ويبحث عن عالم يمتزج فيه بشكل حميمي الواقع واللاواقع ، الصحوة والنوم ، الحقيقة والخيال ، وإن كان مظهره على خلاف سعيد بائساً ، ومعطفه رثاً ، وقبعته العالية مثقوبة ، وهيئته ماكرة ، إلا أنه عن طريق الفن يمكنه أن يمسك رافدة الصليب الوردي ، والتي تتوهج لا في الكتب حسب ، إنما في الحياة أيضاً .

جلس كل واحد منهما أمام الآخر ، وابتسم أحدهما للآخر ، فقد كان كلاهما منجذباً إلى تحولات الثقافات وتنوعاتها لا باقتراض كل ثقافة من الثقافات الأخرى ، إنما ما تقوم به كل ثقافة بقرض الثقافات الأخرى ، قال إدوارد :

«ابن الرشد . .» تحول على لسان ماريبو إلى أفيروس مباشرة .

قال إدوارد :

«ابن سينا . .» تحول على لسان ماريبو إلى أفيسين مباشرة .

قال ماريبو :

«أفمباس . .» تحول على لسان إدوارد إلى ابن باجة .

وتوالت الأصوات : الفارابي إلى فرابيوس ، مثلما تحول أوغستينوس إلى أوغصطين وأرستوتاليس إلى أرسطو ومحمد إلى مهاموت .

صفق ماريبو بيده وقال :

« هاك شوف . .كل ثقافة تقترض من الثقافة الأخرى وتحرفها تهجرها وتهاجر إليها . .» .

رقص ماريبو على البلاط المرمري الأملس في شقة إدوارد سعيد برونكوته الأسود العتيق ، ورمى قبعته الطويلة إلى الأعلى ، وانفجر إدوارد من الضحك ، وبدأ كل واحد منهما يباري الآخر باللغات التي يعرفها :

فماريبو يعرف الهيروغليفية ، والفرعونية ، والآشورية ، والفرنسية ، والإنكليزية ، والألمانية ، والهوهوية ، والكوكوية ، والبنانوية ، والسوسوية . . وكل اللغات الساخنة والغامضة والسحرية التي حلم بها توني مور في القرن الثامن عشر في لندن الرمادية والمضببة والباردة ، وكان يستخدم الإنكليزية مثل مبضع الجراح لتشريح اللغات الأخرى ، غير أن إدوارد الذي يفكر بالعربية كما تعلمها في شوارع القدس والقاهرة ، كان يكتب بالإنكليزية ، يحرفها ويتلاعب بها ويشتق منها عبارات غريبة متنوعة بصورة مدهشة ، كما كان يتكلم الفرنسية والألمانية والإيطالية كما تعلمها في كلية فكتوريا في القاهرة ، وإن كان إدوارد مثل ماريبو يعرف لغات عديدة ، غير أنه كان حزيناً على نحو عكسي يشعر بكآبة من نوع خاص ، فالعربية التي يفكر بها ، والإنكليزية التي يكتب بها ، تتخذان في وجدانه توتراً مستمراً ، كان يشعر بأن التكلم بلغة أخرى هو موت بالدين ، إنه يحصل على مصيرين ، وحياة شطرتها الآلام بواسطة اللغة إلى استحقاقين ، وأكثر من أبطال روايات كونراد الأثيرة لديه كان يعيش هذا التمزق بين قارتين من المشاعر والأحاسيس والأفكار ، بين عالمين متصارعين ومتعاديين بضراوة ، ويحاول أن يصنع داخل النص المكتوب نوعاً من التصالح بينهما .

طلب ماريبو من سعيد أن يتحدث له عن الشرق ، فضحك سعيد ، هز رأسه بسخرية وقال له :

« أن تتحدث عن الشرق دون أن ترى الشرق هو كما لو أنك تصنع حساء الحمل دون أن يكون لديك حمل . . . » .

تفاجأ ماريبو من جواب سعيد الحاد والساخر ، فهو يعرف أن كل القاطنين في أوربا وأميركا قد شاهدوا الشرق وتعلموه وناموا فيه وحلموا به وضاجعوه آلاف المرات في الكتب .

أما الذين ذهبوا هناك حقاً وحقيقية فلم يعيشوا سوى الحر اللاهب ، لقد عانوا من العقارب السامة والأفاعي المتلوية التي تسكن الآثار ، وكانوا عرضة لهجوم آلاف البراغيث السود التي تتعقبهم والكلاب الجائعة التي تتكفل بمطاردتهم ، والشحاذين ذوي العاهات الذين يولولون وراءهم ، والسراق ذوي الشعور المشعثة والأسنان المكسورة الذين يطاردونهم ، والباعة البشعون الذين يطلبون بقشيشاً عالياً ، وهنالك أيضاً عداوات الناس وكراهيتهم وتعصبهم وعدم تسامحهم ، أما نبع الحكمة الخفي ، وظل الضجة العذبة التي تحدثها القوافل وهي تسير تحت الشمس وقد خدرها الاهتزاز على الرمل الذهبي ، فهو غير موجود إلا في كتب الرحالة بطبيعة الأمر .

صرخ ماريبو :

«إنهم أنبياء حقيقيون ذهبوا هناك . .إلى الشرق . . . ليجهشوا في ظلال الأرز في جبال لبنان ، أو عند المذبح في أورشليم ، وقد عادوا للفقراء الساكنين في لندن وباريس ومن هو لا يملك المال للذهاب إلى الشرق بالخيال اللاهب . .» .

طبعاً . . طبعاً . . إن أي غربي جالس في منزله يمكنه أن يعيش رنين الإمبراطوريات العظيمة التي كانت جيوشها تطبق على الأرض ، يمكنه أن يعيش في الشرق المحلوم الذي لا يترجل من قوافله وبخوره ونسائه وحماماته وبذلاته اللماعة وتبغه الممزوج بالعسل ، ويشرب ماءه العذب الممزوج بالخمور . . . إن كل أولئك القراء الذين يعيشون في الغرب ، والذين يختبئون بشققهم من البرد والثلوج التي تغطي الطرقات في

الشتاءات القارسة ، والذين لا يملكون المال للرحلة إلى الشرق ، كانوا يتمتعون بشمس ساخنة تنبعث من الورق ، كانوا يعيشون مغامرات عظيمة في السرايات ومع الحريم الجميلات اللواتي لهن أجساد مثل الفراء ، كانوا يعيشون في قراءة الرحلات ضياع المسافرين وسط آلاف من الجمال والخيول ، كانوا يتمددون مع رتشارد برتن تحت شجرة تين أو شجرة جميز ، كانوا يزورون الشيوخ العرب المدججين بالخناجر ، وينامون مع نساء يمسكن بالمجامر الفضية ويحرقن البخور عند وسائدهم ، كانوا يسيرون مع شبان يرشون على ثيابهم العطور ، ويضاجعون جواري الباشوات الذين يصنعون ولائم كبيرة تتوهج في باحات المنازل .

لقد عاشوا في ظل الإمبراطوريات الجميل في صيدا المهدمة ، وفي الكرمل ، وبئر سليمان ، وشنعان ، وسهل زبلون ، لقد عاشوا السهرات الليلية تحت الخيام المنصوبة في رمال الصحراء البعيدة ، واستمتعوا بنهيق الخيول ودخان نيران البدو ، وتقدم هؤلاء الرجال ليخوضوا في هدير الأمواج التي جمدها الأفيون في استنبول وأورشليم والقاهرة ، حاملين الخريطة في يد والتوراة باليد الأخرى ، ليعبروا مضائق وشعاب سيناء الحادة والخطرة كأنها منحوتة بمطرقة ، بينما تتصاعد على أوكارها وعلى خرائبها الزرية وقصباتها النسور .

إن هذا الشرق الذي يفكر به ويحلم به ماريبو يقع على الطرف النقيض من الشرق الذي يفكر به إدوارد سعيد ، في تلك اللحظة .

نهض إدوارد من مكانه ، عدل كرفاطه الممدود ، وقد برقت عيناه وهو ينظر في عيني ماريبو بالضبط ، كان يدرك أن ماريبو يحاول أن يتخلص من صورة الشرق الحقيقية اليوم بصورة الشرق المحلومة والمخلوقة في كتب الرحالة والدبلوماسيين والتجار والجنود والحجيج .

كان إدوارد سعيد يحاول أن يهشم أحلام ماريبو الذي يتمنع عليه ،

يقف سعيد أمامه ويحاوره عن اللاجئين والموتى والمعاقين والمجتمعات التي ثقبتها الحروب والمخاوف والدكتاتوريات . . و . . و . . ويضحك ماريبو هاهاهاهاها . . .

لقد شعر إدوارد أن ماريبو يريد منه التحدث عن الشرق بطريقة ماركو بولو وقبلاي خان ، يجلس قبلاي خان على متكئه ، ويدع ماركو بولو يسرد من خياله ما رآه .

بينما أدرك ماريبو في تلك اللحظة أن هذا الكلام يثير اشمئزازه وتقززه ، وقد أدرك أيضاً أنه من الأفضل القيام برحلة ، كما كان الغربيون يفعلون ، صرخ :

«فرصة . .» .

كما أتاحت الرحلة فرصة عظيمة لنرفال برؤية العريش ، وفلوبير بمضاجعة كشك هانم ، وغوتييه بتناول الحشيش ، ولكن كي تنجح هذه الرحلة لا يكفي أن يخترقاها في الزمان والمكان وإنما أن يتخفيا أيضاً ، ويتحولا تحولات متعددة ، لا بل أن تتحول الأزمان والأماكن معهما كما كانت تفعل ساحرة أبوليوس في الجحش الذهبي بلوسيوس ، فما إن تطليه بالزيت حتى يتحول إلى كائن آخر ، فرح إدوارد بذلك وقال لماريبو :

« ولكن إلى أين نذهب . . . ؟» .

في الواقع كان أمامهما أكثر من طريق جربه الرحالة القادمون من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب ، حركة من يد ماريبو الساحر ، فجأة ارتسم أمامهما طريق الصين القديم ، طريق الحرير كما كان قبل الميلاد في عهد الإمبراطور هاي وو دي :

ارتسمت في الفضاء صحراء غوبي المترامية الأطراف ، وهنالك موكب من المسافرين الذين يرتدون أزياء من عهد أسرة هان الصينية يسيرون على الجمال والحمير متجهين نحو الغرب ، وقد شدوا حبال الصوف حول

جباههم ، ولفوا زوايا لفاحهم مثل أذني حيوان ، مؤلفين جماعات جماعات من الرجال القصار الصفر وهم يكشرون عن أسنان من البورسلين ، بينما كانت الجمال مربوطة في خط طويل ، وقطعان الماعز التي سيذبحونها وراءهم .

كان الرحالة يسيرون بتمهل وقد أعياهم المسير والحر والعطش ، ولفحت وجوههم أشعة الشمس المحرقة ، كان تشانغ تشيان يتقدمهم وهو ينظر بقلق إلى أوعية وجرادل الماء الفارغة ، والمشدودة بالحبال على الجمال ذات السنامين ، دون أمل بالعثور على واحة ، فجأة ارتسم أمامهم خط دقيق ينفذ من واد صغير ومشجر وينفتح على شرق أوربا ، إنه طريق آسيا إلى أوربا ، طريق الحرير الذي أمر بفتحه الإمبراطور هاي وو دي .

قال ماريبو « لا . .لا . . هنالك طريق آخر . .» .

صمت ثم ارتسم ، بحركة سحرية من يده ، مشهد من القرن التاسع عشر :

موكب للرحالة يطوفون في الصحراء العربية فتنعكس ظلالهم على الأحجار البيض العامرة بالسحالي ، بدو عرب يركبون الحمير الصغيرة ، وفرسان على الخيول مدججون بالبنادق والسكاكين والخناجر ، استمر موكب المارة على الطريق ، وأمامهم مجموعة من الحجاج الفلاحين القبارصة الذاهبين إلى نهر الأردن ، كانوا رجالا ونساء وأطفالا يمتطون البغال أو الحمير ، وخلفهم لحى شقر أو صهب وقلنسوات من الفراء ، مئات من الحجيج الروس الذين يشبهون الدمى ، كان أغلبهم من الطاعنين في السن ، ومع ذلك يسيرون بثبات ، كانوا هم أيضاً فلاحين شيوخا بشعور بيض ، وعجائز يضعن النظارات على أنوفهن ، كن منهكات ويترنحن في سيرهن ، كان الجمع يتقدم محتمين بفقرهم ضد هجمات البدو ، متكئين بسيرهم على العصي ، وكانوا يتقلدون الأواني المعدنية أو

القناني الفارغة التي سيملئونها بورع من النهر ، إنهم جد وجدة سيعودون ربما حتى الأرخبيل وحتى ضفاف البحر المتوسط بقليل من المياه المقدسة التي سيعمدون بها أحفادهم .

أو : حركة سريعة وسعيدة ومرحة من ماريبو بيده اليسرى ، ثم رفع قبعته وأعادها على رأسه ، فانفتحت في الصالة خريطة شاتوبريان الملفوفة والملونة ، وفي الوسط الخط المحبر الدقيق والواضح الذي خطه الرحالة من باريس إلى القدس ، لقد انبلج خط الرحالة مثل خط من التيزاب على الخريطة . . . ضحك ماريبو ضحكة مدوية وأشار بيده وفسر :

« البقاء شتاء في مصر ، قضاء عيد الفصح في القدس ، التحرك نحو أريحا والبحر الميت وشرق الأردن ثم العودة إلى مصر ، هذا هو مسار الرحلة ، والذي يطلق عليه بمسار جوان حيث ترافقنا الحمير والبغال والكدش والأدلاء السوريون» .

«نعم . .نعم . .» .

هكذا فسر ماريبو الأمر برمته ، الرحيل إلى شرق شاتوبريان ونرفال وفلوبير المشبوح ، إنه جغرافيا توراتية ، وشعب دوني ، مستعبد ، محتاج لمن يغزوه ويخلصه من العبودية . .إنهم بلا أم . . بلا أرض . . بلا وطن . . ولا حقوق ، ولا قوانين وهم بحاجة للاحتلال الأوربي . .لأنهم شعب ميت . . لقد مات هذا الشعب منذ زمن بعيد . . وقد طارت الآلهة التي كانت تسكنه . . تسكن هذا الشرق . .

«ماذا نفعل به . .» قال ماريبو «إنه شرق جسدي ساكن يمكننا أن نخصبه . . إنه شرق أنثوي فلنذهب هناك . . ولنعلن بأننا وحدنا من الذكور . .» .

ارتدى قبعته وهو يضحك ويرقص من الفرح . . وانفتح هذا العالم الغامض والمعقد أمامه . .عالم معقد لأنه لا يمكن أن يراه إلا بصور متعددة

ومتداخلة ومتراكبة ، فهو حديقة زكية متعددة الألوان في تقليد تارة ، وهو عالم إسلامي عدائي تارة أخرى ، وهو بلد العجائب والسحر في كتاب ماركوبولو ، وهو مغشي عليه بضبابية البعد في عيون السحرة أصدقائه ، إنه عالم السراي ، والحريم ، ومكائد النساء ، والجواري ، والاستعباد ، والغيرة ، والزنا ، والمآثر البطولية ، والخمرة ، والخيانة الزوجية ، والحيوانات الخرافية ، والنباتات العجيبة ، والأسرار المفشية ، والشكوك ، والمدن الغرائبية ، والرسائل السحرية ، والأحلام النبوئية ، واللقاءات المفاجئة ، والتحولات ، والمسوخ .

صفق إدوارد سعيد بيده بعصبية وقال . .لا . .لا . . يا ماريبو . .كان يعتقد بأن تصور ماريبو يتعلق منذ زمن بعيد باختراع ما ، وبانخداع ، وبوهم سيؤدي فيما بعد إلى سوء فهم ولا تصالح كبيرين بينهما ، فماريبو يعتقد أنه الأمر ذاته : شرق جميل وعار وحسي وشهواني وساكن وممتع ولكن من باريس أو لندن لا من الشرق ذاته . . إن ماريبو يريد أن يعيش خرافة الرجل الذي يبحث عن الكنز وهو نائم على كرسيه الهزاز . . لذلك قال له إدوارد بصراحة بأنه أفسدت ذهنه كتب الرحلات بشكل لا شفاء منه . . وسرعان ما سيكتشف أن طائر الرخ لا وجود له ، وأن بغداد علاء الدين ونخلة الزمرد والصبار الهندي في القاهرة هي محض هراء غربي . . وبهذا سيحقد على هذا المكان وسيحمله من عاطفته العدائية ويفرشها على هذا المكان مثل طبقة من الغبار .

قال ماريبو لإدوارد سعيد : «ما رأيك لو نقوم برحلة إلى الشرق مثلما كان يفعل الأدباء والكتاب في الغرب في القرن التاسع عشر والعشرين ، مثل فلوبير ونرفال وبيير لوتي ولامارتين . .»

«رحلة . .» قال إدوارد . .

صرخ ماريبو . .« نعم . .نعم رحلة . .» .

وأخذ يرقص بملابسه الرثة وقبعته المثقوبة وشواربه النازارية ، يرقص

ويقفز إلى الأعلى مثل الجني الذي يقفز في كتاب ألف ليلة وليلة ، قال لإدوارد إنه مصنوع من خيال غربي مشحون ومشبوح ، خرج من هذه القصص نعم . . نعم ولم يخرج من فابليو فروسطية تتعرض للقسس والنبلاء الصغار والتجار بإبراز العيوب التي تثير السخرية والضحك . . . صفن صفنة قصيرة ثم قال لإدوارد حتى هذه الفابليو فهي قادمة من بلاد فارس ، صفق بيديه وقال ماذا لو كان أبوه الموبدان عند خسرو وأمه جارية جميلة اسمها مشكدانة ومعناها المسك ، أهدتها له شيرين جارية خسرو ، فضاجعها في ليلة مقمرة ، وانتزعته الجن من أمه ، وجعلته يطوف الأزمان والأماكن وها هو قد حن إلى بلاد الشرق ، فغنى عنه كما يغني الشعراء الرومانتيكيون الغربيون الذين تولهوا بالشرق ، وأخذوا يلتزمون الزهد ولا يأكلون إلا البيلو أو مربيات الورد ، وغنى الشرق لأنه عين للتأمل ، وفرن لتحميص الشهوات ، لأنه هودج كحلٍ وبخورٍ ، وجنيّات ، لأنه المغني الهائمُ في الرمال حتى يصل إلى جبلِ الذهبِ . . . وتكسرت ضحكة ماريبو في الهواء . . .

توقف قليلاً . .ثم فكر ماذا لو كان ابن القرقوز بعينه ، قرقوز القاهرة أو دمشق أو حلب أو بغداد الذي يظهر ويضحك من فوق الستارة ، وقد حمله الغربيون إلى لندن أو باريس أو أمستردام . . إنه من مسرح خيال الظل مصنوع من الجلد أو الورق خلف قماشة بيضاء في تمثيلية حرب العجل للريس مسعود في القاهرة ، أيام الخديوي إسماعيل ، أو عجيب وغريب بابا دانيال . . الكحال الموصلي . . التمثيلية التي كان يتفرج عليها أصحاب المهن في السوق ، مثل السقاة والنحاسين والمكارية والباعة والروافة والعتالين . . أو ابن ميرو الساحرة ، صاحبة الحانة التي انغمست في الجنس مع سقراط ، وانتزعت قلبه أمام أرسطومنيس ، في كتاب الحمار الذي علم الغربيين الفلسفة . . .

انفجر ماريبو بوجه إدوارد سعيد بالضحك . . وأخذ يمثل له :

ينفجر بخار أبيض تحت قدميه ، يختفي كليا ، ثم يتبدد البخار شيئا فشيئا ، فينكشف ماريبو في عيني إدوارد وقد تحول إلى شحاذ أعرج بملابس متهرئة في أحد ميادين بغداد وهو يولول بالفارسية . . . يقف قليلاً . . ثم ينفجر بخار أزرق تحت قدميه فيخفيه تماما . .ويتحرك بين البخار بهيئة أخرى ، هيئة الفاسق في حانات بغداد وهو يغني شعر عمر الخيام ، صوت انفجار ملون ويتحرك ماريبو بهيئة مهرج بوجه ملون وهو يتشقلب في باب السلطان . . . ضحك إدوارد وقد استسلم كليا للتحولات السحرية والعجائبية لماريبو غير أنه لم يعرف من هو؟ ربما هو ابن شمون المشعوذ أو ابن هلال المنجم ، أو ابن مبارك الفيال ، أو ابن ميمون القراد . . وسواء أولد من غرام العشاق أو مناطحة الديوك والثيران والكباش . . فكل هذا لا يهم ماريبو على الإطلاق . . .

ناول ماريبو إدوارد مكنسته الإنكليزية المصنوعة من القش ، هز عصاها الطويلة بين يديه بقوة ، ومثل ماريبو الساحر ، وضع إدوارد سعيد عصا المكنسة بين ساقيه ، عدل نظارته على عينيه ، سحب كرفاطه الأحمر الذي يشبه عنق الديك ، وطار من نافذة مكتبه الكائن في ناطحة سحاب عالية جداً في نيويورك ، لف لفة أو لفتين في الفضاء ، ثم توجه نحو الشرق ، نحو القاهرة بالتحديد ، وتبعه ماريبو محلقا خلفه وهو يردد عبارة نابليون الشهيرة :

«سأستعمر مصر . . سأستعمر مصر . . وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . . إن ست سنوات تكفيني للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً» .

وانفجرت ضحكة في السماء مثل شلال من النار .

***

إن طيران إدوارد سعيد من نيويورك إلى القاهرة على مكنسة ماريبو ، المكنسة الإنكليزية المصنوعة من القش ، ينتمي في واقع الأمر إلى العوالم السحرية والفنطازية التي صنعتها المخيلة الغربية أكثر مما تنتمي إلى المخيلة الشرقية ، أي ينتمي إلى هذه الروح العجائبية التي يحويها كتاب خواطر السحرة المجنونة لجان بودان ، وإذا تتبعنا الخط إلى الأمام سنجد أن إلويزيوس برترون قد طور في غاسبار الليل نموذجا آخر من الطيران وهو الطيران على المقلاة ، بدلا من الطيران على المكنسة ، ولكن إذا عدنا إلى الوراء سنلتقي بالصورة الرائعة للبساط السحري في عوالم السرد الأخاذة لبغداد ، وهو العنصر الخارق والفنطازي في ألف ليلة وليلة ، وقد استلهمه الغرب من الشرق ومن الليالي كما استلهم صور الجنيات والسحرة والأرواح والأعمال الخارقة ، مثل طاقية الإخفاء و خاتم سليمان ومصباح علاء الدين ، ومع ذلك فإن إدوارد سعيد قد هبط في القاهرة على المكنسة الغربية وليس على البساط الشرقي ، وقد كان هبوطه أول الأمر في الشارع المؤدي إلى جامع الأزهر الذي بناه الفاطميون ، وبالطريقة ذاتها التي يتخفى بها أبطال الحكايات الفنطازية والسحرية ؛ فقد ارتدى ذلك اليوم الزي الإسلامي للشيوخ والدارسين القادمين من كل العالم الإسلامي إلى الأزهر ، وكذلك المستشرقون الغربيون مثل غولدتسيهر وماسنيون ، والذي يتكون من : العمامة البيضاء الصغيرة من القماشة الناعمة التي لفها بعناية على رأسه ، الجلابية الرمادية الطويلة المفتوحة من الصدر والمحزومة بحزام من الجلد ذات الأكمام العريضة ، العباءة السوداء وقد رماها على كتفيه ، بينما ارتدى ماريبو الجلابية والطاقية ومسك كتاب الإيصاغوجي في المنطق بيده ، وبعض الكتب التي يدرسها الشيوخ في حلقات الدرس في الأزهر ، ووقف وراءه مثل صبيه أو خادمه أو تابعه ، ومسك في اليد الأخرى مسبحة سوداء ناعمة يكر بها مثل الشيوخ الأحداث ، وحين سار إدوارد سعيد

متلفتا في أحياء القاهرة سار ماريبو وراءه ، وهو يحاول أن يستقصي المكان مثل إدوارد سعيد ويتحراه ، يحاول أن يتلمس المدينة التي تبرز أمامه مثلما يبرز الجني من مصباح علاء الدين ، غامضا مخادعا وطائعا أيضاً .

مشيا سريعاً بين الخفراء والطربية والحانوتية والفراشين ووصلا إلى جبل الدراسة ، ثم توقفا أول الأمر في الشارع المبلط العريض وسط الضجيج والصياح والصخب ، ثم التفتا يميناً ثم التفتا شمالاً ، وعبرا النفق الصغير الذي أوصلهما إلى شارع صلاح سالم ، وعبرا الأبنية المتداعية من مقابر المجاورين ووصلا إلى المقطم : « إيه ده . .قايتباي؟؟؟» .

كان بائع الجرانيين يزعق وهو يعبر الكوبري ، وفي مقابر المجاورين وحي قايتباي وجدا الأبنية المتداعية ، والحارات اللولبية ، حيث الصعايدة يرتدون الجلابيب المغبرة والكوفيات الصوف وقد ركبوا على عربة تحمل الشوالات البيض ، وهناك بائعات ريفيات يرتدين الفساتين السود والطرح المغبرة ، وهن يحملن على رؤوسهن صناديق الفراخ التي تقوقئ ، والأطفال الصغار برؤوسهم الحليقة ينامون على الأثداء المتهدلة من وراء الجلابيب الواسعة . . . وأمام المقاهي وأبواب الدكاكين يقف الخفراء والطربية والحانوتية والفراشون ، وفي حي الباطلية يقف الحشاشون طوابير لشراء الصنف الممتاز من الحشيش .

وضع إدوارد سبابته على شفته مندهشاً مستفهماً منذهلاً وقد هبطت قطرة عرق صغيرة على صدغه بهدوء ، بينما سالت قطرة عرق من أسفل أذن ماريبو على لحيته الحمراء المحناة مثل تاجر فارسي ، منذهلاً من ضيق الشوارع ، ولولبية الحارات ، وشكل المقاهي المهدمة ، وأبواب الدكاكين المتداعية :

« طب فين حي الحسين وحي الجمالية وقايتباي . .» . قال ماريبو باللهجة المصرية .

حدق إدوارد بعينيه الصغيرتين بعناية ، ثم ارتدى نظارته الدائرية التي أخرجها من جيبه وأخذ يدقق بوجوه الفتوة والفهلوة والحرافيش والزعران والحشاشين والعوالم وصبيان المقاهي :

«طب فين الولد نجيب محفوظ ده . .؟» . قال إدوارد باللهجة المصرية أيضاً .

فحرك ماريبو يده حركة سريعة ومدها في الفضاء وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

خرج نجيب من مقهى كرشة في زقاق المدق القريب من الأزهر بعد أن صبغ الغروب السماء بغضارته الحمراء ، وضع يده بجيبه وأخرج بضعة قروش صفر ورماها بهدوء على الصينية النحاس الموضوعة على طربيزة منفردة قريبا من الباب ، وأشار بيده الأخرى لصديقه سيد شامة الذي يعرفه من الغورية بأن لا يدفع ، وقد كان الأخير جالساً في الزاوية على كرسي عال مثل مخدر ببذلته وطربوشه الأحمر ، واضعاً إصبع النارجيلة المذهب المنقوش في فمه ، وهو ينفخ الدخان من أنفه ويستسلم لتأملاته ، حرك رأسه وأخذ يتابع بنظراته انحدار نجيب بعصاه ونظارته السوداء وبذلته العتيقة والنظيفة والمكوية في الزقاق ، تاركا وراءه صخب المقهى المزدحمة بالجلاس الذين يدخنون ويثرثرون ويلعبون الدامة والطاولة ، والذين يرتشفون الشاي ، تاركاً وراءه صورة جدرانها العالية المطلية التي تحمل الأرابسكات من البسط الصوفية المزركشة والقناديل العالية واللوكسات ، واسكملاتها الجديدة المطلية ، وطربيزاتها العالية المصنوعة من الخشب القديم ، وقد حوطها من جهة اليمين دكان من البضائع المتزاحمة ، وفرن يبعث برائحة العيش الساخن والذي يتصاعد منه البخار بهدوء في الهواء ، ومن الجانب الآخر دكان أكثر فقراً ووكالة شبه معتمة ، ثم ينتهي الزقاق الصغير والملتوي ببيتين متلاصقين يتكونان من طوابق ثلاثة .

هل كان نجيب يحب هذه المقهى كثيراً ، تساءل ماريبو وهو يعدل عمامته على رأسه بعد أن وضع كتاب الإيصاغوجي في المنطق بين ركبتيه ، يحبها مثلاً أكثر قليلاً من مقهى سيد عبدو ، فانفجرت مقهى سيد عبدو أمامهما وهي تتكون من سلم دائري وبركة في الوسط حيث يلتقي نجيب هناك بأحمد عبد الجواد بطل ثلاثيته ، وبفؤاد الحمزاوي وهم يرتشفون الشاي الأسود الثقيل قرب الشجيرات العالية التي تلقي بظلها على الجالسين المثرثرين والمدخنين .

أو يحبها أكثر من مقهى الصاغة في حي الجواهرية فتنفجر في فضاء المقهى ، حيث يجلس نجيب هناك وقد انتصبت المنارة التاريخية للصالح نجم الدين الأيوبي .

أو يحبها أكثر من مقهى عرابي ، فارتسمت بزجاجة واجهتها وهي تطل على شارع الغوايش ، حيث يلتقي نجيب بأصدقاء طفولته هناك ، بينما رأى إدوارد الفتوة ذائع الصيت الذي يملكها والذي ضرب ضابط الشرطة الإنكليزي ، وأمضى في السجن بضع سنوات .

أو يحبها أكثر من مقهى ريش ، أو من كازينو الأوبرا حيث طارده ضابط شرطة عبد الناصر وكتب تقاريره عن مؤامرة يدبرها الخواجة كافكا والخواجة بروست ضد النظام ، أو يحبها أكثر من مقهى أبي الهول عند سينما رادو ، أو مقهى الفيشاوي ، أو قهوة نجمة جمال الدين الجذابة الأنيقة المزودة بالكراسي والموائد والمصابيح الملونة والأقداح النظيفة ، حيث جاء يوما بساعته العاطلة للمصلح فرأى الراقصة الشهوانية قرنفلة هناك ، أو خمارة القط الأسود وصاحبها اليوناني ، وجلس على كراسي بسيطة حول طاولات من الخشب العاري ، أو مقهى المرايا قرب الأزهر ، والتي كان يجلس فيها الكاتب اليوناني ستراتيس صامتا وهو يلعب النرد قرب طالب أزهري ينحني على رق من جلد الغنم ، واضعا إياه على ركبتيه ويحاكي

بقلمه ما كان مكتوبا على صفحة كتاب من مجلد بلون ذهبي ، وأفندي يرتدي نظارات طبية ويسبح بمسبحة سوداء ، أو مقهى دليس في الإسكندرية وقد جلس فيه نجيب تحت المصابيح المبللة والشاحبة والفسفورية التي ترتجف في الهواء اللزج ، أو مقهى باسترودي في شارع فؤاد ، مقهى الجالية اليونانية والذي كان يحبه غوسب انغارتي لأنه كان يهدم سمعة الفتيات اللواتي يلتقين فيه بعشاق الأمس ، أو مقهى سان سيتانو الذي يجلس فيه محفوظ وهو يثرثر عند النافذة ويدير ظهره للبحر متكئا على تفاحة عصاه ، أو كما كان يفعل لورنس داريل حين يجلس مع بالتازار ليشربا العرق في الهواء الطلق .

صور تتلاحق في ذهن إدوارد سعيد بينما ماريبو يضع سبابته على شفتيه ويفكر :

« . . لا . . لا . . علينا أن نجلس في مقهى كرشة . . نفسه» قال إدوارد .

طار كلاهما على المكنسة الإنكليزية سريعا ، وهبطا في مقهى كرشة بأسكملاتها وطرابيزاتها العارية ومن أمامهما كانت تمر عربات السحب التي تجر باليد ، وهما يهزان بأقدامهما ويعدلان عمائمهما بأيديهما ، ومن جنب أقدامهم يمر المتسولون والمشردون والمتجولون وجامعو أعقاب السجائر والباعة المتجولون ، جلسا هناك على طربيزة عالية وأخذا يشربان الشاي الأخضر المنقوع بالنعناع على صوت طيور الكناري التي تزقزق في أقفاصها الخضر والمعلقة فوق الأبواب ، نظر ماريبو إلى جدرانها التي تحمل البسط المزركشة ، والقناديل القديمة والتصاوير ، وعند الباب ينتصب السماور الأصفر الكبير ، والبخار المتصاعد من القوريات والكتليات في الهواء ، وفي الداخل زحمة الذين يلفون رؤوسهم بالعمائم الصغيرة أو الطرابيش ويقرقرون بالنراجيل . . .وقال على طريقة الرحالة الغربيين الذين كانوا

يجلسون في مقاهي المدن الشرقية ، يدخنون النراجيل ، ويشربون المصطكي ، وينظرون إلى الجمال التي يقودها البدو ويتبعهم الخصيان والكلاب الشريدة :

«فضاء شرقي . .»

وكما يفعل نجيب على الدوام ، خرجا ، وسارا في الزقاق المبلط بصفائح الحجارة والذي ينحدر إلى الصنادقية ، هناك قلد ماريبو سير نجيب محفوظ المذهل بعصاه وبنظارته السوداء وببذلته العتيقة والنظيفة والمكوية في الشارع ، فضحك إدوارد من كل قلبه ، وعند عتبة إحدى العمارات توقف هناك أمام حميدة بشعرها الأصفر ، وملايتها السوداء التي تلفها على مؤخرتها ، والعلكة التي تطق بها في فمها ، والشكربينة التي ترتديها وهي تسير بمياعة ودلاعة في الشارع ، صفق بيديه مثل صبيان المقاهي :

« يا حلاوة . . . يا حلاوة . . يا حميدة» . وهو بهيئة نجيب ، عدل نظارته على أنفه ، ضحك وبخار الويسكي ينبعث من فمه ، فقالت له :

زقاق المدق/ حارة الحسين

في الصباح أمام بناية شبه مهدمة في أول كاط ، كانت مياه المجاري تتقلب في الزقاق الرمادي الصغير ، وهنالك عربة كارو بحصانين ، ذيلاهما مقوسان وجلداهما أصهبان بلون النبيذ ، ومن الجهة الأخرى بنايات مزدحمة كالحة متقابلة ، وفي أسفلها مقهى صغير مزدحم برجال يلعبون الطاولة ويقرقرون بالنراجيل ، ومن عمق الزقاق تنبعث الصيحات والحمحمات المكتومة ، نظر إدوارد سعيد باهتمام إلى البسطات المتعاكسة بالألوان الكابية المفروشة أمامٍ مطعم صغير للطعمية والفول ، وفي الخلف شد دسوقي على رأسه منديلاً وهو يصيح :

«صباح الفل . . صباح الورد . . فول . . طعمية يا ود» .

كان العتالون الذين يحملون الشوالات البيض يقفون أمام المحل ،

فتسقط على طاقياتهم الشاحبة أشعة الشمس الصباحية الخفيفة بطريقة مائلة ، وعلى مقربة منهم دكان الكبابجي ، وبقالية المعلم عباس فارغة تقريباً من البضائع وفي الوسط قبان صغير وعيارات سود ، وقد جلس المعلم في الوسط أسمر الوجه وله كرش صغير بطاقيته وجلابيته وشواربه الكثة المرفوعة ، وقد أسند رأسه إلى الجدار بكسل ولامبالاة وأخذ يشخر ، وعلى مقربة من محله كان باب العمارة المفتوح ، والذي يؤدي إلى السلم الزلق وشبه المهدم ، يشهد شجارا وعراكا بالأيدي بين حميدة التي رفعت كميها وخلعت إشاربها من رأسها وهي تعلك وتصرخ وتسب وتشتم ، وحسنية زوجة عباس البقال التي رمت ملايتها السوداء على الأرض وعكشت العالمة من شعرها وسددت ضربة لها على بطنها ، فهجمت حميدة العالمة عليها دون أن تترك علكتها تسقط من فمها وطرحتها أرضا ، بينما تجمع هناك حسنين العتال وحلاوة السقا ، واثنان من زبائن المقهى لتفريقهن ، كانت بائعات الخضرة اللواتي يحملن قصاع الليمون والخضرة المرشوشة على رؤوسهن يتضاحكن بصوت عال ، وكان العيال يتصارخون ويتقافزون بين البط والفراخ الذي يتجول في الشارع ويلقط الحب ، وحين أيقظ عبدو صبي المقهى المعلم عباس ، أخذ يسب به ويشتم :

« سيبك منهن . . منك لوه . . لوه» .

لقد عرف إدوارد أن المعلم عباس أخذ جوزة الحشيشة مع ماريبو الذي تنكر بهيئة نجيب محفوظ بالأمس ، وهو الآن يحلم أحلامه الأثيرة دون أن يعبأ بالعالم المحيط به ، فقد باعت زوجته بعض أثاث البيت الفقير واشترت له الصنف الذي يريده ، وفي المساء صعد درجات السلم هو ونجيب أفندي وعربجي الإصطبل إلى الحجرة الفوقانية عند حميدة العالمة ، وعمروا الجوزة بالتنباك المعسل والحشيش وأمضوا ليلهم معها .

***

وقف إدوارد سعيد على مقربة من دكان الحلاق الذي كان يرتدي صديريا أبيض وهو يتجادل مع الكناس الذي حمل مكنسته على كتفه، وهو يصرخ ويلوح مهددا أهل الشارع بالانقطاع عن التنظيف لأنهم أفسدوا ما نظفه. وقف هناك وأخذ يحدق بفتاة تطل من المشربية وقد فتحت شراعة الشباك بوجهها المضرج بالسمرة وهي تسوي شعرها الخشن الوحشي بذراعها، فيظهر جانب صغير من صدرها، كانت ممتلئة وأنثوية، ونهداها بضان مكوران يهتزان بثقل من تحت الجلابية المخططة الناعمة النسيج، إنها آمال بنت حسين أفندي البوصطجي جيرانهم في مدينة القدس، وقد هجرهم اليهود وأجلوهم من حي الطالبية الغربي ورموهم على الحدود، حسين أفندي البوصطجي وبنته آمال وابنه عزيز وزوجته ودودة، التي كانت تجلس مع زوجها على الكنبة الخشبية المفروشة بالملاءة البيضاء المتغضنة، وتضع أمامه المائدة الرخامية البيضاوية المفروشة بورق الجرايد، وكان يمسك كباية الشاي الممزوج بالمرمية ويرتشف مرة بعد مرة، وقد سهل لوديع وهيلدا، والد ووالدة إدوارد أمرهما، فهما يمران عليه ويسألانه عن بريدهم بدلا من أن يذهبا إلى مبنى البريد، أو يعطيانه الرسالة في منزله... وبعد أن رحله الإسرائيليون عن القدس أخذ حسين أفندي يزور نبيهة عمة إدوارد التي كانت مهتمة بشؤون اللاجئين، وفي تلك الأيام أحب إدوارد آمال دون أن يذكرها لأحد مطلقا، غير أن ماريبو الذي عرف ذلك حاول تدبر هذا الأمر وفق ما كان يحدث في ألف ليلة وليلة، حاول تدبر هذا الأمر وفق ما حدث في حكاية الوزير نور الدين مع شمس الدين أخيه، ومثلما أخذ أحد العفاريت بطل الليالي من البصرة إلى حبيبته في القاهرة ليلاً، ثم أعاده قبل طلوع الفجر بمساعدة عفريتة، بعد أن أمضى ليلة جنسية مع حبيبته، جذب ماريبو آمال بمساعدة عالم الجان والعفاريت وعالم الخوارق ووضعها وجها لوجه أمام إدوارد سعيد، ولم يكتف بذلك،

إنما جعل إدوارد سعيد يعيش عذوبة اليوم الأول الذي رآها فيه في القاهرة .

***

ضحك ماريبو وهو ينظر إلى إدوارد المخدر تحت ضغط عاطفة قوية ، وكان هو نفسه يتحول ، مثل تحولات إدوارد مع آمال ، إلى البطل الصقلي ، البطل الصقلي الذي يتنكر بزي امرأة ويقع أسيراً في أيدي قطاع الطرق ويباع كجارية لحاكم عربي ، وفي قصر الباشا يلتقي بالجارية اليهودية ويبوح لها بسره فتحبه :

وقف أمامها ، ظهرت الجارية اليهودية التي قصت شعرها قصة فرعونية ، كانت فاتنة . . شهوانية تعيش في صورة مذهبة تحيطها الأسوار العالية ويحرسها قطعان من خصيان وعبيد ، إنها بقعة حلم تسوده موسيقى وحب شهواني أعظم مما في ألف ليلة وليلة ، وهي تلامس برقة اللقطات الجنسية الجريئة في ذاكرته ، لقد تمنى أن يخطفها ويهرب بها ليواجه الأهوال والأخطار ويكتشف الحقائق والأسرار . . . ويعتمد على السحر والتنجيم والجان في الفوز بها ، كان يريد أن يسافر بها بعيدا عبر البحار مثل السندباد ويواجه الحيوانات العجيبة العملاقة ، مثل طائر الرخ ، وجبال المغناطيس ، وصخور الذهب والفضة ، والخيول الطائرة ، وأشجار الجوهر واللؤلؤ ، وعبدة النار ، وبساط الريح ، والفانوس السحري . . . أو يعيش أخطار الروايات الغربية التي تأثرت بالليالي مثل أسفار الأمير العجيبة لبوجن ، أو أسفار نيكولا في أعماق الأرض لهولبيرغ ، أو الرجل الطائر للسيدة بوبسو ، أو مذكرات يهودي متجول لآنو ، أو الجزر الذهبية للوكليرفو ، أو الجزر المجهولة لجرفيل . .كان يريد أن يعيش هو أيضاً هذه العوالم الخيالية التي كانت تحيط بهذه الجارية التي ترتدي جلابية ملونة ومطرزة من عند الصدر ، وتجلس عند النافذة بشعرها الأسود وعينيها الحزينتين السوداوين ، تشبه الشاعرة المصرية السريالية اليهودية جويس

منصور، تجلس على كرسي مصنوع من الخيزران موضوع عند النافذة وأمامها طاولة خشبية صغيرة، وعليها مسرحية ليونسكو، قرأت فصلا منها فضجرت، شعرت بحاجتها لخواكين بونوم.. ماذا لو أحبت خواكين بونوم.. بساقه الخشبية المصنوعة من خشب الصنوبر، والتي كانت ترشح صمغاً أصفر دبقاً، وكأنه ما يزال ينزّ من صنوبرة حيّة، خواكين بونوم الرجل الفظ ذو العين المصنوعة من زجاج، والتي تنز قطرة صفراء دبقة بعد أن فقد عينه الأصلية في حرب السويس...

سار ماريبو في شوارع القاهرة، كانت الأزقة خالية، حزينة، قاتمة على الرغم من مصابيحها الغازيّة الصغيرة التي توقد منذ الخامسة مساء، حزينة بأنغام أكورديوناتها البعيدة، التي تنوح، بمقاهيها الصغيرة ذات الستائر المخرّمة حول النوافذ؛ بعاهراتها الدبقات اللواتي يدخن السجائر ويهتززن على سياج الكورنيش.

التقى ماريبو عند الكوبري قرب ملهى القاهرة عاهرة قبيحة، ضخمة الأنف، ترتدي باروكة، شاحبة، ممصوصة، كركمية اللون، تقلد نجوم السينما وتشرب الخمرة، وكلما تسكر تغني أغنية من أغاني أحمد عدوية بصوت خشن، عال وقبيح، وحين تتحدث تمر أصابعها دون أن تشعر وتنتف حواجبها..كانت تسير وحقيبتها بيدها وإلى جانبها يسير خواكين بونوم بساقه الخشبية، دون أن يفارقها..

من يستطيع التخلص من خواكين بونوم أو من ساقه الخشبية..؟ قال إدوارد سعيد.

لقد كان خواكين بونوم فيما مضى يسير على قدمين اثنتين، ولكن يقال إن الجارية التي تشبه جويس منصور هي التي دفعته حين كانا خارجين من البار تحت عجلة سيارة ففقد ساقه، وهكذا فقد صنع له الطبيب ساقا خشبية، وقد أصبحت ركلاته أشد قوة مما مضى، ومع ذلك

كان الجميع يشعر أن عرجه كان عرجا دراميا ، غير أن الجارية ترى الأمر عكس ذلك ؛ فقد قالت له إن الأمر فيه شيء من الخدعة ، ذلك لأن الشخص السوي مسؤول عن قدمه بينما ذو القدم الخشبية مرتاح ، إذا ضربت يقول إنها هي التي تضرب ، وإذا ضربت لا تؤلمه ، وهو لا يداريها ولا ينظفها ولا يصرف عليها ، وإذا يضيق بها ذرعا فإنه يرميها في الزبالة ، وهكذا رمى خواكيم بونوم ساقه في عربة قمامة متجهة إلى حي الباطلية ، وحين وجدها أحد الحشاشين لفها بجاكيت متهرئ وجده في الزبالة ، وأخذ يداريها كما لو كانت كمية من الصنف الممتاز مصرورة ، وحين قدمها لأحد المهربين ابتسم ابتسامة بلهاء ومسد شاربيه ، شمها وصرخ مثل الخادمات :

«هذه قدم عفريت . .» .

***

أقدام اصطناعية تسير في ليل القاهرة المشع والمقمر ، تسير منذ حرب السويس ، سيقان خشبية محفور عليها الحرف الأول من اسم صاحبها ، رجال قليلو الرجولة ونساء مسترجلات وقويات ، جارات قبيحات ، فنانون خجلون يشبهون الإطفائيين ، عمال في البوتيكات الأجنبية ، خدم في الليل ، عمال في اصطبلات خيول السباق ، عاهرات يبتسمن على سياج النيل حالمات ، راقصون أوروبيون يؤدون رقصاتهم مثل إعصار ، راقصة بالية تنام عند مبنى الأوبرا مثل تم محتضر . . ممثلات مصريات ، فتيات إعلان ، نساء يعشن ضياعهن خانعات مقتنعات مستسلمات مثل بطلات نجيب محفوظ ، وماريبو يلج في تعنته ، كان يريد النوم في حجرة ضيقة في نزل شبه مهدم في القاهرة ، أو في بيوت الصفيح ، أو في مقابر المجاورين ، في شارع قصير مزدحم ، ضيّق ووسخ ، ويعلو البيوت على الرصيفين وسخ الغسيل ورائحة الصابون ، وبقايا الرز . . شيء مراق على الواجهات ،

سقائف من الألمنيوم ، عفش بيوت محطم ومخلع ، أزواج متنافرون ، شرطة يهرعون يحملون الهراوات وينهالون على طلاب خارجين من باب جامعة القاهرة ، رجال لا يعملون شيئا ورهبان لا يذهبون للدير جالسون على المصاطب ، ملتحون بالجلابيب القصيرة والطاقيات يحملون أسلحتهم ويختبؤون وراء السور ، ومدير الأمن يبتسم للجيران وهو واقف على الدرج محاط بالقطط والببغاوات ، ومن ورائه تنبعث رائحة المعتقل ، رائحة كبريت كريهة ، وقد كان يفتخر :

« العالم العربي لم يعد متخلفا كما كان . . السجناء لم يعودوا من الفقراء حسب . . لدينا سجناء عازفو بيانو وراقصو باليه وشعراء . . وكتاب كثيرون . .» وأشار بيده إلى النافذة التي تنبعث منها رائحة الكبريت .

«الحداثة هي هذه . .» .

« حداثتنا . . هي هذه . .» .

«نعم حداثة مترجمة بشكل سيئ» .

«حداثة . . متسلطة . .» .

«إنها انتقال من استبداد متعدد . .إلى حداثة متسلطة . .» .

منازل شبه مهدمة ، ورجال بلا عمل ، وفي الحجرة العارية تطبخ المرأة على النشارة التي تطلق دخاناً كثيفاً يلهب العيون . باب الحجرة منخفض ، لا يمكن لك أن تدخل دون أن تحني رأسك ، أما السقف فقد كان من المعدن الذي ينز منه المطر ، الحجرة المقابلة أكثر وساخة وقذارة ، والحجر التحتانية كلها دون طعام وحين عاد الرجال ، كانوا عرجانا دون سيقان مثل خواكين بونوم ، ينحنون بانحناءة جد ظريفة عند الدخول ، ومنظرهم يبعث على الضحك ، ويسألون هل هناك من طعام يأكلونه ، غير أنهم لا يجدون غير الدخان الذي يعمي العيون .

« طب فين ناكل . .» .

«في الجنة . .»

«روح فجر نفسك علشان الحداثة ضد العالم القديم الذي يريده الله . . وتروح للجنة علشان تاكل» .

***

إن جنة خواكين بونوم هي حينما كان يتمتع بساقين من لحم وعظم ، وكان يدرك أن الحداثة المجلوبة والمتسلطة كانت حداثة بساق واحدة ، حداثة عرجاء ، وهكذا كان يعتقد بأن مصيره هو وزوجته وأغراضه القليلة بعد أشهر سيكونون دون شك إلى الشارع ، فهو يخرج كل يوم بحثاً عن عمل ، أي عمل ، دون جدوى ، ثم أخذ يتسكع قرب مخافر الشرطة . . تحت السماء التي تمطر ببطء وحزن على المدينة ، يتسكع تحت مطر يضفي على المدينة جو سهرة على ميت ، مدينة حزينة شرطتها يروحون ويجيئون بمعاطفهم السود وهم متخندقون خلف شواربهم العريضة التي ترتعش فتتساقط منها كرات المطر الشفافة . . يتسكع على النيل حيث تمر القوارب من هناك ، والعاهرات اللواتي يبحثن عمن يدفع أجورهن ، وهو الذي يتشاجر كل يوم مع زوجته التي لم تعد تطيق مغازلاته لأنه عاطل عن العمل ، وتعيره بأنه لا يعرف شيئا في الحياة سوى المضاجعة ، ولفظاظتها ، ولأنها مستثارة كالوحش وترغي وتزبد ، أخذ يركلها بساقه الخشبية ، فتزمجر باكية ، ساخنة لا يمكن إخمادها حتى المطر الذي كان يتساقط على رؤوسهم بلطف ، ذلك المطر الذي كان يهطل ببطء وحزن على المدينة .

كان عباس الحشاش يجلس على علبة من صفيح منتشيا . .

«هنالك عملان فقط . .» قال له الحشاش الذي يتيه بأحلام حمراء قرب باب الباطلية . .

« إما أن تصير متطرفاً أو مخبراً . .» .

كان وعد المتطرفين جنة إلهية وجحيماً أرضياً ، فخواكين الذي كان يسير بهيكله النحيل ، وساقه الخشبية ، صاعداً الحي الذي يقطنه ، وقد غطى رأسه بطاقية سوداء ، وارتدى صديرياً لمّاعاً لقدمه ، وبنطلوناً رثّاً أيضاً ومتهرئاً وقصيراً ، بحيث يرى من ينظر إليه قدميه دون جوارب ، ولم يكن يخضع ثيابه إلى التنظيف بالفرشاة ، وكان عنقه النحيل يخرج من ياقة منخفضة خاملة ، وشعره الرمادي الأملس يغطي أسفل صدغيه ، قد أطلق لحيته تلك الأيام ، وما عاد أحد يرى وجهه الحليق الشاحب ذا الخدين المتهدلين والعينين اللتين نادراً ما تغادران الأرض ، والخطين العميقين المأساويين المحفورين بين أذنه وزاويتي الفم الهابطتين إلى الأسفل . . . لقد ارتدى جلابية قصيرة ، واتخذ هيئة قاسية وصلبة ، ولم يعد خواكين الذي يتابع سيره مستسلماً خجولاً يسترق النظر إلى ما حوله ، مكتفياً برفع كتفيه ومدّ رأسه إلى الأمام وكأنه بلا مظلة ، يحث الخطى هرباً من وابل مطر كثيف ، لقد أصبح شرساً بالنظر إلى الآخرين ولم يعد يواجهه أحد بضحك ساخر ، ولم يعد خواكين يحيّي بتهذيب متذلل كل من يراه من الواقفين المتفرجين عليه ، ولم يعد يرمق ما حوله بخوف أو يسعى للهروب من نظرات سخرية يتخيلها تلاحقه ، أو يرفع بصره متردداً خجولاً ، ولم يعد عاجزاً عن النظر إلى أي شخص أو شيء بثبات وهدوء ، لقد ألهمته هيئته الجديدة بالطاقية واللحية السوداء والجلابية القصيرة هيئة صارمة عابسة على الدوام ، وقد فرح المتطرفون بوجوده بينهم ، ذلك أن ساقه الخشبية مفيدة في الدفاع عن عقيدتهم ، وربما ستستخدم كقنبلة موقوتة يمكنهم رميها على من لا يشاطرونهم عقيدتهم ، غير أن خواكين ارتكب تلك الأيام خطأ فادحاً ، ذلك أنه أراد أن يتخلص قليلاً من ثقل وجهه العابس الصارم وقرر كتابة قصيدة ، فجلس وأخذ يكتب قصيدة عن الفرح وعن السعادة وعن الحياة ، وحين عثر المتطرفون على القصيدة كفروه

وطردوه ، فعاد مرة أخرى إلى الشارع ، كان مهزوماً محبطاً وفي مزاج سيئ تماماً ، وقد غضبت زوجته عليه غضباً شديداً . . فقرر أن ينتقل إلى الشطر الثاني من نصيحة الحشاش وهو أن يصبح مخبراً :

التحق بالمخفر وطلب من ملازم الشرطة أن يقيده مخبراً سرياً عن نشالي المحفظات في محطات مترو القاهرة ، أو عن الذين يسرقون الدجاج من السطوح ، أو عن الصبيان الذين يعملون مع تجار المخدرات في حي الباطلية ، غير أنه وجد أن الحكومة غير مكترثة لهذه التفاهات ، بل طلبت منه أن يكون مخبراً سرياً عن السياسيين ، فطلبت منه أن يكتب تقريراً عن المتطرفين الذين يترددون على الجوامع ، وأن يضبط حركاتهم ، وبالفعل كتب تقريره وقدمه في المساء وعاد إلى منزله ليخبر زوجته بأنه قد وجد عمل أخيراً ، ولم يركلها ولم تركله الليل كله ، بل وافقت أن يغازلها شرط أن يبعد ساقه الخشبية جنب السرير ، وما إن نهض حتى اقتحمت الشرطة المنزل . .

لقد وجد الضابط الذي قرأ التقرير أن خواكين كان متعاطفاً جداً مع المتطرفين ، فهو يتحدث عن اليأس والبطالة ومساوئ الحكومة كأسباب للتطرف ، فقرروا تعذيبه عن طريق دغدغة ساقه المجدوعة بصورة متوالية . . فأصبح يائساً مثل محارة مرمية على الشاطئ . . . فبعد أن أطلقوا سراحه بكفالة أخذوا يراقبون حركاته ، فأصبح فريسة للذعر ، أصبح مثل روح يحملها الشيطان ؛ وما إن يمر أمام المخفر حتى يبتسم ويطلق الشعاراتً الوطنية والمؤيدة للحكومة بصوته الرنان .

***

«إلى اللقاء . . . خواكين المصري» قال الممثل الشاب بصوت عال .

«إلى اللقاء . .» . قالت الممثلة وهي على حافة المسرح ، وفي المقصورة الأولى كانت تعرف أن إدوارد سعيد جالس هناك .

«إلى اللقاء . . إلى اللقاء . .» . . وعند عبوره البوابة حيته الممثلة بصوت خفيض ، وحيته البنتان الصغيرتان اللتان لا تتزوجان ولا تصبحان راهبتين ، ولا تهربان مع أحد ، ولا تعملان شيئاً نافعاً .

«إلى اللقاء . . خواكين المصري» وكان خواكين المصري يركض لاهثاً دون أن يدري لماذا ، ولا إلى أين ، ودون اتجاه محدد . وكان المطر ما يزال يسقط لما أوقفته الشرطة ، هؤلاء الشرطة الذين ليسوا البابا ، ويمكن لهم أن يخطئوا كما يخطئ الناس جميعاً . . . ظهرت صحيفة الأهرام تلك الليلة بعنوان مثير ، إدوارد سعيد يحضر مسرحية ليونسكو على أوبرا القاهرة . . وكان الممثلون مبتهجين يشعون فرحاً ، بينما قال مدير الأمن :

«الويل لهؤلاء الممثلين! سأحبسهم جميعاً كإجراء احترازي كيلا تحدث هذه الأمور مرة أخرى . . . » .

«القاهرة . . موبوءة بالبعوض الذي ينقل الملاريا . . . » ولم يستطع إدوارد سعيد التكيّف . وكان يرقب ، وهو جالس على صندوقه ، الساعات تمر والأيام والأسابيع والشهور . . . لكنه لم يظفر برؤية سنة واحدة تمر . . .

خرج من المسرح ، كانت القاهرة قد تغيرت ، بقالية فاسيلاكس أصبحت محلاً للأحذية الرخيصة ، وحين عبر ملعب الغولف بنادي الجزيرة ، سمع من ينادي اسمه في الظلام ، وتذكر كيف كان يلهو ويختبئ بين الصخور في حديقة الأسماك ، وتذكر نزهات الأسرة لشرب الشاي في الميناهاوس والرحلات الترفيهية إلى القناطر ، حيث كان رب الأسرة يتحرر لفترة وجيزة وينهمك في اللعب ومشاهدة الأفلام الأمريكية في سينما مترو ، ولعب التنس في نادي التوفيقية . . . وحين عاد مع ماريبو إلى الشارع ذاته الذي يقع فيه مسرح سينما ميامي ، تذكر تحيا كاريوكا ، ليست الراقصة التي يفتر ثغرها عن بسمة ولذة فردوسية ، ليست الراقصة التي ألهبته في مسرح بديعة مصابني بحركتها المتواصلة ، ذلك لأنها تغيرت

هي الأخرى ؛ فقد ذهبت أحجيتها الشفافة التي تتدلى على البكيني الأحمر ، ذهب جسدها المذهل اللدن وهو يتماوج تحت الترتر الذي يلمع ، وحل محله المرأة البدينة التي تزن مائتي رطل وتجلس على كرسي من الخشب تدخن الأرجيلة وقربها كبش التعشير مشدود بحبل ، كانت تطلق النكات الجنسية المبتذلة وتنفخ الدخان في الهواء ، وكان فايز حلاوة الذي يرفع صورة السادات إلى الأعلى يقف في المقدمة ، ومن أمامه يمر العمال الروس خارجين من المكان المظلم الضيق ، مرتدين ملابسهم الزرق ، بوجوه صارمة شبيهة بوجوه الفلاحين الصعايدة وهم يحملون صرارهم وزوادتهم ، كانوا يسيرون بطابور طويل ، واحداً بعد الآخر ، خارجين من الصف ، عابرين المساحة الموحلة المحاذية للسد العالي ، خارجين واحداً بعد آخر تحت أعين الصحفيين الشقر والسود المتجمعين هناك ، تحت فلاشات كامرات التصوير ، وعدسات الكاميرات التلفزيونية ، تحت أعين المخبرين والشرطة السرية ، الذين تنكروا بملابس رثة لباعة يانصيب وباعة سجائر وباعة جرانيين ، الخبراء الروس يخرجون من المشهد تحت النظرات الضاحكة والمتهكمة لكيسنجر .

ماذا لو عادا إلى بيروت ، هل كان بإمكانهما أن يصعدا على عصا مكنسة ماريبو يطيران في الهواء ويهبطان هناك في بيروت؟ هل كان بإمكانهما أن يحلقا معاً حتى يصلا المقهى الذي جلس فيه مرة مع إقبال أحمد وراشد حسين؟

***

التقط المصور الفرنسي أوغسست سالزمان في العام ١٨٥٥ ما يقارب ١٧٤ صورة طبع بعضها في كتاب صدر في باريس سنة ١٨٥٦ . وقد نال المصور جائزة ذهبية للقطاته البانورامية لمدينة القدس ، وذلك في معرض باريس الأول للتصوير ، وهناك عدد آخر من المصورين الفرنسيين البارزين

التقطوا صوراً لمدينة القدس أمثال لويس دوكلارك ، ودوق دولين .

وبدوره أيضاً كلف لويس دوكلارك العام ١٨٥٩ من قبل وزارة التوجيه العام الفرنسية القيام بدراسات تصويرية في سورية ، ونشر بعد إنجازه المهمة أربعة كتب بعنوان «رحلة إلى الشرق» وأفرد كتاباً خاصاً عن مدينة القدس ، ولا تختلف صور دوكلارك عن صور دوكامب أو سالزمان .

***

حين درس مالك علولة في كتابه الحريم الكولونيالي عدّة آلاف من البطاقات البريدية التي أنتجها الفرنسيون في الجزائر ، وقيل إنها تصور النساء والعادات والتقاليد هناك ، وجد أنّ صورة النوافذ ذات القضبان تتكرر كثيراً في هذه البطاقات ، بحيث يتضح للناظر من غير شكّ أنّ نساء الجزائر يعشن في سجون . أما صور النساء العاريات فتجردهن من أية طبيعة ما عدا الطبيعة الجنسية ، في الوقت الذي تخلّف فيه انطباعاً راسخاً بأنّ المصوِّر قد نجح في مهنته ، إذْ رفع الحجاب عن المحجَّب ، على الرغم من أنّ هذه الصور مأخوذة في الاستوديوهات لموديلات من النساء . يقول علولة : وعلى هذا النحو فإن فكرة المرأة الحبيسة في دارها لا بدّ أن تفرض نفسها بطريقة طبيعية . . . فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة ، فذلك لأنهن سجينات . وهذه الموازاة الدرامية بين التحجّب والحبس ضرورية لبناء سيناريو متخيَّل يفضي إلى تصفية المجتمع الفعلي الواقعي ، هذا المجتمع الذي يسبب الإحباط ، واستبداله بوهم «وهم الحريم» .

***

اليوم قرأت رواية الضحية لسان بيلو ، وتعد من الأعمال الأدبية الأميركية المبكرة التي تتحدث عن اللاسامية ، ورواية «هيرتزوغ» (١٩٦٤) التي تتحدث عن موسى هيرتزوغ ، الذي تتركه زوجته وتهرب مع أعز أصدقائه فيجلس ويبدأ في كتابة رسائل إلى شخصيات العالم الكبرى ،

يتحدث فيها عن كل شيء بما في ذلك طفولته اليهودية البائسة . وتزدحم روايات أخرى مثل «القبض على النهار» و«الطبق الفضي» و«شيء لتتذكرني به» بشخصيات يهودية وعوالم خاصة يلعب فيها انتماؤها اليهودي دوراً بارزاً .

***

غادر بيير لوتي المكان ، صعد نحو المدينة العالية عبر الشوارع الضيقة المظلمة ، لم يزل يلتقي بين آونة وأخرى بأصحاب الأثواب المخملية والأنوف الطويلة ، الذين يسرعون للهبوط وهم يسيرون بمحاذاة الحائط لبلوغ موضع البكاء ، كان يكرههم جداً .

أما نحن فلا .

رأى من بعيد فوق المنازل الصغيرة السود والسقوف القريبة تحت الوميض الأخير للشمس الغاربة هيكل القباب الصغيرة التي كانت تغطي جبل صهيون ، عند خروجه من إسطبل الشؤون رأى بدلاً من هذه الرؤوس المطأطئة القامات العربية الجميلة ، وبدلاً من الأثواب الضيقة ، رأى الأرواب الفضفاضة النبيلة للعربي ، ومن ثم أطلق المدفع من الحي المسلم ليعلن عن رؤية هلال الشهر الجديد ونهاية شهر رمضان ، ولذا فإن أورشليم ستعود لتصبح من جديد سارازينية لبعض الوقت خلال يوم البيرم الديني .

***

أبحث عن وقف بو مدين في المسجد الاقصى ، إن مؤسس هذا الوقف هو حفيد «القطب الصوفي» الشهير في المغرب ، أبو مدين شعيب ، المتوفى في العام ٥٩٤/١١٩٧م ، في (العباد) ، عند أبواب تلمسان ، في الجزائر ، ويشخص بعض السادة الشاذلية بومدين بشخصية قيامية هي شعيب بن صالح ، الذي يطلق صرخة النداء إلى المهدي قبل نهاية العالم ، ثم يقتل

أخيراً في مدينة القدس وهو في طليعة جيوش المهدي (انظر أورانوس جاهربوش ١٩٧ ص ٣٠٥) . ويحصل هذا الوقف على موارده من أراضي عين كارم منذ القرن الرابع عشر (وعين كارم هو الحج المسيحي الذي يزعم أنه مكان زيارة مريم العذراء لوالدة برودروموس : وهو ما ينبغي البحث عنه بالأحرى في (جوتا) Jutta إلى الجنوب من الخليل) .

أما الزاوية فهي الزاوية الجنوبية الغربية لحرم مدينة القدس بعينها ، أي في الموضع الذي كان للكرامية خان منذ القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر ، وتلاصق المسجد الأقصى من المكان المسمى البراق (مرقاة ركوب النبي (ص) ، وهو المكان الذي وضع النبي عليه قدمه ليلة المعراج ، أي نقطة الاصطدام التي نظر منها صوب قبلته الأولى ، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا في الحلم ، صوب موضع الضحية الإبراهيمية) .

وهنالك ، على الجانب الآخر من حائط الحرم ، مسكن خدم المعبد المسيحيين ، أما الحائط ذاته ، فهو حائط المبكى . وهذا الحائط يطلق عليه Kotel ha-Ma'aravi وترجمتها العبرية حائط المغاربة أو المغربيين ، ذلك لأن الحجاج المغاربة كانوا يقيمون بهذا الوقف ، أو كما يطلق عليه بالعربية (حائط المبكى) .

***

من يستطع أن ينسج حكايات عن القدس أشبه بحكايات الخيال لا بد يكون بارعاً في تشييد عالم حكايات سعيدة وجديدة لا تنضب ، إنها الصوت المنسق ، الواقعي في الغالب ، والميتافيزيقي دوماً ، ولكنه خرافي أيضاً ، إنه لا يظللنا ، ولكنه يائس من أن يدلنا على أي شيء .

***

إن أكبر كمية للصور التي التقطت في مدينة القدس كانت من قبل مؤسسة بونفيس لصاحبها فيلكس وابنه أدريان بونفيس . قدمت عائلة

بونفيس إلى لبنان العام ١٨٦٧ وأقامت استديو للتصوير في بيروت ، والتقط ما يقارب الخمسة عشر ألف صورة في لبنان وفلسطين وسورية ومصر وتركيا واليونان ، وقام بونفيس بتسويق صوره على نطاق واسع ، وواصلت المؤسسة عملها منذ مطلع الستينيات في القرن الماضي ، حتى مطلع القرن الجاري ، وكانت لها فروع في دمشق والقدس والقاهرة .

من ناحية أخرى ، شكلت زيارة الأمير إدوارد ولي عهد بريطانيا إلى مصر وسورية واليونان في مطلع العام ١٨٦٢ بداية للدراسات الاستشراقية البريطانية . ورافق أمير ويلز في جولته تلك المصور فرنسيس بيدفورد ، الذي كان مقرباً من العائلة البريطانية المالكة ، والتقطت خلال الزيارة ١٧٢ صورة ، أقيم لها معرض خاص في لندن بتشجيع من العائلة المالكة .

***

قرأت ما كتبه بني موريس :

نحن الإسرائيليين كنا طيبين ، لكننا قمنا بأفعال مشينة وبشعة كثيرة . كنا أبرياء لكننا نشرنا الكثير من الأكاذيب وأنصاف الحقائق ، التي أقنعنا العالم بها . نحن الذين ولدنا لاحقاً ، بعد إنشاء (الدولة) ، لقد عرفنا كل الحقائق الآن . عرفنا أن زعماءنا عرضوا علينا الجوانب الإيجابية فقط من تاريخ إسرائيل . لكن للأسف ، كانت ثمة فصول سود لم نسمع عنها شيئاً . وبدل أن يبلغونا بها كانوا يبلغوننا بالأكاذيب ، وليس هناك وصف آخر لذلك . لقد كذبوا علينا عندما أخبرونا بأن عرب اللد والرملة طلبوا مغادرة بيوتهم بمحض إرادتهم (هكذا زعم رئيس قسم التاريخ في وزارة الدفاع) ، وكذبوا علينا عندما قالوا لنا إن مرتكبي مذبحة قبية هم مستوطنون غاضبون (والكلام منسوب لدافيد بن جوريون مؤسس دولة إسرائيل) ، وكذبوا علينا عندما أبلغونا بأن المتسللين الفلسطينيين إرهابيون متعطشون للدماء . وأن الدول العربية أرادت تدميرنا ، وأننا كنا الوحيدين

الذين نريد السلام طوال الوقت . (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) كذبة الأكاذيب ، يقول بني موريس محدداً دور المؤرخين الجدد في إسرائيل ، لقد حان وقت معرفة الحقيقة ، كل الحقيقة ، وهذه مهمة ملقاة على عاتقنا نحن المؤرخين الجدد .

وهناك بدأت أسمع اللاجئة العجوز وهي تتكلم ، كانت جالسة على الكنبة ، أمالت رأسها قليلاً وقالت :

وصلت فرقة مجهزة بكامل عتادها ، وحاصرت البلد على ثلاث جهات . تركوا الجهة الشمالية للهجيج ، وبلشوا سلخ رصاص ، على اللي رايح وعلى اللي جاي ، عن جنب وطرف ، كنت تشوف رصاصهم يزخ علينا مثل المطر .

قال زوجها الجالس على مقربة منها : بتذكري . . . بعد يومين دخلوا القرية ، وأقاموا مقراً للقيادة على البيادر ، ودارت مجموعة في شوارع القرية تنادي : يا عالم! يا ناس! كل واحد يسلم ويطلع على البيادر .

إيه سمعتهم . . .

يوم تقابلت فيها البواريد الطليانية المبردة بالمترليوز الانجليزي . . . كانت أخبار دير ياسين والطنطورة قد وصلت إلى أم الزينات ، كنا نسمع عن اليهود إنهم بيقتلوا الأطفال وبيبعجوا المرأة الحبلى بالسكين . . . ما بقي في راسنا عقل ، لما شفنا أول واحد منهم حامل بارودته وبيقطع شوارع بلدنا . . . ما بقي في راسنا عقل ، صدقنا وما صدقنا . . . كنا نقول منعرفهم من حيفا ، من يكنعام ، يوم يوم عايشين معهم ، ما صدقناش ، لحتى شفنا في عيننا ، كان مختار البلد ، يوسف العيسى ، جالساً في بيته . دخل عليه جندي وطلب منه أن يمثل أمام القائد ليسلم القرية . أخرجه من بيته وهو يحمل الشرشوح ، ملحفة بيضة على عراط طويل ، ويقطع الطريق إلى البيادر ليقابل حضرة الضابط يهودا من « يكنعام »

الكمبانية ، التي تبعد عن القرية أربعة كيلومترات . لم يشفع له أنه يعرفه من قبل ، وأن حق الجيرة على الأقل يتطلب من يهودا أن يحترم جاره القريب في هذه الظروف الصعبة التي «أصبح فيها رأس مال الزلمة فشكة مصدية» .قال له : أنا بصفتي مختار البلد ، مسؤول عنها . فسأله الضابط يهودا : وأين أهل البلد؟

فأجاب : أنا أهل البلد شو بدك مني؟

فقال الضابط : بدي إياهم ييجوا على البيادر ، روح صيح يطلعوا على البيادر .

فمشى المختار وإلى جانبه ثلاثة من الجنود وهو يصيح : يا أهل البلد اطلعوا سلموا على البيادر!

وكان معظم الأهالي اكتشفوا «باب الجهة الشمالية المفتوح» فحملوا ما استطاعوا حمله ونزحوا .

سأل الضابط المختار : -البلد كبيرة . وين باقي الناس؟

وكشف له المختار أن «الناس خافت من القواس فهربت في انصاص الليالي» . وطلب من الضابط ، بحق الجيرة ، والمعرفة القديمة ، والخبز والملح أن لا يهجر من بقي في القرية ، لكن «الضابط ملعون ، بده يزيح الناس» ، فقال له : «لا أستطيع أن أبقيك ، لأنني لا أحمل الأوامر بأن أبقيك هنا» .

كان الضابط يهودا من يكنعام فلم يجبره على الخروج من الجهة الشمالية ، ترك له حق الخيار « لأي جهة بدك تروح » . واختار يوسف العيسى . . . خربة أم الدرج .» بعد دقائق سمعنا طلقات رصاص ، عن مسافة كيلومتر . . ثم دخلت فرقة ، وين ما شافوا واحد ، قوسوه ، قتلوا أربعة ، واحد أجوا عليه وهو نايم في الفرشة واللحاف . قوسوه . . . متزوج وعنده أولاد . . . اسمه محمد السليم الحردان ، إسماعيل العرف «كان زلمه جهام ، وكان يملك دارين، واحدة في أم الزينات وواحدة خارجها» . من

يعرف أين إسماعيل العرف، وفي أي دار يسكن، في أم الزينات أو خارجها؟ هدموا بيته الأول وهدموا بيته الثاني. بينما كان في طريقه إلى «العزبة»، أوقفته مجموعة من الجنود، على مسافة أكم متر من القرية، كان هناك شاب مهزوم من البلد ومتخبي في جب سريس. سمعهم بيسألوه: «وين رايح؟ قال لهم: رايح على العزبة أطل عليها! قوسوه، وقتلوه، جثته مدفونة في السنسلة». الحج عبد الغني كان أغنى رجل في أم الزينات. كان يبلغ الثمانين من عمره. بينما جلس في بيته وحيداً، دخلوا عليه، فاستقبلهم كما تعود أن يستقبل الضيوف. تفضلوا!

- ماذا تفعل هنا؟-هذا محلي. تفضلوا اشربوا قهوة. وشربوا القهوة... وبعدها قوّسوه وقتلوه. وخرجوا من بيته، ودخلوا دار الشيخ يوسف، وكان في البيت شاب شو شاب، زلمه قديش بابنا عالي، ما كانش يفوت من هالباب، كان يشتغل في الاي. بي. سي. فتشوه فوجدوا معه دفتر تسجيل. فأخرجوه من البيت وأخذوه إلى الزيتون، وهناك قتلوه. والقول إنهم ذبحوه بالسكين.

***

حين أضع إدوارد سعيد أمام أبطال الرواية الآخرين، أفكر بلحظات المواجهة هذه، وهي لحظات ارتباك وتداعي في الهوية وفي العلاقة بين الأنا والآخر. إن الهوية في السيناريو الاستعماري ليست نتاج التضاد بين المستعمر والمستعمَر دون شك، إنما تتشكل من خلال المساحة المربكة بينهما.

كنت أفكر بهذه التعقيدات والارتباكات التي تتشكل في هذه النقطة بالذات، فتبادل الأدوار لا يعني أن هنالك تقسيماً مرتباً للهوية، إنما هنالك تكرار، وهنالك خيال وهمي، حيث يكون المرء في موقعين في اللحظة ذاتها، وهنالك التطابق الذي لا يكون تثبيتاً لمعطى مسبق عن الهوية، بل هو

نتاج خيالات وصور وتحولات تحدث للمرء وهو يحاول تلبس تلك الخيالات ، ولذلك كنت أفهم ما كان يريده خالد في قصة غسان كنفاني عائد إلى حيفا ، وكنت أفكر كذلك في إيستر التي تصبح انطباعاتها وتوقعاتها وتمنياتها وندمها جزءاً من هذه الهوية المتحولة والمتنقلة .

***

كنت أقرأ هذه المقاطع المهمة من رحلة لامارتين : لقد ضاقت المدينة من جهة جبل صهيون ، وقد تم توسيعها بلا ريب من جهة الشمال لتعانق في نطاقها الموقعين اللذين صنعا عارها ومهدها ، وهما موضع تعذيب الصادق Justc وموضع بعث الإنسان-الرب .

كانت الأرض حول المدينة قد قلبت حديثاً بسبب قبور شبيهة بهذه ، وكان الطاعون يضاعف من عددها كل يوم ، وكان الصوت الوحيد المسموع خارج أسوار أورشليم هو النحيب الرتيب للنساء المسلمات وهن يبكين موتاهن . ولم أكن أعلم أن الطاعون هو السبب الوحيد لهذا العواء في الشوارع ، ولهذا الصمت العميق الذي يلف أورشليم ، ولم أكن أظن ذلك ، لأن العرب والأتراك لا يستسلمون لمصائب الله ، لقناعتهم بأن الإنسان لن يفلت من مصيره أينما كان ، وليس هناك من طريق تنأى بهم عنها - إنه لتفكير رائع ، ولكن يا ترى من الذي يؤدي بهم إلى النتائج الوخيمة!

على جهة اليسار من السطح والمعبد وأسوار أورشليم ، تنخسف الرابية التي تحمل المدينة فجأة ، وتتسع ، وتتحول أمام الناظرين منحدرات خفيفة تسندها هنا وهناك بعض الشرفات من الأحجار المكورة .

تحمل هذه الرابية عند قمتها أو على مبعدة مائة قدم من أورشليم ، مسجداً ومجموعة من الصروح المسلمة ، التي تشبه إلى حد ما ضيعة صغيرة في أوربا ، متوجة بكنيستها وناقوسها .

***

كنت أريد أن أصل في الرواية إلى مشهد آحاد هعام، وأن أصل إلى أفكاره التالية:

يجد آحاد هعام أن الدواء يوجد في الداء نفسه، أي القومية العضوية بعد تهويدها. ويرى آحاد هعام أن الدين اليهودي، على الرغم من جموده الذي سقط فيه، كان مهيئاً أكثر من أي دين آخر لعملية التحديث، فهو دين عقلاني جماعي يؤكد أهمية العقل والجماعة (وليس كالدين المسيحي الذي يؤكد أهمية الإيمان والفرد). كما أن عقيدة التوحيد في نظره هي في جوهرها اكتشاف مبكر لوحدة الطبيعة، ولفكرة القانون العلمي والمعرفة العلمية التي تتجاوز الإحساس المباشر. (وما يتحدث عنه آحاد هعام هو في واقع الأمر الواحدية الكونية)، فهو يشير إلى أن الفريسيين الذين صاغوا اليهودية الحاخامية رفضوا كلاً من الأسينيين (دعاة الروح) والصدوقيين (دعاة المادة)، وزاوجوا بينهما (أي وحدوا الروح والمادة وألغوا الثنائية التي تسم الأنساق التوحيدية، وأحلوا محلها الواحدية الحلولية الكونية الكامنة في كلٍّ من العبادات الوثنية القديمة والعلمانية الحديثة)، وهذا هو الإنجاز الذي حفظ اليهودية على مر العصور.

***

كنت أبحث عن المقالة التي كتبها خوسيه سراماغو عند زيارته لفلسطين، قال فيها إنه كان أثناء تجواله بين المدن الفلسطينية يشم رائحة الغاز، في إشارة إلى أفران الغاز النازية التي أحرق فيها اليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية، والإشارة إلي أفران الغاز أو المحرقة هي الكلمة الحقيقية التي يمكن وصف الحالة التي يعيش فيها الفلسطينيون.

وقرأت ما كتبه عاموس عوز، وقد كان منحازا تماماً وغير منطقي بالمرة، هل أن بوخنفالد كان مغلقاً منذ زمن طويل، ألم تكن المعاملة التي يتعرض لها الفلسطينيون مروعة؟ وأفضل ما شهدته هو الرد الذي كتبه ريكو ألبا

على عوز حين وصفه باليساري المشكوك فيه!

***

قرأت ما كتبه ريكو ألبا :

نحن نسمع للكوسوفيين أن يكرهوا مضطهديهم من الصرب ، ونفهم أن الهوتو قد يكرهون التوتسي ، وأن البربر قد يكرهون العرب ، والسود قد يكرهون البيض ، وقد نسمح للتيموريين والأكراد بأن يكرهوا جلاديهم . كما نسمح بالطبع لضحايا الإرهاب أن يكرهوا منظمة إيتا وبن لادن . ولكن الفلسطينيين محرومون من كل هذا . فلو قام أي جندي إسرائيلي متحصن خلف دباباته بتركيع شاب فلسطيني وربط يديه من خلف ظهره وتكسير عظام يديه بكعب بندقيته ، فإن الحقد الذي يشعر به هذا الفلسطيني يجعل ما قام به الجندي مبرراً وشرعياً وقانونيًا .

***

باركني الله بلعنة اليهودي التائه . موهبة التجوّل في شوارع أرضي ومدينتي .

المسير في شوارع أورشليم

لأنوخ تيلر

***

فتح إدوارد سعيد الباب . رحلة العقل تناسبه . ربما يغيب عن الاتجاهات ، فيصطدم بأعمدة المصابيح . مسيرة القدس . . . تجربة فريدة . التلال في كلّ مكان ، المسير على الأقدام ولا انتظار الحافلة ، يمشي في القدس ، «قدسه» كما يقول آنوخ تيلر .

***

حلمت بأني أمشي في الشوارع وأقرأ الأسماء . . . أمشي كي أعبر متنزه ماديسن ، وليكستغتن ، ثم أذهب إلى هانفائيم ، إلى شارع الأنبياء ،

إلى شفتاي يسرويل ، إلى قبائل شارع إسرائيل ، إلى شمويل هانفي ، إلى صمويل النبي ، كلّ خطوة قفزة إلى الماضي ، أشعيا ، حزقيال ، أرميا ، هذا الشارع يسمّى على اسمه!

أين محمد؟

حذفوا كل ما هو مسلم وكأن الكولنيالية الغربية حلت محل كل شيء .

***

من يستطيع التفكير بشأن إشارات المرور بينما تنسخ في رسالة الأيام من الماضي؟ نداء إشعيا «يتصرّف بشكل مستقيم ، يريد العدالة ، يشعر بالارتياح للمضطهدين ، يحكم اليتامى ؛ ويتذرّع للأرملة ، أصداء خلال الشارع . رثاء أرميا وحزقيال ، تتخلّله رؤى القير» .

***

كنت أبحث في هذا الفراغ التاريخي عن هجرة إبراهيم ، كانت أقصر من الصباح ، شعلة منطفئة ، جلب ابنه الوحيد ليضحي به .

شوارع القدس ، البحث عن أشياء خاصة ، ملصقات قديمة . أفكار ، أمشي في الشارع ذاته ، أمتنا تضحي بنا . . .

***

كنت أقرأ : إن السبب الحقيقي لرفض مثقفي إسرائيل الاعتراف بحق العودة للاجئين الفلسطينيين ، ليس خشيتهم من أن يتحولوا إلى أقلية أثنية كما ذكروا في بيانهم الشهير ، بل ينبع من حرصهم على «نقاء التركيبة السكانية للشعب اليهودي» ، وهذه فكرة محورية في فكر حزب العمل الإسرائيلي الذي ينتمي إليه معظم الموقعين على البيان ، وذلك في مقابل فكرة قداسة أرض إسرائيل بغض النظر عمن يقيم عليها من سكان ، وهي فكرة يتبناها حزب الليكود . أما الزج في قضية اليهود الذين

'هربوا وطردوا' من البلدان العربية في العام ١٩٤٨ ، فليست أكثر من محاولة للتشويش على قضية اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة ، فاليهود العرب غادروا البلدان العربية بترتيب بات اليوم مكشوفاً بين حكومات ذلك الزمن وأنظمته ، وبين زعماء إسرائيل آنذاك .

***

كتبت إلى زينب نصري التالي :

نعم أعرف الكثير عن الذعر الذي أحدثه توم سيغف وآفي شلايم وإيلان بابه وسيمحا فابلان وغيرهم ، لقد جاء المؤرخون الجدد في إسرائيل لنقض الرواية الإسرائيلية الرسمية حول إقامة الدولة العبرية ، وليكونوا شهوداً على عدم وجود أساس أخلاقي قامت عليه الحركة الصهيونية ، أولاً وبالتالي دولة إسرائيل . ولكنهم الآن متطابقون في أفكارهم كلياً مع رأي السياسيين الإسرائيليين الذين أدانوهم في كتبهم .

***

نعم . . . في منتصف السبعينيات منعت الرقابة على كتب المسؤولين الإسرائيليين نشر مقطع من كتاب إسحاق رابين «سجل خدمة» ، الذي أشار فيه إلى عملية الطرد عندما كتب :

«كرر آلون السؤال : ماذا نفعل بالسكان؟ - سكان اللد والرملة - عندها أشار بن جوريون بحركة من يده تعني الطرد» . فقد تم حظر كل ما يمس أسطورة الصهيونية في تأسيس «إسرائيل» ، على اعتبار ما جرى في فلسطين في عام ١٩٤٨ هو انتصار لحركة التحرر اليهودي في مواجهة الانتداب البريطاني ، وفي مواجهة الخطر العربي .

لقد قامت الرواية الصهيونية على فكرة الخلاص من «الشتات اليهودي» بإقامة «دولة يهودية» في فلسطين ، وفي هذا الإطار تم تجاهل البلاد التي توجهت إليها الهجرة تماماً ، وبخاصة وجود الفلسطينيين ، وتم

إنتاج أسطورة البلاد الفارغة .

لقد كُتب تاريخ الاستيطان بمعزل عن وجود البلاد ذاتها ، من خلال تجاهل الوجود الفلسطيني . . .

وهكذا كنت أقرأ رواية يائيل دايان وهي تدور كلها في الصحراء الفارغة ، وربما ظهرت نظرية فراغ فلسطين من أن الحروب الصليبية قد قضت على الوجود العربي في فلسطين ، ولا تتحدث يائيل ديان في روايتها الغبار سوى عن الصحراء وفضاءاتها الفارغة لتأكيد نظرية فراغ فلسطين ، فـ(الخضرة أجنبية بالنسبة للمكان ، كالآلات والناس ، وفي المساء أضيف لهم صوت مولد الكهرباء) إن الوجود العربي في الرواية الإسرائيلية وجود غائب ، كثيراً ما يطرح بصورة بدو ، وهو الشيء ذاته عند عاموس عوز ؛ فحين يتحدث عن الكيوبتس لا تجد بالقرب منه إلا البدو والأفعى والرجل ذا العين الواحدة .

***

قلت له ولكن بن غوريون يقول : لا قيمة لإسرائيل بدون القدس ، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل ، وهذا يعني الموت ، سنصل حتماً إلى جملة بطل رواية يورام كانيوك ، يوسف الذي يقول : العربي الجيد هو العربي الميت ، ومع ذلك بقي لدي العديد من النقاط التي أردت مناقشتها حول قانون ملكية الغائب ، وهو القانون الذي يصرّح بأنّ الأرض التي تركت من قبل العرب في فلسطين قبل إنشاء دولة إسرائيل ، تعود إلى دولة إسرائيل الآن . فماذا عن خطة بيلين التي تقترح إنشاء دولة فلسطينية ، ويصبح أبو غير الحيّ العربي في القدس عاصمة الولاية الجديدة .

***

وهذا ما فعله بني موريس الذي تمنى في مقال نشر له منذ أسابيع ، لو أن «بن جوريون» استكمل عملية طرد الفلسطينيين إلى نهايتها ، فما كانت

«إسرائيل» تعاني ما تعانيه اليوم حسب منطق بني موريس .

يعتقد البعض أن النص الأدبي يعد وثيقة قادرة على التعريف بالبيئة المجتمعية التي أفرزته ، فهل يمكنني أن أعد هذه الروايات المكتوبة هي وثائق تقوم على نقض الرواية الإسرائيلية .

وهكذا كنت أقرأ رواية شفارتس والمعاناة التي تعرضت لها حوا جوتلب ، بطلة روايتها حين أحبت محمود الشاب العربي ، وهكذا كنت أريد من إيستر أن تنوه في ذهنها على الأقل عن هذا الأمر ، حين رأت إدوارد سعيد وقابلته في أورشليم ، ففي ذلك الوقت كان يائيل قد خانها مع سائحة أميركية ، وبالطريقة ذاتها التي تحدث فيها يهودا عميخاي في روايته ، فهل يمكن أن تكون إيستر أيضا حوا جوتلب في رواية شفارتس .

الأمر مختلف هنا دون شك ، وأنا أصور الحالة كاملة في ذهنها ، أو وأنا أحاول أن أرسم تطورها ، ذلك أن الأمر يمكنه أن يسير بشكل طبيعي مع إيستر ، ولكن الأمر مختلف تماماً حينما تحب أيستر شابًا عربياً ، وربما ستكون الضحية الأخرى بعد حوا جوتلب ، فهنالك ، عنصرية وعدائية لا تحتمل في الثقافة اليهودية والإسرائيلية ضد العرب ، ولذلك جعلت شفارتس روايتها تدور في الكيوبتس ، ذلك إن الكيبوتس ، في وهم معظم الإسرائيليين ، يعدُّ المكان الأكثر تقدماً وتسامحاً ، في إسرائيل ، فبعد أن تحمل تجبر على إسقاط الجنين لأنه من عربي .

***

قلت لها اليوم نعم لم يصل أحد منهم إلى ما كان يصبو إليه فلم أتوا هنا؟

كنت أفكر تلك اللحظة وأنا أقول لها هذا بعميخاي ذاته ، الكاره لوجوده في أورشليم ، إنه يقيم في أورشليم ، ولكنه يبحث عن أورشليم أخرى . . . وهكذا كتبَ : إنني مقترب من عمر موت أبي ، ووصيتي أن

ترقع رقع كثيرة ، يجب أن أغيّر حياتي وموتي ، يوماً بعد يوم .

قالت لي زينب نصري : نعم أؤيدك بهذا وقرأت لي قصيدة لدفو آمير تقول فيها إن هذه الأرض المرتجة تريد أن تستريح عند رقبتها؟ السكين والخنجر والرمح وهي تحاول أن تلوث حياتهم . . . وهنالك أيضا شيمون عداف الذي ولد في مدينة سديروت ، حيث هاجر والداه من المغرب يقول حالماً بالعودة إلى المغرب موطنه الأصلي : يا والدي من هو الذي يخطىء الهدف مأخوذا بالحب . .كما الانحناء على كتاب . . ويمكننا قراءة ذلك أيضاً من خلال القصص الريبورتاجيه ، التي تصف بدقة وثائقية قصص صراع المستعمرين الصهاينة ضد البيئة الغريبة عنهم و ضد الفلسطينيين .

***

كتبت لصديقي أسعد في أميركا بأني قرأت كتاب عاموس عوز تاريخ الحب والظلمة ، ووجدته منحازاً مثل كل ما كتب ، وذكرته بقصته الشهيرة التي يتحدث فيها عن العرب الذين ينتقلون قريباً من الكيوبتس الذي يعيش فيه ، ومن ثم يروي قصة غيئولا ابنة التاسعة والعشرين ، التي تقابل في البستان شاباً بدوياً تشتمه دون إرادة منها ، وتسيء فهم مسالمته ، وفجأة تشعر بغضبه ، وتنتابها بعد اختفائه حالة غضب وهيجان جسدي ، وتريد أن تطلب في الاجتماع معاقبته بسبب محاولة اغتصاب مزعومة . وتتداعى بالطبع وتلدغ من أفعى ، وتتحقق لها نهاية سعيدة بينما شباب الكيبوتس ، ومن ضمنهم الراوي ، ينطلقون لمهاجمة البدو .

إنه يتكلم عن الفلسطينيين ، ولكنهم بدو ، وذليلون وبلا ملامح فردية؟

مثله مثل الكتب الاستعمارية الأخرى ، وهكذا يمكنك أن تقرأ نص شاتوبريان :

كنا نحبس كل نهار أمام الأبواب الرئيسة لأورشليم ، ونطوف حول

الأسوار ، مارين أمام جميع أبواب المدينة الأخرى ، فلم يكن يدخلها أو يخرج أحد منها ، فلا متسول يجلس عند حدها ، ولا حارس يظهر على عتبتها ، ولم نكن نرى ونسمع شيئاً ، فالفراغ هو ذاته ، والصمت هو ذاته طوال ساعات النهار عند مدخل المدينة التي يسكنها ثلاثون ألف نسمة ، وعندما كنا نمر أمام الأبواب الاثني عشر ، كنا كمن يمر أمام الأبواب المتينة لبومبي Pompei أو هير كولاتوم!

ولم نر سوى أربعة مواكب جنائزية تخرج صامته من باب دمشق ، وتتجه على امتداد الأسوار نحو المقابر الإسلامية . وشاهدنا عند مرورنا أمام باب صهيون مسيحياً فقير الحال مات بالطاعون ، في هذا الصباح ، وقد حمله أربعة من حفاري القبور إلى مقبرة الإغريق ، مروا قربنا ومددوا جثة الميت على الأرض ، وقد لفت ثيابه ، وشرعوا بحفر مرقده الأخير بصمت عند أقدام جيادنا .

***

إيستر تتأمل التاريخ بشكل مختلف تماماً عن يائيل ، فهي تدرك بشعورها وليس بوعيها ، إنه خطاب لا يمكن التعامل معه على أنه موجود وموصف ومعين على نحو كامل ، إنه خطاب سردي تم تشييده باختراع الماضي ، إنه من المخيلة .

كلما كنت أتقدم كنت أشعر أن المؤرخ يحكي الماضي عبر حبكات مرممة بوثائق ، فهو تأويل للوثيقة والتصرف بها وليس واقعاً مطلقاً ، ومن هنا تتم عملية إنتاج الهوية وصناعتها ، من هذا المكان المتوهم تتحرك الهوية نحونا عبر الماضي المؤول من قبل السارد ، وعبر الوثيقة التي يتم التصرف بها طبقا إلى المساحة التي تتيحها العملية السردية ذاتها .

***

نعم كان إدوارد سعيد وهو يزور القدس يشعر أن مفهوم الهوية موصول

نحونا عبر عمليات سردية متعددة ، وهو خطاب يطرح مفهوماً احتوائياً وتضمينياً لجماعة ما يدعي تشابهها واتساقها ، ويطرح في الوقت ذاته مفاهيم متعددة لغيريتها واختلافها ، حيث يتفوق التشابه على الغيرية الفردية ، وتتفوق الغيرية الجماعية على كل تشابه واتساق بين الجماعات .

***

أرسلت لي زينب نصري الوثيقة النادرة التالية :

فتوا خانه عالي يه ربيع الآخر ١٠ سنة ٣٢٠ مهري مطابق ومالي بروجه محرر وقف مذكوري بباندن عبارت ايدوكي في ١٥ ربيع الآخر سنة ٣٢٠ مميز اعلامات شرعية ، أمين فتوى طبق أصله ترشيحي زاده على عطا الله النائب بمحكمه محمود باشا بدار الخلافة العلم نمقة الفقير اليه عز شانة أعلى عطا الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد ، فهذا كتاب وقف صحيح شرعي وحبس صريح مرض اكتتبه الفقير اليه سبحانه الراجي عفوه وغفرانه الشيخ الإمام العالم الفاضل الورع الزاهد الخاشع السالف العارف القدوة ابو مدين شعيب ابن سيدنا الشيخ الصالح العامل المجاهد أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام بركته المسلمين حجة الله بقية السلف الصالحين أبي مدين شعيب المغربي العثمني المالكي نفع الله ببركته وفسح بمدته واشهد على نفسه الزكية وهو في صحته أنه وقف وحبس وسبل وابد وتصدق وحرم وحرر وأكد جميع المكانين الآتي ذكرهما ووصفهما وتحديدهما فيه الجارين في يد الوقف المذكور وملكه وتصرفة وحيازته الى حين هذا الوقف يشهد بذلك من يعينه في رسم شهادته بأخر هذا الكتاب المبارك وأحد المكانين المذكورين وهو قرية تعرف بقرية عين كارم من قرى مدينة القدس الشريف وتشتمل على أراضي معطل وعامر وداثر وأوعار وصخور صلد لاتراب عليها ولا ينتفع بها

زرع وكل آثار دور برسمها وبنيان بأراضيها وسيقان صغير وأشجار ران وغير ذلك يستقى من مائها وأشجار زيتون رومي وخروب وتين وبلوط وقيقب ولها حدود أربعة تجمعها وتحصرها وتحيط بها الحد القبلي منها ينتهي الى المالحة الكبرى والحد الشمالي ينتهي الى بعض أراضي عين كادوت وقلونية وحاراش وصافان وزاوية البختياري والحد الغربي ينتهي الى دين الشقاق والحد الشرقي ينتهي الى بعض أراضي المالحة الكبرى وبيت مزميل بجميع حقوقها ومارفقها ومزرعها ومفلحها واندرها ودمنها والعين الموجودة بها والنرازة والأشجار الثانية بها والآبار الحزية وقرامي العنب العتيقة الرومية وما ينسب للقرية المذكورة وبكل حق هو من حقوقها داخلا منها وخارجا عنها منسوب اليها خلافا ما في ذلك من مسجد الله تعالى وطريق المسلمين ومقبرتهم فإن ذلك خاج عن هذا الوقف وغير داخل فيه وأما المكان الثاني الموقوف فيه فإنه بالقدس الشريف بخط يعرف بقنطرة ام البنات باب السلسلة المشتملة على إيوان وبيتين وساحة ومرتفق خاص وسفلي ذلك مخزن وقبو ولذلك حدود أربعة معلومة وقفا صحيحا شرعيا قاطعا ماضيا صريحا مرعيا وحبسا سرمدا وصدقة جارية معروفا مؤكاد وسبيلا خالصا لأهله مؤبدا والمستحقين على الدوام وقفا عليهم ولهم مرصدا محرما بحرمان الله العظيم ابتغاء لوجهه الكريم وطالبا لثوابه العميم يوم يجزي الله المتصدقين لايباع ذلك ولاشيء منه ولا من حقوقه ولا من حدوده ولا يملك ولا ينقاد ولا يمل عقد من عقوده و لا يرجع هذا الوقف لغير أهله ولا يعوض على غيرهم ولا يتبدل محفوظا على شروطه المبينة لا يبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر كلما مر عليه زمان أكده وكلما اتي عليه اات بينه وسدده أبد الأبدين ودهر الداهرين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين إنشاء الواقف المذكور أعظم الله له الأجور وقفه هذا على السادات المغاربة المقيمين بالقدس الشريف والقادمين

إليها من السادة المغاربة القادمين على اختلاف أوصافهما وتباين حرفهم ذكورهم واناثهم كبيرهم وصغيرهم فاضلهم ومفضولهم لا ينازعهم فيه منازع ولا يشاركهم فيه مشارك ينتفعون بذلك بالسكن والإيجار وسائر الانتفاعات والمقاسمة والمزارعة على الضيع المذكورة ، ويقدم في ذلك الواردون على المقيمين والأحوج فالأحوج والأدين فالأدين فإذا انقرضت المقاربة ولم يوجد منهم أحد مقيما بالقدس سواء كان ذكرا أم أنثى فيرجع وقفا على من يوجد من المغرابة في مكة المشرفة زادها الله شرفا وعلى من يوجد منهم بالمدينة المنورة فإذا لم يوجد منهم أحد باكر مين الشريفين فيرجع وقفا على الحرمين الشريفين وشرط الوقف النظر والتولية على هذا الوقف لنفسه مدة حياته ثم من بعده لمن يوجد رشيد من جنس المغاربة المقيمين بالقدس الشريف ويشهد له بالرشد والتقوى وقد أعد المكان الثاني المتدرج في هذ الكتاب زاوية سكنا للواردين الذكور من المغاربة وليس لإناث المغاربة الواردون ولا لذكور المغاربة المقيمون ولا لإناثهم السكن في المكان المذكور وعلى كل من يتولى هذا الوقف أن يبدأ بعمارته وإصلاحه وصلاحه وترميمه ومافيه بقاء عينه ومزيد مغله وربعة إلا تواجز القرية مع أماكن استقلالها والمقامة عليها أكثر من سنتين ولا يستأنف عقد حتى ينقضي العقد الأول وقد شرط الواقف أنه بعد الفايض من التعميرات أن يعمل المتولي في الثلاثة أشهر وهم رجب وشعبان ورمضان خبزا ويفرق في الزاوية على المغاربة لكل قادم من الغرب ومقيم من المغاربة بالقدي الرشيف جوازي رغيفان ذكورا وإناثا عند التفريق الخير بعد صلاة العصر يقرا الى حزين سبع فواتح والاخلاص والمعوذتين ثلاثا ويهدي ثواب ذلك الى حضرة النبي (ص) ولأصحابه ولأتباعه ولروح الواقف ولجميع ما ينسب بالخير في هذا الوقف وشرط الواقف إطعامية في عيد الفطر وفي عيد الأضحية وفي المولد الشريف لفقراء المغربة وشرط الواقف أن يدفع

المتولى لكل قادم من الغرب محتاجا ومقيما بالزاوية ثمن كسوة تقيمه من البرد وإذا مات مغربيا ولم يكن عنده شيء فيصرف تجهيزه وتكفينه من غلة الوقف فقد تم هذا الوقف المبارك بتمام الشروط وإن كان واقف قواعده وصحة بنيانه ونفذ حكمه وإبرام لوقوعه من أهله في محله على الوجه المريض لجواز هو صله لكونه صار وقفا مؤكدا وحسبا دائما محررا مسددا ولا يملك ولايتصدق به ولا يوهب ولا يرهن ولا يناقد به ولا يتعوض عنه ولا يسلب ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه الى ربه العظيم صابرا من أمير أو مامور أو ذي سلطان جائر أن يبطل هذا الوقف ولا شيء منه ولا يغيره ولا ينمى منه ولا يقدح فيه ولا في شيء منه ولا يسعى في ابطاله ولافي ابطال شيء منه جاهر لا بايماء ولا بفتوى ولا بمشورة ولا بتدقيق حيله يعلمه بها الذي يعلم فانه الأعين وما تخفي الصدور فنحن قبل ذلك وأعان عليه فالله تعالى صليبه وحبيبه ومؤاخذه بعمله وجازيه بفعله ويلقى الله تعالى وهو غضبان عليه غير راض عنه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امرا بعيدا ويحذرهم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ومن خالف ذلك فقد عل عن امر ربه وتمرد عليه واستبيان وعيده واستحق لعنته ولفتة الله اللاعنين والملائكة والناس أجمعين فالدليل ثم الويل لمن خالفه ويقرأه لقوله تعالى فمن بدله بعد ما سحق فإنما على الذين يبدلونه أن الله تعالى سميع عليه وقد وقد أجر هذا الواقف على الله رب العالمين الذي لا يضيع أجر المحسنين وأشهد عليه أحسن الله اليه وأجرى الخيرات على يده بجميع ما نسب إليه في هذا الكتاب بعد أن قرئ عليه من أوله الى آخره وتلفظ بوقف ما عين فيه على قمم المشروع فيه في الحال والحال لشرط الشروط والنظر كما عين وبين وذلك في اليوم المبارك التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم ستة وعشرين وسبعمائة أحسن الله تنظيمها في قيد وعافية

والحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وعشيرته الطيبين الطاهرين .

اصلنه عطا بقدر

محكمة شرعية

قدس شريف

***

كنت أدرك ربما مثل إيستر ومثل سعيد أن لخطاب الهوية شعاراً غامضاً : هو العثور على هذه الهوة التي تفصلها عن كل آخر ، وتضع موضع تساؤل كل انزياح أصغر في الاختلاف إلى انزياح أكبر ، ومن غيرية أصغر إلى غيرية أكبر ، وتتحدد فيما بعد في خطاب يتمفصل من خلال انزياح هذه الهوية بوصفها نقطة مرجع ، وتقترب من الغيرية كلما تبتعد عن التشابه العام مع الجماعات ، وتتخذ آلية نظرية تغذيها خطابات متعددة كي تقابل بين غيريتها وتشابهها ، ومن هنا تتجاوز ما يمكن أن نطلق عليه الغيرية الفردية ، أو الهوية الفردية ، فهذه الأخيرة لا يمكنها أن تنوجد إلا في جزء من الغيرية ، وأن كل جزء من الغيرية هو أيضا تأكيد على الهوية الفردية ، ففي كل براديم للهوية الفردية التي تضع مفهومي التشابه والغيرية في علاقة تكامل - على الرغم من هذه العلامة التكاملية التي تربطها ، والتي تجعل الهوية الفردية متضامنة مع المفهومين وليس مع أحدهما - فإن مفهوم حامل الهوية الفردية هو الغيرية وليس التشابهية ، وذلك لأننا عندما نقابل جزءا من الغيرية مع التشابهية فإننا نطرح خطاب هوية منفردة نتجت من شد بين التشابهية وعلامات الغيرية ، فإذا ما أزلنا كل علامة للغيرية فإن التشابهية لوحدها هي حالة مستقرة موحدة وعالمية للدرجة الصفر من هوية جماعية ، وهذا من وجهة نظري الأساس المشترك لهوية كونية .

***

إن أكثر الصور التي بحوزتي هي لمحجبات، أو لنساء وراء الشبابيك المغلقة، حين درس مالك علولة في كتابه الحريم الكولونيالي عدّة آلاف من البطاقات البريدية التي أنتجها الفرنسيون في الجزائر وقيل إنها تصور النساء والعادات والتقاليد هناك، وجد أنّ صورة النوافذ ذات القضبان تتكرر كثيراً في هذه البطاقات، بحيث يتضح للناظر من غير شكّ أنَّ نساء الجزائر يعشن في سجون. أما صور النساء العاريات فتجردهن من أية طبيعة ما عدا الطبيعة الجنسية، في الوقت الذي تخلّف فيه انطباعاً راسخاً بأنّ المصوِّر قد نجح في مهنته، إذْ رفع الحجاب عن المحجَّب، على الرغم من أنّ هذه الصور مأخوذة في الاستوديوهات لموديلات من النساء. يقول علولة: وعلى هذا النحو فإن فكرة المرأة الحبيسة في دارها لا بدّ أن تفرض نفسها بطريقة طبيعية... فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة، فذلك لأنهن سجينات. وهذه الموازاة الدرامية بين التحجّب والحبس ضرورية لبناء سيناريو متخيَّل يفضي إلى تصفية المجتمع الفعلي الواقعي، هذا المجتمع الذي يسبب الإحباط، واستبداله بوهم «وهم الحريم».

***

«هيرتزوغ» تتحدث عن موسى هيرتزوغ الذي تتركه زوجته وتهرب مع أعز أصدقائه؛ فيجلس ويبدأ في كتابة رسائل إلى شخصيات العالم الكبرى، «القبض على النهار» و«الطبق الفضي» و«شيء لتتذكرني به» عالم من الشخصيات اليهودية، التي يلعب فيها انتماؤها اليهودي دوراً بارزاً... ولا أدري لماذا ذكرتني برواية «عربي جيد» ليورام كانيوك، والتي تتناول شخصية يوسف المطلوب من الإسرائيليين ومن جهاز مخابرات عربي، وهو يعيش في باريس تحت اسم مستعار، وهناك يكتب سيرته الذاتية، وكانت السلطات الإسرائيلية قبل بضع سنوات قد رفضت إلحاقة في الخدمة العسكرية: ويكون تدوين سيرته الذاتية محاولة متأخرة لإعادة

إنتاج هويته الشخصية والقومية . . .

***

قلت لها أريد أن أفصل العملين تماماً ، ما أريده هو أن أعيد رواية إبراهيم بن يوشوا بطريقة مختلفة ، فهو الذي يعرف الفلسطينيين وبالتالي فقد أجاد التعريف بأدم :

أدم ، الذي أصبح إسرائيلياً بعد إعلان دولة إسرائيل ، اختار لزوجته بقصد إحياء رغباتها ، عاشقاً عربياً ، وقد استخدمه في ورشة تصليح السيارات التي يمتلكها ، ووثق به ، واسمه حميد ، وأعطاه مفتاح الورشة فوراً ، ولكن الثقة تبدأ بالاهتزاز شيئاً فشيئاً ، من هنا أحاول أن أثري شخصية نعيم الخادم الصغير الذي يتعلق بحميد ، بينما يحبه آدم لأنه يجد فيه صورة ابنه الميت ، غير أن نعيم يغرم بابنة آدم ، وهكذا يسمح آدم لنعيم بمضاجعة ابنته ، مثلما سمح لحميد بمضاجعة زوجته ، وإن كان نعيم قادراً على التعبير عن نفسه ، ذلك لأنه له صوت يكافئ الشخصيات اليهودية الأخرى ، إلا أنه يعبر عنها من خلال رؤية مفصلة عليه ومقحمة على شخصيته ، فهو موصوف ومعرف من قبل اليهود ، ولكنه لم يكن شخصية صامتة ، إنما له القدرة كذلك على رؤية الأحداث المحيطة به ، وكذلك له القدرة على وصف الشخصيات اليهودية ، وإن كان مفتتناً بحياة اليهود : ملصق الفتيات الجميلات في ورشة العمل ، الطعام في بيت آدم ، حبه لقصائد بياليك والترمان ، غير أنه يدرك أن اليهود لا يعرفون العرب ويطلبون منهم تأدية واجباتهم بميكانيكية ، مع ذلك أراد بن يوشوا أن يصل إلى قطيعة حقيقية بين الشخصيات في عدم القدرة على الالتقاء النهائي بين الشخصيات ، فيمكنهم أن يعملوا معاً ولكنهم لا يمكنهم التعايش مطلقاً ، وهكذا يطرد آدم نعيما ، ولكن المطرود الذي جاء بلا أمل يعود وهو مملوء بالأمل .

***

ربما كان لامارتين أول من أشار إلى عودة اليهود لاستيطان فلسطين ، فكرة استعمارية بالكامل ، وكانت أفكاره تنضح باستعماريته وأنا أقرأ رحلته إلى القدس ، وأتتبع مساره ، فحين قرر السفر أخذ العبيد واستأجر سفينة شراعية ، وطاقماً من البحارة يقدر بخمسة عشر رجلاً ، وأخذ مالاً يكفي لحياة المجموعة الكبيرة التي رافقته ، فضلاً عن مكتبته الضخمة . وعند وصوله صار ينفق بلا حساب ، وقد توافق يوم مغادرته في حزيران ١٨٣٢ مع نهاية الجمهورية اليونانية ، وكذلك مع بداية الحرب التركية المصرية ، وبعد توقف قصير في نابولي وفي أثينا وصل لامارتين إلى بيروت في السادس من أيلول ، وقام في الفترة التالية بأول جولة له في الجبل ، فزار الليدي ستانهوب ، والأمير بشير الشهابي الحليف الجديد للباشا إبراهيم ، وبيت الدين ، وحصل لامارتين في الأول من تشرين الأول على توصية إلى أبي غوشه الذي كان يهيمن على مشارف القدس ، وغادر لامارتين بيروت دون زوجته متجها إلى فلسطين ، ولكن الطاعون الذي كان يحاصر المدينة المقدسة أجبره على أن يؤدي زيارة خاطفة(يوم العشرين من تشرين الأول) ، ثم عاد إلى بيروت في الخامس من تشرين الثاني ، فقضت عائلة لامارتين هناك شتاء مأساويا وفي شهر آذار ١٨٣٣ سافر لامارتين إلى دمشق عن طريق بعلبك ، وقام بنزهة في جبال الأرز في بداية نيسان ، وبينما كان لامارتين في يافا للفترة من الثاني والعشرين إلى السادس والعشرين من نيسان ، وكانت زوجته في زيارة لأورشليم بعد أن أعيد فتحها ، كتب الشاعر مذكراته . ثم وصل إلى استنبول عن طريق رودس وسميرن ، وأمضى فيها المدة من السابع من حزيران وحتى الخامس والعشرين من تموز ، وعاد إلى فرنسا عن طريق غرنوبل ، وبلغراد وفينا وسترازبورغ ، ووافق لامارتين على نشر رحلته ، بعد أن أجبرته ظروفه المادية على ذلك . . . عاد لامارتين إلى تركيا في شهر حزيران في العام ١٨٥٠ ،

ليشرع في تنفيذ خطة كولنيالية زراعية ، وكان السلطان قد منحه في العام ١٨٤٩ مساحة كولنيالية ليستثمرها في إقليم سميرن .

***

إن مسجد عمر أو ساكاراه هو عبارة عن صرح رائع بعمارته العربية ، فهو كتلة من الحجر والرخام لها أبعاد شاسعة من ثمانية جدران ، وكان كل جدار مزيناً بسبعة أقواس ، ينتهي كل منها بقوس قوطي ، وفوق هذا الشكل المعماري هناك سطح على شكل شرفة ، ينطلق منه صف آخر من الأقواس أقل عرضاً ، ينتهي بقبة أنيقة مغطاة بالنحاس كانت مذهبة في السابق ، وكانت جدران المسجد مكسوة بالمينا الزرقاء ، وعلى اليمين واليسار تمتد الحواجز العريضة التي تنتهي بأعمدة مورسيكية ضئيلة تتوافق مع الأبواب الثمانية للمسجد ، وما عدا هذه الأقواس المنفصلة عن كل الصروح الأخرى ، تتواصل السطوح وتنتهي إحداها عند الجزء الشمالي للمدينة ، وبينما ينتهي الآخر عند الجانب الجنوبي ، وتنمو هنا وهناك بين المسجد أشجار سرو عالية مبعثرة ، وبعض من أشجار الزيتون والجنات الخضر الرشيقة ، فيبرز جمال العمارة واللون المتألق للأسوار بأشكالها الهرمية وخضرتها الغامقة المرتسمة على واجهات المعابد ، وقباب المدينة .

ومن وراء هذين المسجدين وموضع المعبد ، تنبسط أورشليم برمتها ، وتنحبس إن جاز لي التعبير ، أمامنا دون أن يفوت النظر رؤية سقف أو حجرة ، كما لو كانت خريطة مجسمة لمدينة بسطها فنان على المائدة .

أو هكذا أقرأ النص التالي :

لم تكن هذه المدينة كما صوروها لنا ، كومة بلا شكل ، وأطلال مهدمة ، ورماد ألقيت عليه بعض أكواخ العرب ، أو نصبت عليه بعض خيام البدو ، ولم تكن مثل أثينا سديم من غبار وأسوار مهدمة ، حيث يبحث الرحالة فيها عن ظل للصروح ، وأثر شوارع ، ورؤية لمدينة ، بل كانت

مدينة تشع بالضياء والأنوار، تعرض على نحو مهيب أسوارها السليمة المبنية، ومسجدها الأزرق بأعمدته البيض، وهناك آلاف من قبابها الرائعة التي يسقط عليها ضياء الشمس الخريفية، وتنبثق في حنان يبهر العيون، كانت واجهات منازلها قد لوحها الزمن والشمس بلون أصفر ذهبي، كما هي صروح بوستوم paestum وروما، وأبراجها القديمة كانت حارسة لأسوارها التي لم يكن ينقصها حجر أو متراس أو كوة رمي .

وأخيرا هنالك وسط هذا المحيط من المنازل وهذا السرب من القبب التي تغطيها قبة سوداء منخفضة، أكثر اتساعاً من الأخريات، تهيمن عليها قبة بيضاء أخرى، إنه قبر السيد المسيح، وموضع الصلب، وقد امتزجنا أو لنقل غرقنا هناك في دهليز القبب الشامخ والصروح والشوارع المحيطة بها، وإنه لمن الصعب أن نتبين على هذا النحو موضع الصلب، وموضع القبر، واللذين ينبغي طبقا لما يذكر الإنجيل، أن يكونا موجودين على رابية منعزلة خارج الجدران، وليس في مركز أورشليم .

***

ولدت الكونتيسة فاليري بواسيه في العام ١٨١٣ وتوفيت في العام ١٨٩٤ .

تنتمي إلى عائلة عريقة، تزوجت من إغنور دو غاسبران (١٨١٠-١٨٧١) الذي كان يمثل النبالة البروتستانتية في جنوب فرنسا، وهو حفيد أحد أنصار الجمعية التأسيسية، وابن نائب صار محافظا، ثم وزيرا مع لويس فيليب .

نشرت دو غاسباران في العام ١٨٤٣ كتابها الأول الذي كان يدور حول الزواج من وجهة النظر المسيحية، وكان بمثابة تأملات أولى حول الزواج المثالي، وقد غادرت دو غاسباران تريست في الخامس من أكتوبر في العام ١٨٧٤، ووصلت إلى اليونان وبقيت هناك حتى نهاية تشرين

الثاني ، ووصلت إلى مصر بداية كانون الأول ثم سلكت الطريق التقليدي من القاهرة صعودا من نهر النيل حتى دندور في كانون الثاني ١٨٤٨ ، وعند منتصف شهر آذار اجتازت صحراء سيناء حتى القدس ، وبقيت فيها أثناء الأسبوع المقدس ، ولكنها اضطرت لأسباب عائلية من العودة إلى بيروت دون أن تزور دمشق أو بعلبك .

لقد ظهرت رحلة دو غاسباران في العام ١٨٤٨ ، وأعيدت طباعتها في العام ١٨٥٠ ، وبعد خمسة عشر عاما أوحت لها الرحلة إلى القسطنطينية كتابا جديدا ، مليئا بالجاذبية التلقائية ، وطرحت للمرة الأولى مشكلة حياة المرأة في الشرق . لقد كانت كتابات دو غاسباران تجسيدا للطابع الأخلاقي الاجتماعي والديني ، وكانت تجسيدا للفكر البروتستاني الليبرالي في ظل الإمبراطورية الثانية .

كانت غاسباران تفرض على طاقم الرحلة المرافق لها في نهر النيل التقيد بالراحة الأسبوعية ، وكانت تقوم بتوزيع الإنجيل على البدو ، وكانت كتاباتها تتصف بشكل عام بالحيوية والحساسية والورع المخلص الخالي من التزمت ، والكثير من الانجذاب نحو جميع أشكال الحياة ، وقد كتب برشيه عن رحلتها بأنها مكتوبة بأسلوب مملوء بالسعادة والهوى وجموح الطبع الحازم والذكاء المتوقد ، ووصف موهبتها بأنها ليست خلاقة حسب ، بل إنها حدسية على نحو عجيب وتكهنية وثاقبة ، وإنها موهبة لا تبتدع إنما تعيد إنتاج الواقع بأمانة لاذعة .

***

كان يمكن ليائيل وإيستر أن يسكنا في أهوزات بايات ، حيث تأسس الحي في ١٩٠٧ ، وقد شكل يهود يافا مجتمعاً باسم أهوزات بيات ، خارج المدينة المزدحمة . وقد أعارهم الصندوق اليهودي الأموال الكثيرة ، واشتروا أرضاً قرب يافا ، وبعد عامين دمج بحيين جديدين آخرين هما نهلات

بنيامين وغيولا ، وقد شكلا تل أبيب فيما بعد ، وهو عنوان ترجمة نعوم سولوكوف العبرية لرواية هرتزل الطوباوية .

***

كان النقاش حاداً مع علاء خليل ، وكنت أوافقه أن موسى مندلسون ، الفيلسوف اليهودي الألماني ، فيلسوف التنوير اليهودي ، حاول أن يحطم «الجيتو» العقلي الداخلي الذي أنشأه اليهود داخل أنفسهم لموازنة الجيتو الخارجي الذي كانوا يعيشون فيه ، ولكن الإصلاحيين ودعاة التنوير الذين طالبوا بالتخلي عن فكرة شعب الله المختار ، تلك الفكرة التي عمقت عزلة اليهود ، فشلت تماماً ، ولذلك بقي الجيتو أساسياً في حياة اليهود ، أما تصديرهم إلى مكان آخر ، ذلك لأن المجتمعات الأوربية لم تعد مجتمعات إقطاعية متخلفة يمكن لليهود أن يعيشوا فيها كما كانوا في الماضي ، لقد دخلت المجتمعات الأوربية عصر التحديث ، وبالتالي لم ترحب بأقلية لا يمكن الاستفادة من أعضائها ، ومن هنا جاء التفكير بإبعاد اليهود عن أوروبا إلى أي منطقة في العالم . . . ولذلك جعلت الغيتو أساسياً في تفكير الشخصيات بالرغم من أن إيستر كانت ترفضه .

***

أرسلت لي زينب نصري ما قالته المطربة يافا ياركوني ، التي تعد «أم كلثوم إسرائيل» وتلقّب بـ«مطربة الحروب» . ففي تصريح أدلت به لمحطة الإذاعة العسكرية في ١٤ نيسان (ابريل) ٢٠٠٢ صدمت مستعميها عندما شبّهت الفلسطينيين باليهود أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعبّرت عن تأييدها لرافضي الخدمة الإسرائيليين بقولها : «إن ما نفعله في الأراضي المحتلة منذ ١٩٦٧ هو وراء انتفاضتهم . وإني لأفهمهم . فلو فعل أحد بنا ما

نفعله بهم، لجاء رد فعلنا مماثلاً تماماً». وقد تسبب تصريحها هذا في إلغاء حفلتها التي كانت مقررة ليوم الاستقلال.

***

مجدوا هجومهم . . . مجدوا هجومهم

هكذا يبتدأ تنيسون قصيدته الحربية، والتي حفظها إدوارد سعيد في طفولته، كان يمكنها أن تساعدني على بيان مقدار القوة التي تأسست عليها دولة إسرائيل.

half a league, half a league
Half a league onward
All in the valley of Death
Rode the six hundred
'Forward, the Light Brigade!
Charge for the guns!' he said:
Into the valley of Death
Rode the six hundred.
'Forward, the Light Brigade!'
Was there a man dismay'd ?
Not tho' the soldier knew

يخبرنا تنيسون بهذه القصيدة قصّة لواء يشتمل على ستمئة جندي ركبوا ظهور الخيول إلى «وادي الموت»، هذه القصيدة تشتمل على ستّة مقاطع شعرية معدودة تتفاوت في الطول من ستّة إلى اثني عشر، وتصور المرحلة الأولية لحرب القرم بين تركيا وروسيا (١٨٥٤ - ٥٦). تحت قيادة اللّورد رغلان، ثم دخلت القوات البريطانية الحرب في سبتمبر/أيلول ١٨٥٤ لمنع الروس من الحصول على السيطرة على البحر، وكتب إدوارد

سعيد في مذكراته أنه كان يحفظ هذه القصيدة عن ظهر قلب ، وهكذا فكرت باستخدامها بشكل ساخر ، كنت أستخدمها بالضد من هذه القوة القادمة لتقهر الأرض والبشر .

***

وأنا أضع إدوارد سعيد أمام إيستر أشعر بأن الأغيار ينقلبون فجأة إلى مجال جغروثقافي وسياسي وسوسيولوجي وديموغرافي مختلف ، وفي لحظة هي مطلقة الاعتباطية ، في لحظة تاريخية مموضعة يتحول الآخرون إلى آخرين ، أغراب ، أجناب ، ومنبوذين أيضا . إن هذه الحدود الصلبة التي يفبركها الإسرائيليون ويسردونها ويخترعونها ليست بالضرورة لها وجود محدد على الأرض ، أو وجود مادي ، أو وجود معترف به من الآخرين ، بل يكفي أن يخلقوا هذه الحدود الصلبة في ضمائرهم وثقافتهم وآدابهم وأنفسهم ، وخيالهم إن جاز التعبير ، ثم يبدأون بالإيمان به ، فهي حدود لا تستقر على الإطلاق ، إنما تتغير وتتحول خارج التاريخ وخارج الثقافة أيضا ، بل هي تتحول وتتبدل على الدوام ، لأنها مؤجلة من خلال خطابات التاريخ ومن خلال خطابات الثقافة أيضاً ، فهي في طور التكون وليست جوهراً ثابتاً ، أو مفهوماً مفارقاً أو متعالياً ، إنها متموضعة ، وهي حركة من حركات التموضع وسياسته ، فما إن تجد لها موضعاً في حركة تاريخية معينة ، حتى تغيره في لحظة تأريخية أخرى . . وتخترع الهوية ارتباطاتها : من رابطة الدم ، التي تقوم على أساس متخيل . ومن رابطة الجماعة التي تقوم على أساس سردي ، ومن رابطة الاتساق الهوياتي التي تقوم على أساس وهمي .

***

إن نقل الخطاب الهوياتي إلى المستوى الكوني ليس أمراً يوتوبياً ، بل إن الهوية الفردية ذاتها تحمل هذا المفهوم الكوني وتتضمنه ، وقد تؤشر

التشابهية العالمية غياب الخطاب الهوياتي ، وذلك عن طريق تأكيد التشابهية الإنسانية والفكرية والثقافة العالمية ، وسيكفي جزء من الغيرية التي تميز الآخر عني أن تجعل من الآخر معترفاً به على أساس العناصر التي تفرده ، فمن حيث المبدأ أن كل تأكيد للغيرية سيصبح بالتالي تأكيداً على هويتين ؛ هويتي وهوية الآخر ، وسيكون على الأقل تأكيداً على اختلاف واحد هو الاختلاف الذي يقر بعلاقة الغيرية بين أناي وأنا آخر ، وهو الاختلاف الذي يقود بالنتيجة إلى خطاب التعددية .

***

عاد فلوبير من رحلته التي قام بها إلى الشرق مع مكسيم دوكومب بمذكرات تم الكشف عنها بعد موته ، ويعود تأريخ آخر طبعة كاملة لهذه المذكرات إلى العام ١٩٤٨ ، مع أن فلوبير كان مسحوراً منذ زمن بالسراب الشرقي ، إلا أنه لم يعثر في أرض الواقع على ما يرضي أحلامه التي بقيت أحلاماً أدبية ، وفي الواقع فإن فلوبير في هذا الصدد ، كان يقف على مفترق طرق ، إذ كتب ما بين ١٨٤٥-١٨٤٦ ، حكاية شرقية تحت عنوان أبناء الدرويش السبعة ، ثم كتب ما بين آيار وأيلول ١٨٤٩ (إغواء القديس سان أنطوان) وأدت ردة الفعل المنذهلة لأصدقاء فلوبير ونصيحتهم له بالالتفات نحو موضوع أكثر تحديداً ، وذي طابع واقعي ، في اللحظة التي كان يستعد فيها للمغادرة إلى الشرق ، وقد انعكس هذا الأمر على رحلته وجعلته حاقداً على الشرق الذي كان قد شعر مسبقا بأنه قد انخدع به ، والذي لم يعد مفيداً له ، والذي صار يمثل مأزقاً أدبياً ، وبالمقابل من ماكسيم دوكومب الذي كان يكد من جميع الاتجاهات فيخط الحروف الهيروغليفية ، ويصور المعابد ، بدأ فلوبير شارد الذهن ، يقلب في ذهنه ما ستؤول إليه روايته مدام بوفاري . . . فكتب العبارات التالية :

هذا هو اليوم الثالث الذي نمضيه في أورشليم ، ولم يحصل لي بعد أي

من الانفعالات المتوقعة مقدماً ، فلا حماسة دينية ، ولا إثارة في الخيال ، ولا حقد على الكهنة ، والذي يعد هو بحد ذاته شيئًا موقعًا ، وإني لأحس أمام كل ما أراه بأني أكثر فراغاً من برميل . . . في هذا الصباح عند قبر المسيح كان يمكن لكلب أن يكون أكثر انفعالاً مني . . . على من يقع اللوم ، على رب الرحمة؟ عليهم؟ عليك؟ أو علي؟ أظن أنه يقع عليهم أولاً ، وعلي من ثم ، وعليك في الأخص . . . ولكن كم من الزيف في هذا! ويا لكذبهم! يا له من طلاء ، وتمويه ، ودهان صنعوه للاستغلال والإشاعات والترويج! . . أورشليم هي ركام جثث محاطة بالأسوار ، والشيء الأول المثير للفضول الذي التقينا به هناك هو محلات الجزارة ، فهناك داخل ما يشبه الساحة المربعة المغطاة بتلال من القاذورات حفرة كبيرة ، وفي الحفرة هناك دم متخثر ، وكروش ، حيوانات ، ومصارين مائلة للسواد والسمرة ، حرقتها الشمس وانتشرت في كل مكان . . . كانت تفوح من المكان رائحة قوية للغاية ، وكان ذلك جميلاً من حيث أنه قذارة صريحة ، وإليك ما قاله رجل يجيد عقد المقارنات وذو تلميحات ذكية : (إن أول ما رأيناه في المدينة هو الدم) .

كان كل شيء صامتاً ، ولم نكن نسمع صوتاً ، ولا أحد يمر ، وهنا وهناك على امتداد السور اتخذنا مكاناً لأنفسنا ، وهناك يهودي بولوني طويل وملتح ، واضعاً قبعته الكبيرة من وبر الثعلب على رأسه ، كانت البازارات مغلقة ، إنه العيد الإسلامي ، وهذا يستوجب عدداً من إطلاقات المدفع عند كل فرض من فروض الصلاة أثناء النهار والليل . . . بدت واجهات المحلات وقد تآكلت بفعل التراب ، وقد تهدم بعضها ، وكانت هذه المحلات مغطاة طويلة وضيقة وحادة ومستقيمة ، ولكنها أنيقة ، جميلة المنظر .

كان كل شيء مقوساً في أورشليم ، وكنا نمر من وقت لآخر تحت

نصف قوس أو ربعه، وقد أقيمت المساكن تحت هذه الأبنية العتيقة، وفي كل مكان، كان هناك قوس فوق رؤوسنا، ما خلا مشارف الحي الأرمني الذي كان جميلاً للغاية، وكان كل شيء فيه فسيحًا، وكانت الطرق فيه شبه مستحيلة على الخيول، وفي الشارع الذي كان يقع فيه فندقنا، كانت هناك جثة كلب تتململ بهدوء تحت أشعة الشمس، دون أن يخطر في بال أحد دفعها إلى مكان آخر، وهناك الخم . . . وكانت حيطان الجدران مخيفة ومن نوعية رديئة!

ولكن كان هناك على أية حال عدد أقل من بقايا الرقي مما كان في يافا .

كانت الخرائب في كل مكان، وتفوح رائحة الرمس والقنوط، فيبدو وكأن لعنة الله تحوم على المدينة المقدسة للأديان الثلاثة، والتي تموت من الضجر والركود والهجران، ومن وقت لآخر يمر أرناؤطي مسلح في هذه الشوارع الخالية المنحدرة، وتسطع الشمس فوق الخرائب وعلى الحفر الواسعة، وهناك كما كان في صور أو صيدا ويافا وعلى الساحل برمته أطفال بوجوه جميلة، وفتيات صغيرات بوجوههن الشاحبة المحاطة بشعر أسود مهوش .

وقد كتب عاموس عوز في كتابه موتى جدتي أن جده كلاوسنر بعد أن حلم طويلاً في الحياة في أورشليم انصدم بعد أن وصل إليها، ويعلل حادث انتحار أمه، بهذا الأمر، أما جدته فكانت تقول إن الشرق مملوء بالمكروبات، ويرى الصورة ذاتها جيلاد أتزمون في روايته حبي الواحد والوحيد، فكل شيء كان مزيفاً؛ وهذا ما تصل إليه إيستر ببساطة شديدة طبعاً . إنها المسافة بين وهم المدينة وواقعها، وأيضا الملاحظة التي انتبه لها ووضعها عن إدوارد سعيد في زيارته للقدس، أو بعد زيارته لها .

***

كان إمره كيرتس في روايته لا مصير هو الذي حرضني لأخترع شخصية نعومكن .

نعومكن بيرة من فضلك . .

وهكذا يصبح البار هو المكان الأمثل لتداول أشياء متعددة ومتناقضة أيضاً .

***

عثرت بالأمس على الوثيقة التالية والتي تعود إلى القرن التاسع عشر ، وكنت أحاول أن أجعل إدوارد سعيد يطابق بين المكانين في القدس ، طبقا إلى الوثيقة القديمة والوثيقة الحالية التي تبين تهويد القدس تماماً : تحمل الشوارع الرئيسية أسماء :

Harat bab el Hamond ، شارع باب العامود ، والذي يخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها . سوق الخبيز ، شارع البازار الكبير ، ويمتد من الغرب إلى الشرق . حارة الآلام . وتبدأ من باب العذراء ، مروراً بخيمة قائد بيلاط ، وتنتهي عند جبل الجلجلة . ونجد بعد ذلك سبعة شوارع صغيرة : حارة المسلمين La rue de Turcs ، حارة النصارى La rue des Chrétiens . تبدأ من القبر المقدس حتى الدير اللاتيني . حارة الأرمن Harat el Arman ، شارع الأرمن والواقع شرق القصر . حارة اليهود Harat el youd ، شارع اليهود ، وتقع جزارة المدينة في هذا الشارع . حارة باب هوتا ، وهو الشارع القريب من المعبد ، حارة الزاهرة التي ترجمها لي ترجماني بـ Stra da comparita ولا أعلم ماذا يعني هذا بالضبط . وأكد لي أن المتمردين والرجال الأشرار كانوا يسكنون في هذا الشارع . حارة المغاربة ، شارع المغاربة . وكما ذكرت سابقاً ، فإن هؤلاء المغاربة هم الغربيون والبرابرة ، وهناك بينهم بعض من أخلاف المور Maures الذين طردهم فيرديناند وأيزابيل من أسبانيا . وقد استقبلت المدينة المقدسة هؤلاء

المبعدين بكثير من الإحسان ، وتم بناء مسجد لهم . ويجري حتى يومنا هذا ، توزيع الفواكه والخبز وقليل من النقود عليهم . وأصبح ورثة بني سراج ، المعتزون بأنفسهم ، ومهندسو الحمراء الأنيقون ، عتالين في أورشليم ، ومطلوبين لحذقهم ، وسعاة مقدرين لخفتهم . ما عسى صلاح الدين وريشارد أن يقولا إن هما عادا إلى الدنيا فجأة ، ووجدا الفرسان المور وقد تحولوا إلى بوابين في القبر المقدس ، والفرسان المسيحيين إلى إخوة متسولين؟

. . . .

الملاحظات كثيرة . . واخترت منها هذا القدر فقط

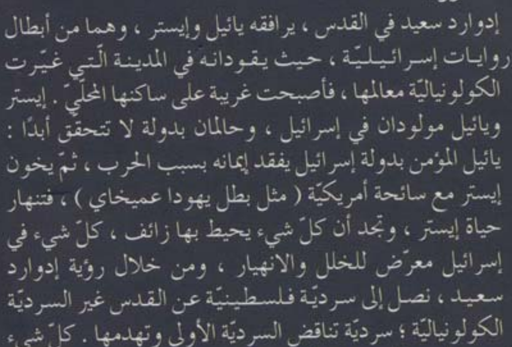
JERUSALEM LANTERNS

رواية
NOVEL



مَصَابيحُ أورشَلِيم





◆ **الرواية :**

إدوارد سعيد في القدس ، يرافقه يائيل وإيستر ، وهما من أبطال روايات إسرائيليّة ، حيث يقودانه في المدينة الّتي غيّرت الكولونياليّة معالمها ، فأصبحت غريبة على ساكنها المحلّيّ . إيستر ويائيل مولودان في إسرائيل ، وحالمان بدولة لا تتحقق أبدًا : يائيل المؤمن بدولة إسرائيل يفقد إيمانه بسبب الحرب ، ثمّ يخون إيستر مع سائحة أمريكيّة (مثل بطل يهودا عميخاي) ، فتنهار حياة إيستر ، وتجد أن كلّ شيء يحيط بها زائف ، كلّ شيء في إسرائيل معرّض للخلل والانهيار ، ومن خلال رؤية إدوارد سعيد ، نصل إلى سرديّة فلسطينيّة عن القدس غير السرديّة الكولونياليّة ؛ سرديّة تناقض السرديّة الأولى وتهدمها . كلّ شيء قديم يتراءى خلف الشيء الجديد ويقضي عليه . المدينة مثل الطرس : كتابات تنكتب فوق كتابات ، صور ترتسم فوق صور وكلّ كتابة تبدأ بالامّحاء . ترتسم على هذا الطرس كتابة أخرى لإدوارد سعيد: حياته ، مسيرته ، الأشعار الّتي كان يحفظها وهو طفل ، بيانات ، موت ، أحقاد ، خرائط عتيقة ، وهنالك الروايات الإسرائيليّة المكتوبة عن القدس: روايات عاموس عوز ، ديڤيد غروسمان ، ديڤيد شاحور ، إبراهيم بن يهوشوّع ، زوريا شيليف ... أشعار وقصائد لمناحيم بياليك ويهودا عميخاي وغيرهما ... من خلال هذا الكمّ الهائل من الوثائق ، نصل إلى تكذيب الرواية الرسميّة الإسرائيليّة ، ليبدأ سرد آخر مختلف : سرد اللاجئين والمطرودين والمنفيّين ، سرد المغيّبين والمهمّشين ، ومن خلال الرواية المدحورة تتقهقر الرواية المنتصرة ، وتظهر المدينة من تحت الطرس بكتاباتها الممحوّة وذكرياتها المتروكة والمهملة ، وإدوارد سعيد يواصل سيره وتوقّفاته ، ينظر إليها فتترمّم المدينة القديمة في عينيه ، وتتقشّر بنيتها الخارجيّة الّتي صنعتها الرواية الكولونياليّة ، وتتهاوى .

◆ **علي بدر :**

روائيّ عراقيّ ، حازت روايته الأولى (بابا سارتر) على العديد من الجوائز ، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبيّة .


ISBN 978-9953-36-909-7
9 789953 369099



